DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 074326354

موعد مع التاريخ

تجارب الأمم فى ثلاث سنوات

فؤاد صرّوف

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

١٩٥١

Ṣarrūf, Fu'ād

موعد مع التاريخ

Maw'id ma'a al-tārikh

تجارب الأمم فى ثلاث سنوات

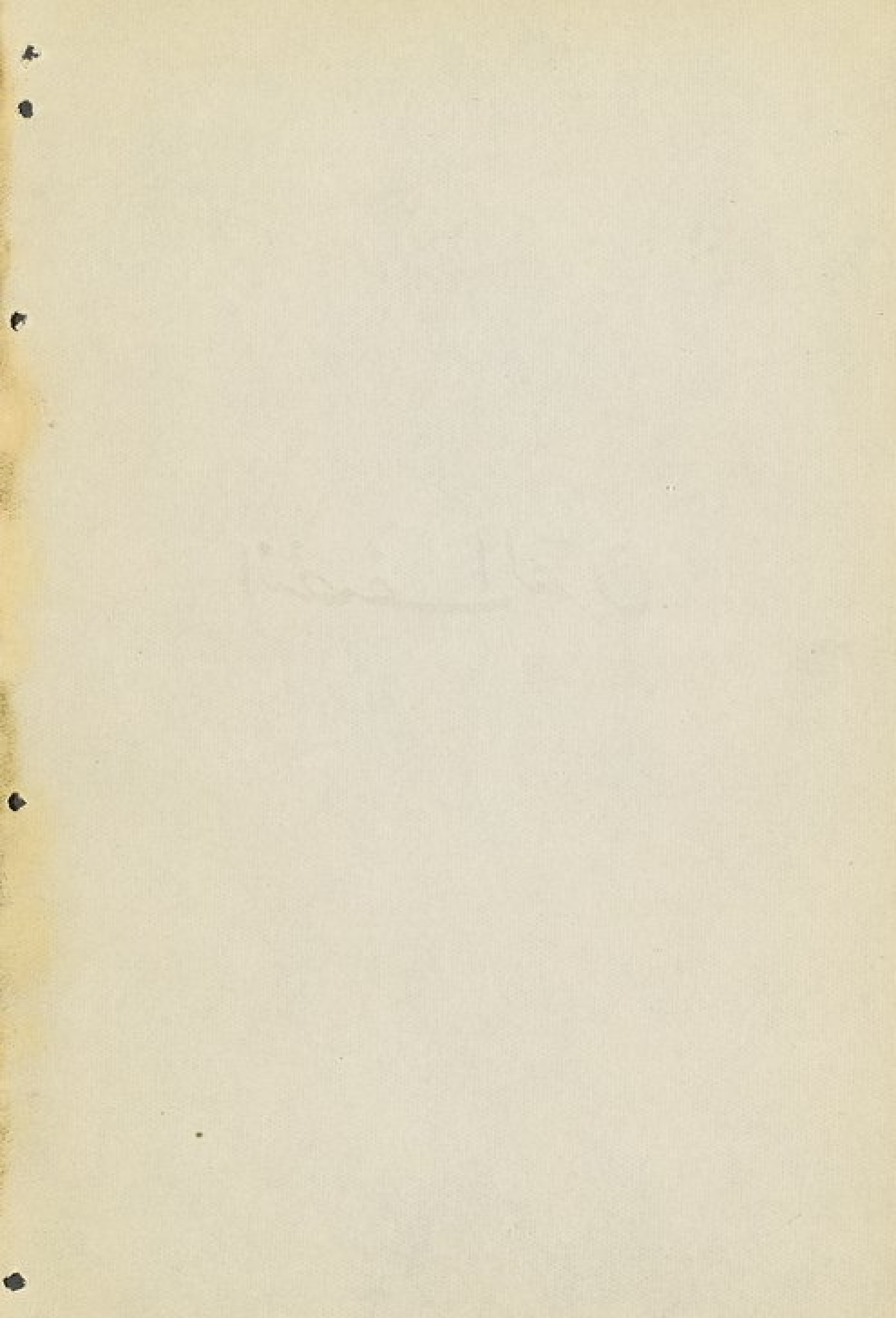
احمد زكي ابو شادي
A. Z. Abushâdy

فؤاد صروف

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

١٩٥١

انتصف القرن



مقدمة

انتصف القرن

أهلّ القرن العشرون وليس فى سمائه طائرة تهدر ، ولا ذرة تتفجر بمشيئة الانسان وسلطانه ، فلم يكد ينتصف حتى كادت الطائرة والقنبلة الذرية أن تدكا أركان عمرانه ، ولا يزال خطرهما يتعاظم .

كان القرن التاسع عشر حين دنا من ختـامه ، يغرى بالأمل العريض فى مقام البشر على الأرض ، فكان الانسان اذا وقف على الحد الفاصل بين القرنين ورد بصره الى السنين التى انقضت منذ هزم نابوليون فى واترلو ، يرى ما يحمله على الزهو بما صنع ، والثقة بالمستقبل . فقد شـهد القرن عار النخاسة يمحى فى شطر كبير من أرجاء العالم ، والقانون الدولى يعلو سلطانه شيئا فشيئا ، والعلوم الطبيعية والصناعة الحديثة يطرد تقدمها فتمهد للنـاس رجاء الغلبة على المرض والفاقة ، وقد انقضت ثلاثون سنة منذ نشبت آخر حرب تعد شيئا مذكورا ، وكان أحرار بريطانيا قد أخذوا يستخرجون العبرة من ثورة الأفكار على الاستعمار فمالت لندن بتأثيرهم الى تحويل الامبراطورية أو أجزاء منها الى جامعة دول أو أمم مستقلة تربط بينها أواصر أوهى من خيوط العنكبوت وأمتن من حبال الفولاذ ، واشتدّ الأمل بأن تسلك بقية الأجزاء

طريق الاستقلال والرخاء • أما الحكم النيابى فقد اتسع نطاقه فكثرت الأمم التى أخذت به وزاد عدد الرجال الذين يستمتعون بحقوق الانتخاب ، وبدأت المرأة تكسب مزاياها ، ونبتت فكرة العدالة الاجتماعية وترعرعت فى بريطانيا وألمانيا والبلاد السكنديناوية على تشريعات الاصلاح الاجتماعىّ فهنأ الأحرار بعضهم بعضا بهذا الظفر وجعلوا يتأهبون ليمدّوا آفاقه • وكان القرن التاسع عشر عصر ارتقاء فى نواحى الحياة جميعا ، حتى صارت فكرة الارتقاء نفسها ركن فلسفة القرن وسمة فكره ، وقد جمعها هربرت سبنسر وبوّبها ونسقها وقال فيها : « ليس الارتقاء مصادفة من مصادفات التاريخ بل هو شىء لا غنى عنه ••• فالتيار العظيم متجه الى الكمال والخير الذى لا تشوبه شائبة » •

ولكن لم تكد تمضى سنوات على استهلال القرن ، حتى أخذت الخيبة تلقى ظلالها القاتمة على الآمال المشرقة • وفى نصف قرن من الزمان أو أقلّ حلّت الحرب محل السلام ، والقلق والفاقة محلّ الطمأنينة والرخاء ، والشكّ فى البقاء نفسه محل الارتقاء والسير فى معارج الكمال • وقد يندر أن تجد فى عصور التاريخ عصرا كعصرنا هذا دمّرت فيه الآمال الزاهية كهذا التدمير ، وانقلبت فيه النظرة الى الحياة كهذا الانقلاب الذى طرأ عليها — من الوثوق الى الريب ، ومن رعاية الأخلاق الى الاستهتار بها ، واذا المبادىء والمعايير التى لم تزل قائمة منذ دعا اليها الرسل وغنّاها الشعراء قد دخلها الريب ، بل النكران • أما فلسفة الارتقاء التى نسّقها سبنسر وجعلها عنوانا للقرن التاسع عشر ، فقد أخذت تخلى مكانها للتحكّم العلمىّ الميكانيكى ، أو القدرية العلمية كما

يقولون ، وأما المادة التى كانت راسية لا ينالها الشك ، فقد أصبحت فى علم الطبيعة الجديد نبضات كهربائية أو موجات من الاحتمال الرياضىّ تمور فى الخواء ، وصار العقل الذى كان مميز الانسان عن العجماوات ، مجموعة مختلطة من الأفعال المحوّلة والغرائز الجنسية ورغبات الاستعلاء والسلطان .

كشف المنظار والحساب الرياضىّ كونا متراميا يتيه فيه العقل والخيال ويتحدّى قياسه الملايين من سنى الضوء ، فصارت الأرض دقيقة من غبار فى فضاء لا يحدّ ، وكشف المجهر وغيره من وسائل البحث جسما حيّا كامنا فى الخلية ، وكونا مصغرا فى الذرّة ، وانتهى بعض علوم الحياة الى أن الحياة نفضة تحدثها تفاعلات كيميائية يبدو أنها تحدث مصادفة وعلى غير غرض مقصود ، ففشا روح الانكار أو قلة المبالاة على الأقل فى المجتمع ، وضعف سلطان الدين على النفوس ، ووهن الوازع الخلقى فى سلوك الناس ، وليس من المصادفات أن الدول التى أخذت بمادية التاريخ هى أميلها الى الاعتداء على حقوق الانسان وكرامته المتأصلة فى تعاليم الرسل وأغانى الشعراء ، فلما وهن سلطان الدين وهن كلّ سلطان آخر فى ميادين الفكر والفن ، واذا تجارب التجديد على قدم وساق فى بعض الأمم ، واذا البحث عن سلطان جديد يستأثر بالنفوس فى بعض آخر ، وان كان سلطان القوة الغاشمة .

فى هذا الجوّ من الفكر والشعور ، تمت أحداث النصف الأول من القرن العشرين .

ففى جماعة كبيرة من الأمم بذلت المساعى للتوفيق بين سلطان الحكومة ومقتضيات الحال الجديدة فى الاقتصاد والاجتماع . وقد

كان مبدأ الديمقراطية ومبدأ المساواة كالخميرة فى المجتمع ، فتم شيء من هـذا التوفيق فى بريطانيا والولايات المتحدة وسكنديناوة وغيرها ، وفقـا لمبادىء الدستور وأصول التطور المعتدل ، فقد أدرك الناس أن الحكومة لا يسعها أن تقف موقف المتفرّج على الحياة تسير زاخرة فى ظلها بل ينبغى أن تكون لها يد فى ضبطها وتوجيهها والاشراف عليها ، وكذلك نشأت « دولة الخير » هنا أو هناك ، حيث صار للحكومة عمل جوهرى فى تنظيم المجتمع تنظيما اجتماعيًا يقلل ما بين الطبقات من تفاوت ، ويضمن لأفراد الأمة قدرا من الضمان والعون على العيش الكريم ، ولكنّ هذا السعى لم يخلص من شوائب الشكّ فى أن هيمنة الحكومة اذا اتسعت دائرتها ، كانت أول الطريق الى الحكم المستبدّ •

أما فى بعض البلاد الأخرى فقد كان التطوّر عنيفا ، فسلكت روسيا سبيل الثورة الشيوعية ، وايطاليا طريق الفاشية ، وتوسلت ألمانيا بالحرب فلما أخفقت لجأت الى النازية ، وعانت أسبانيا والمكسيك وغيرهما هزات ثورات شتّى ، انتهت فى المكسيك الى حكم مستنير وفى أسبانيا الى ضرب من الحكم الجامع • وقد اصطلحت فى آسيا المبادىء الديمقراطية الحديثة التى أخذها طلائع الشباب عن جون ستيوارت مل وأقرانه من فلاسفة الأحرار فى الغرب ، والأساليب الصناعية التى أتقنها العلم ، على اذكاء النفوس، فآثرت اليابان أن تأخذ بأسلوب الاقتصاد الغربىّ والصناعة الغربية والعسكرية الغربية مع مسحة من الحكم النيابى ، فصارت احدى الدول العالمية التى تحاذر قوتها ، وتردّت الصين فى غمار انقلاب حولها الى الجمهورية ، فأشرق أملها ولكن مزقها النزاع

بين طوائفها وأوهنها الفقر ، ومع ذلك ناضلت اليابان عشر سنوات أو أكثر ، ولكنها لم تستطع أن تصمد فى وجه الشيوعية الجارفة . وأما الهند فقد تنكّرت لسلطان بريطانيا وفى الوقت نفسه أنشأت صناعة حديثة لم تزل تطرد سعة وقوة ، الى أن ظفرت بحريتها ورضيت أن تبقى — زمنا على الأقل — فى دائرة الكومونولث المرنة ، وهى الآن تشرف من كوتها على شطرى العالم ، وفى يدها أن تصير احدى دوله الكبرى . وقد خرج العالم العربىّ من نطاق الدولة العلية تحدوه ذكرى التاريخ العربى ومنى النهضة العربية ويحمله الأدب العربى المنبعث على أجنحته ، وقد ظفرت دوله بقسط محمود من التقدم العلمى والاقتصادى والسياسى ، ولكنها لا تزال برغم قيام الجامعة العربيـة ، متعثرة بين فرقة سياسية لها أسبابها التاريخية ، وتردد عن الانتفاع بكل وسيلة تمهّد لها — من حيث هى رقعة متكاملة التاريخ واللغة والدين والمصلحة — سبيل القوة بالوحدة ، أو بالتضامن الوثيق على الأقل .

ويغلب على الرأى أن أهم أحداث النصف الأول من القرن العشرين فى ميدان السياسة والاجتماع ، كان قيـام الشيوعية الروسية وانتشارها ، ونهضة الولايات المتحـدة وانصرافها عن العزلة وتحوّلها الى أعلى مقام بين دول الأرض ، وانحطـاط الامبراطورية البريطانية . ومجال البحث فى هذه الأحداث الثلاثة ذو سعة ، يضيق به الفصل وقد يضيق المجلد الكبير . ولكنها جميعا متأصلة فى العلم الجـديد والصناعة الجديدة والتطوّر الاقتصادى الحديث . فامتناع القياصرة أو عجزهم عن أن يوفروا لملايين الروس قدرا يسيرا من الأمن الاقتصادىّ أفضى الى تأثر

المفكرين الروس بتعاليم ماركس ، وذيوع هذه التعاليم بين أبناء الأمة ، واستتباب الأمر لأصحابها بالثورة ، وتوسلهم بمشروعات الصناعة الحديثة لرفع مستوى الاقتصاد الروسى والقدرة الحربية الروسية ، وبمادية ماركس ووسائل العلم ليقتلوا فى الأجيال الجديدة روح الدين التى تنبع منها الحرية فى أسمى مظاهرها .

وأما الولايات المتحدة ، فقد استطاعت فى خمسين سنة أن تضاعف بوسائل الصناعة والعلم عدد سكانها وأن تستقبل فى أرضها ملايين من مهاجرى أوربا وغيرها ، وأن توفر الطعام والآلات لهم ولجانب كبير من أمم الأرض ، وأن تبنى حين اقتضتها ضرورات السياسة والدفاع آلة حربية ضخمة ، وعلى ما للمادة والآلة من منزلة فى حياة الأمة الأمريكية ، فانها أمة لها من تقاليد هجرتها الأولى ما يجعلها تعلى شأن القانون ، وتحاسب حكومتها فى نطاقه ، فاستطاعت أن تسلك طريق التطور السلمى فأنشأت أقوى اقتصاد قومى عرف ، بغير أن تضحى — حتى الآن — بحقوق أبنائها وحرياتهم الأصيلة . وأما انحطاط الامبراطورية البريطانية فلا يقتصر على انفصال برما عن الكومونولث ، وتحول الأجزاء الأخرى الى دول مستقلة لا يربطها سوى رباط التاج ، بل يشمل الوهن الذى حل ببريطانيا من أثر حربين عالميتين ، عجزت معه عن أن توفر بالصناعة التى كانت طليعتها المال اللازم للمحافظة على منزلتها العالمية . ومع ذلك ، فالكومونولث لا يزال فى مجموعه قوة دولية يحسب لها حساب ، والروابط بين أجزائه أمتن مما تدل عليه نصوص القوانين التى نظمتها ، وبريطانيا نفسها التى كانت مثال الدولة الرأسمالية لأنها كانت الدولة الصناعية الأولى ، ومثال

الدولة الاستعمارية لأنها بحكم الصناعة طلبت الموارد والأسواق ، تراها اليوم فى طليعة الأمم التى تسعى الى التوفيق بين السلطان والحرية — فى انجلترا نفسها عسى أن يصبح نظام الاجتهاد الحرّ فى المجتمع أدنى الى مسايرة ضرورات العصر من الدولتين الرأسمالية القحة والشيوعية المتطرّفة ، ومثالا لغيرها • وترى أيضا « كومونولثها » أجدى ما عرف من نمط للتعاون الدولى الذى لا مفرّ منه ولا غنى عنه فى عالم لا يتجزأ فيه السلام ولا يتجزأ الرخاء •

وأشدّ بلوى منى بها الناس فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت بلوى الحرب • وقلّ أن تجد فى تاريخ الانسان على الأرض حقبة من الزمن اكتوى فيها الناس بنار الحرب ورزاياها من تقتيل وتدمير وانفصام فى روابط الاجتماع والاقتصاد وانحطاط فى منزلة القانون ، كحقبة الخمسين السنة المنصرمة ، ولو عدت ببصرك الى مستهل القرن وذكرت مؤتمر السلام الذى عقد فى لاهاى ، لوجدت الحربين العالميتين الماضيتين أفجع ما ينتهى اليه أمل كالأمل الذى راود ذلك المؤتمر •

والحرب العالمية الأولى تعدّ صغيرة فى جنب الثانية ، ولكنها كانت كالزلزال المدمّر لا يلبث أن تلى موجته الأولى موجة أشد فتكا وتدميرا • فقد كانت تلك الحرب هى الحرب الأولى على نطاق عالمىّ ، والحرب الأولى فى العصور الحديثة التى تزعزعت فيها هيبة القانون الدولى ، والأولى التى لم تفرق بين المحاربين والمدنيين ، والأولى التى كشفت عن قدرة الأسلحة الحديثة على التدمير — الطائرات والغواصات والدبابات والغازات الحربية • وقد كانت

عواقبها الاجتماعية خطيرة — ففى أحضان الحرب نفسها وعلى أنقاض النظم الاقتصادية والسياسية المتداعية التى أعقبتها ، نبتت الثورة الروسية والثورة الايطالية والثورة النازية ، وسمت اليابان الى مكانتها العالمية ، وارتدّت الولايات المتحدة بعد مغامرتها الأولى الى قوقعة عزلتها ، ولكن بعد أن تبينت عناصر قدرتها وأدركت أن مصيرها مرتبط بمصير العالم ، فلمّا تمّ صنع القنبلة الذرية فى المغامرة الثانية صارت العزلة الأمريكية وهما خاتلا .

ونحن لا نزال اليوم على مقربة من الحرب العالمية الثانية ، فلا يسعنا أن نستوضح عواقبها ، ولكن اذا نظرنا الى أسبابها القريبة والبعيدة وقفنا عند شىء يحمل على الروية ، فقد كانت أسبابها القريبة قيام الحكم الجامع واستفحال رغبة التوسع بالقوة، وهذه موضوعات سيتوفر عليها المؤرخون ، وأما أسبابها البعيدة فترتدّ الى المنشآت والآراء وطرق التفكير التى لازمت القرن الجديد منذ أهلّ .

فقد نشبت الحرب من تناحر القوميات التى ورثها القرن العشرون عن القرن التاسع عشر ، دون أن يروّضها ، مع أن العلم والصناعة فى طورهما الجديد جعلا أمم الأرض موصولة الأواصر متكاملة المنفعة ، ومن استفحال النزعة العسكرية التى أمدّتها الصناعة بالأدوات المهلكة ، ومن عجز الانسان عن السيطرة على علمه وصناعته . فالقدرة على الانتاج أفضت الى زيادة السكان ، فالى زيادة المنتجات المصنوعة ، فالى زحام على الأسواق . والحق أن الخطأ كان خطأ الساسة لا خطأ الصناعة والعلم ، فشعوب

الأرض غير الصناعية كانت كفيلة بفتح أبواب الرخاء على مصاريعها لجميع الناس ، لو أحسن التوزيع ، ولو أخذ بأيديها أخذا رفيقا غير استعماري ، حتى تمضى قدما تنمى مواردها وترفع مستوى معيشتها ، فتصير أعضاء نافعة فى المجتمع العالمى تأخذ منه وتعطيه سواء بسواء .

وعلى الرغم من جميع هذه العواقب المفجعة ، فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين ارتقاء مطردا ساعد على انقاذ الملايين من الهلاك بالأوبئة ، ومد فى أمد الحياة على الأرض ، وخفف الآلام بالعقاقير الجديدة العجيبة ، ويسر انتشار أسباب التربية والمعرفة ، ورفع مستوى العيش وخفض مساوىء الصناعة ، وحسن أحوال العمال ، وزاد وسائل التسلية والتربية . ولو حصرت النظر فى الفترات التى بين الحروب لقلت أن حياة المرء بوجه عام كانت أيسر وأفضل . ولكن ثمار التقدم العلمى والصناعى على ما كان لها من نفع محقق ، تراها تشيل فى الميزان متى وازنتها بالريب التى داخلت النفوس ، وانهيار الايمان بالدين والأخلاق والقانون ، واستفحال القدرة على صنع أدوات الشر ، ومن هنا القول بأن قدرة الانسان سبقت حكمته فى الانتفاع بها .

وقد انتصف القرن الآن ، ولا يزال أبناؤه يعانون المشكلات نفسها وان اختلفت وجوهها — كيف يضمنون قسطا من السلام يتيح للعقول أن تزدهر وللهمم أن تعمل ؟ كيف يسيطرون على القوى المخوفة التى فتقها العلم من الذرة وجعلتها الصناعة فى منال أيديهم ؟ كيف يحسنون الانتفاع بموارد الأرض أجدى انتفاع دون أن يدمروا ، البيئة الطبيعية التى تزكو فيها الموارد ،

بل كيف يزيدون هذه الموارد لتكفل الأود للناس الذين يزداد عددهم عشرات الملايين كلّ عام ؟ وكيف يسيرون نحو انشاء الدولة التى تكفل الخير العام دون أن تفتئت على حقوق الأفراد الأصيلة ؛ أى كيف يوفقون بين السلطان والحرية فى الدولة ؟ وكيف يردّون الى النفوس ثقة بالخير واستمساكا بالفضيلة والحق ؟ كل مشكلة منها عسيرة أو هى عصية على الحلّ ، وهى فى مجموعها أعسر وأعصى • ولكن تاريخ الانسان على الأرض ، وعبر التجارب التى بلاها فى النصف الأول من القرن العشرين ، والوسائل التى أتاحها له العلم ، والوفر الذى تستطيع الصناعة أن تخلقه — كلّ ذلك خليق أن يمهّد للانسان انْ عقــل أن يمضى الى حلّها ، فان لم يفعل فالعاقبة وبال ، فهو فى النصف المقبل من القرن ، على موعد مع تاريخه — وهذا هو الأمل الذى يتحدّى العزائم •

* * *

منذ ثلاث سنوات عدت أدوّن وأنشر ما أراه فى أنباء الأمم وحوادث الدنيا ، فنشرت أكثر ما كتبت فى صحيفتى « المصرى » و « الأهرام » فى مصر ، ومجـلة « الكتاب » فى مصر ، ومجلة « الأديب » فى بيروت ، وأذعت طائفة من الأحاديث من محطات الشرق الأدنى للاذاعة العربية ، والاذاعة البريطانية ، والأمم المتحدة فى ليك سكسيس • وقد ضيّعت كثيرا مما كتب ونشر ، فاخترت مما تبقّى فصول هذا الكتاب ، وأقدمت على طبعه ونشره لأستعيد فى اعداده للطبع ومراجعة تجاربه ذكرى أيام عشناها بين الرجاء والخوف ، عسى أن يشاركنى فيها بالمطالعة اخوان كرام قرأوها

يوم نشرت وتفضلوا بكلمة تذكى الهمة والعزم على مواصلتها .. ولم أغير فى هذه الفصول شيئا سوى حذف فقرة من مقال ، واضافة فقرة من مقال حذفته الى مقال آخر ضممته الى المجموعة ، فهى هنا بما فيها من الأحكام والخطرات التى أصابت أو أخطأت ، وما أكثر الخطأ ، والأحلام والمنى التى تحققت أو خابت — وقد كانت الخيبة أغلب ، فهى صورة لفترة من حياة الناس كما وقعت فى نفسى يوما بعد يوم .

وقد جعلت عنوانه الأول ، عنوان أحد فصوله « موعد مع التاريخ » وقد كان فى أول الأمر عنوانا لمقال عن قومنا ، ولكننى تلفّت من حولى فلم أجد أن العرب وحدهم هم على موعد مع تاريخهم بل الانسانية جمعاء على موعد مع تاريخها . وأما العنوان الثانى « تجارب الأمم » فهو عنوان كتاب للفيلسوف ابن مسكويه ، وقد درجت على اتخاذه منذ أيام الحرب العالمية الثانية عنوانا ثابتا لأكثر هذه الفصول أينما نشرت . وقد ذكرت فى مسرد كل باب تاريخ نشر الفصل أو اذاعته ، ولكن الفصول مع الأسف ليست مرتبة وفقا لتواريخها من أول الكتاب الى آخره . ومنها ما نشر دون توقيع ، ولكننى استأذنت فى ضمّها الى ما نشر بتوقيعى . واننى لأستغفر القرّاء ما فى هذه الصفحات من تكرار لبعض المعانى ، فلم يكن فى وسعى اتقاءه لتشابه الأحداث المتواترة .

ويسرّنى فى ختام هذه التوطئة ، أن أجزل الشكر لأصحاب الصحف والمجلات ومديرى محطات الاذاعة الذين تفضلوا ، فأتاحوا لهذه الكلمات أن تنشر أو أن تذاع .

٧ ديسمبر ١٩٥٠ — فؤاد صروف

الجهاد الأكبر

الجهاد الأكبر

قـــرار الحق

لن يستقرَّ لأمر قرار حتى يكون قراره على الحق

كلمة حق لن تجد اليوم كلمة أصدق منها انطباقا على ما تم فى أمر فلسطين ، ولو تصيدت الدول الكبيرة التى تريد القسمة ، أصواتا أخرى تجعل عدد الأمم التى وافقتها على التقسيم ، خمسين دولة لا ثلاثا وثلاثين لما انقلب الباطل حقـــا ، ولما قال عاقل ينظر الى شئون الأمم من ناحية أخلاقها وتطورها التاريخى الطويل ان قسمة فلسطين قد قر قرارها بهذا الاقتراع المدخول الزائف ، وكل من يظن أن هذا القرار هو خاتمة القول فى فلسطين يجهل انه بدء نضال طويل مرير •

ونحن نرى أن الحق الذى نطالب به فى فلســطين هو حق التاريخ ، وحق المنطق ، وحق العدالة ، بل وحق المصلحة أيضا : مصلحة العالم ومصلحة اليهود أنفسهم لا مصلحة العرب وحسب وليس يغلبنا على هذا الرأى ، أقوال فيها مماحكة ، وأرقام فيها تهويل ، وتحريك النخوة والشــهامة لايواء المشردين • فهذا البلد الذى يريدون تقسيمه ، لم يزل وطنا للعــرب منذ ألفى سنة متصلة • يقف فيه العربى أينما وقف ويرفع فى راحته حفنة من ترابه فاذا التراب دقائق من عظام آبائه وأجداده ، ويجيل

العين فى آكامه ووهاده التى يخرج منها قمحه وزيتونه وبرتقاله فاذا الأرض ندية بالعرق المتحدر من جباههم جيــلا بعد جيل • ولو أراد الناس أن يغيروا معالم خريطة العالم استنادا الى اقامة شعب اقامة عابرة فى أرض ما منذ زمن بعيــد لضربت الفوضى اطنابها فى جميع أرجاء الأرض ، ولو توسلوا بما يزعمونه لبعضهم من قدرة على اصلاح الأرض واقامة العمران ، لصار الفتح بالقوة آية الدنيا ، ولحق لموسولينى ما أنكرته عليه أمم الأرض فى الحبشــة •

بين يوم وعد بلفور فى ســنة ١٩١٧ ، ويوم قرار الجمعية العمومية فى سنة ١٩٤٧ ثلاثون سنة وبضعة أسابيع قضاها العرب فى النضال لرد الباطل ورفع الحيف وقد كان نضالهم بالقوة حينا وبالمنطق حينا وبالرجاء المعلق على العهود والكتب البيض والملونة حينــا ولكن من عجائب المنطق المعكوس فى معجم سياسة القوة أن يتخذ وعد بلفور أساسا يرجع اليه ولا يحاد عنه ، وأن يزعم رجل مثل سمنرويلز وكيل الخارجية الأمريكية الأسبق — فى كتابه « الى أين نحن سائرون » ، ان هذا الوعد «وثيقة مقدسة» • فهذا قول ينافى العقل والمنطق جميعا ، مع أن صاحبه كان ينبغى أن يكون أسلم علما وادراكا ، فمن ذا الذى وهب بلفور حقا فى أن يتصرف فى مصير فلسطين كأنها ضيعة من ضياعه • ومن ذا الذى منح هيئة الأمم المتحدة فى جمعيتها العمومية حقا فى تقسيمها وهى التى أنشئت لكى تؤلف بين الأمم ، لا لكى تمزق أوصال أمة قائمة ، ومن ذا الذى ألهمه العقل فرأى أن دولة مؤلفــة من مثلثات هندسية تصل بينها خطوط أو نقط هندسية تستطيع أن

تعيش الا اذا توسعت فيما بعد على حساب جاراتها ، وقد طال اجتماع الجمعية العمومية عشرة أسابيع ، وافقت فيها على قرارات خاصة بلجنة البلقان ، ولجنة كوريا ، والجمعية الصغيرة فتنكرت لها روسيا جميعا ودعت اليها أمريكا جميعا ، ثم اذا بالدولتين تتفقان على قسمة فلسطين ، فصدق عليهما قول فارس الخورى : « لقد اتفقتا على الشر » .

وهذا الشر شر عام ، فمن الزراية بكرامة العقل البشرى فى هذا العصر أن تصاد أصوات الأمم بالمال أو بالضغط أو بالاغراء ، ومن بلاء هذه الدنيا أن تنشأ فيها هيئة أممية على رجاء التعاون والأمن والرخاء ، فلا تتفق دولتاها الكبريان على شىء سوى ، جور تمليه سياسة القوة . ومن نكد الدهر أن يحمل العرب وزر الافلاس الروحى الذى بليت به أمم الغرب فجعل اضطهاد اليهود فى أراضيها آية من آيات حضارتها . وقد أنذر ممثلو العرب رجال الهيئة بأن هذا القرار كفيل بأن يشعل فى فلسطين نار حرب أهلية ، وأن ما يلازمها ويعقبها من الاضطراب فى الشرق العربى نذير بما هو أجل منه وأفدح على سلم العالم . وبين أهل الرأى أن أمريكا تحقق باصرارها على اقرار القسمة ، ما تحاول جاهدة أن تمنعه بما يقرره الرئيس ترومان فى صدد اليونان وتركيا وما يقترحه الوزير مارشال لمعونة أوربة .

ومن أغرب الغرائب فى قصر النظر السياسى ، أن أمريكا أغفلت ، وهى مفتوحة العينين ، فرصة قلما تسنح فى الدهر الطويل فرصة مثلها لأمة كبيرة . فقد أتاحت لها مشكلة فلسطين أن توفق فى سياستها بين كرامة المبادىء التى أوجدتها ونادت بها

وقالت انها سر كيانها ، وبين مصلحتها العالمية الخاصة ، ولكنها داست الأولى ، ولم تكفل الثانية ، بل زادتها عرضة للبوار .

والتعبير عن غضبة العرب لما تم بالتظاهر ، حق بل فرض . ولكن هذا اللون من ألوان المطالبة بالحق ينبغي أن يقف عند حده النافع المعقول ، لأنه قليل الجدوى فى نضال لا بد أن يكون طويلا مريرا . والرجاء معقود على أن يكون أقطاب أمم العربيـــة قد أحكموا تدبير الخطة لهذا الضرب من النضال من جميع نواحيه ، فقد علمتنا الحرب العالمية الثانية أن عضل الجند وبأسهم وشجاعتهم لا تغنى عن عصب القتال الذى نظم أدق تنظيم وأحكمه .

وبعد فان خطب فلسطين مكروه نحمد عليه الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، لأنه جعل بين أيدينا فلذة دامية من الوطن العربى نستطيع أن نلتف من حولهـا ، ثم لأنه يغنينا عن اضاعة الجهد فى اقامة الحجة بالكلام ، ويهيب بنا الى العمل .

فلن يستقر لأمر فلسطين قرار حتى يكون قراره على الحق . ولن يضيع حق ما دام وراءه مطالب .

بين جهادين

فلسطين بلد صغير ، لا يزيد عدد أهليه على واحد فى الألف من أهل كرة الأرض . وفى العالم مشكلات كثيرة تستأثر باهتمام الدول ، منها هذا القتال الدائر فى أرض الصين ، والنزاع القائم فى بلاد الهند بين دولتيها . ولو وزنت مشكلة فلسطين فى الميزان الدولى ، بعدد أهلها وحسب ، لكانت مشكلة الصين خليقة أن تفوقها شأنا مئتى ضعف وخمسين ضعفا ، ولبزتها مشكلة الهند

متى ضعف أو نحوها • بيد أن مشكلة فلسطين لم تزل فى المقام الأول بين مشكلات الدول ، منذ سنة أو تزيد ، وقد خصصت لهـا هيئة الأمم المتحدة ، ثلاث دورات كاملة تقريبا من دورات جمعيتها العمومية ، واسـتأثر بحثها فى مجلس الأمن بمجهود اعضائه منذ أواخر فبراير الى أواسط ابريل ، ولا يزال موضوعها فى مجلس الأمن والجمعية العمومية ومجلس الوصاية ولجانها قائما لم يعتوره فتور • أضف الى ذلك كله الاهتمام بفلسطين فى عواصم طائفة كبيرة من الدول ، من وشنطن الى لندن وموسكو فحواضر الشرق العربى ، ثم لا تنس ألوفا من المقالات كتبت فى الصحف العالمية ، ونقل مضمونها بالبرق الى أربعة أركان المعمورة• وليس ثمة من يزعم أن هذا الاهتمام ليس فى محله •

فلم ذلك كله ؟

فى وسعك أن تقول ، ولا تخشى الخطأ : لأن أرض فلسطين أرض مقدسة فى نظر أهل الأديان الثلاثة — اليهود والمسيحيين والمسلمين • ثم فى وسعك أن تقول أيضا : لأن العرب الذين هبوا الى استرداد تراثهم المجيد وبناء مستقبلهم البـاهر ، يأبون أن يروا اسفينا صهيونيا يدق بين ميمنتهم وميسرتهم فى الشرق العـربى ، فيشطره ويعوق سيره وتعاون شعوبه على ما فيه خيرهم وخير الانسانية جميعا • وأخيرا فى وسعك أن تقول : لأن فلسطين واقعة فى رقعة من سطح الأرض ، هى أخطر رقعها شأنا حربيا ، وأن النزاع العالمى بين الكتلتين الشرقية والغربيـة من الدول ، يتجلى فى الشرق الأوسط على نحو لا يجاريه تجلٍّ فى أية رقعة أخرى •

فعجز الأمم المتحدة عن الوصول الى حل لمشكلة فلسطين يكفل

الحق والعدل ، هو الحقيقة المفجعة التى أسفر عنها اللجاج الدولى ، منذ أعلنت بريطانيا هيئة الأمم فى السنة الماضية ، أنها تنوى أن تنفض يدها من الانتداب وتلقى به فى أحضان الهيئة العالمية •

وهذا العجز صدمة أليمة للقلة القليلة التى لم تزل تؤمن بأن الأمم المتحدة قادرة على أن تنهض بعبء المهمة التى أنشئت من أجلها • وقد قامت الأمم المتحدة على فرض التعاون الوثيق بين الدول الخمس الكبيرة ، ثم على فرض سيرها يدا واحدة فى طليعة سائر الأمم ، عاقدة عزمها على توفير أسباب الأمن والسلام والرخاء للناس جميعا • وقد منحت هذه الدول الخمس حق النقض (الفيتو) على مضض ، ولكنه كان اعترافا بحقيقة لا سبيل الى نكرانها ، مهما برمت بها وثرثَ عليها ، وهى أنه من العبث أن تحاول الأمم المتحدة أن تفرض بالقوة على أية واحدة من هذه الدول الخمس أو جماعة منها ، حلا لا ترضاه ، لأن ذلك يعنى نشوب حرب عالمية •

وكان الرأى كذلك ، أنه اذا لم تصدق الدول الكبيرة فى تعاونها فمن العبث أن تتوقع نجاح الأمم المتحدة فى مهمتها ، بل قدر فريق كبير من رجال السياسة العقلاء ، ان كل انقسام خطير بين الدول الخمس يفضى حتما الى خيبة الأمم المتحدة فيما تسعى اليه •

وقد كان من عاقبة النزاع القائم بين الدول الكبيرة ، أن تحقق أسوأ ما ذهب اليه المتخوفون على مستقبل الهيئة •

وأغلب الظن أن تبعة الانقسام بين الدول الكبيرة ، هى تبعة موزعة ، ولكن معظمها حتى الآن ، واقع على عاتق روسيا ،

لحرصها على التوسع حرصا حمل الدول الغربية على اتخاذ الخطط التى تكفل لها الدفاع عن نفسها ، ولأن روسيا أحبطت جانبا كبيرا من عمل الهيئة بأسرافها فى الالتجاء الى حق النقض •

بيد أنه لابد من التسليم بأن الولايات المتحدة تحمل نصيبها من التبعة فى ضعف هيئة الأمم المتحدة ، بما سارت عليه من خطة غير مستقيمة فى قضية فلسطين • فقد وافقت أولا على القسمة وحثت غيرها على الأخذ بها ، فزينت لليهود آمالا عراضا فى قيام دولتهم الصهيونية وظفرت من أصدق أصدقائها فى الشرق العربى ومن جماعة من خيرة أبنائها بأشد الاستنكار • ثم ثابت الى الصواب فأدركت ما للشرق الأوسط وزيته وموقعه الجغرافى ومودة شعوبه من قيمة حربية ، فعدلت عن القسمة ، فأحفظت الصهيونيين ومدت للعرب حبل الأمل فى العودة الى الحق • ثم لم تكد تنقضى احدى عشرة دقيقة على اعلان قيام دولة اسرائيل حتى اعترف بها الرئيس ترومان ، فى نفس الوقت الذى كانت مسائل فلسطين مطروحة للبحث فى مجلس الأمن • ولو نظرت الحكومة الأمريكية فى قضية فلسطين من ناحية الحق والعدل والمصلحة العالمية والمبادىء التى ولدت الديمقراطية الأمريكية الكبيرة ، نظرة مجردة عن التأثر ببواعث السياسة المحلية واهواء الانتخاب ، لاستطاعت أن تلقى بكل قوتها الأدبية العظيمة فى كفة تكفل للعرب العدل ، ولليهود الأمن وأسباب النمو ، ولهيئة الأمم مكانة تؤهلها لعلاج المشكلات العالمية التالية بثقة وطمأنينة • ولو فعلت لجنت ثمار ما فعلت قوة أدبية عالمية ، ومودة وصداقة ، ولعزت الهيئة التى أرادها فرنكلن روزفلت أن تنجح حيث

أخفقت عصبة الأمم من قبلها .

وبعد فان المحنة والامتحان مشتقان من أصل واحد . وقد جاءت محنة فلسطين امتحانا لهيئة الأمم المتحـــدة ، فأخفقت ، وللطائفة اليهودية العالمية ، فأبى متطرفوها أن يصغوا الى عقلائها يقولون لهم ، ان الاصرار على انشـــاء دولة صهيونية فى فلسطين خطأ لأنه لن يستقر لها قرار ، وستبقى دائما فى حاجة الى الدفاع عن كيانها بالسلاح ، والى التغلب على القطيعة الاقتصادية والعداء النفسى . وانه خير لهم وأبقى أن يكون أساس مقامهم فى فلسطين قائما على التعاون مع العرب وكسب صداقتهم ومودتهم ، وتجنيب سائر اليهود المقيمين فى شتى أرجاء الدنيا عواقب هذا العداء المقيم .

ثم أن محنة فلسطين امتحان للعرب فهذه أيام تبلو الأمة العربية بشدائدها وتصهر معدنها بنارها ، فاذا هى سمت الى التحدى الموجه اليها خرجت من المحنة أصلب عودا وأصفى معدنا وأطهر .

وليس هذا التحدى هو تحدى الصهيونيين وحسب ، على الرغم من سنين كثيرة أحسنوا قضاءها فى التأهب لهذا النزال ، بل هو تحد أعظم وأخطر وألصق بالنفس . وقد صبرت الأمة العربية وصابرت مؤمنة بأن الحق يعلو الى أن أصبح لا مفر لها من أن تقدم فأقدمت ، جزى الله الشدائد كل خير ، فعسى أن تكون شدائد هذه المحنة هى النار التى ما زالت اليقظة العربية فى حاجة الى اقتحامها ، حتى تخرج الأمة العربية منها ، كالحسام المثقف صلابة ولينا . فالقتال الدائر فى فلسطين ، هو الجهاد الأصغر ، وعسى أن تعود الأمة العربية من الميدان وهى على الجهاد الأكبر أقدر وأقوى .

تفسير لا يقبل عذرا

أفهم التفسير ، ولكننى لا أقبله عذرا لتسويغ ما تم .

أما التفسير فهو أن هـذه السنة (١٩٤٨) هى سنة انتخابات الرياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية . وهى أيضا سنة انتخاب جميع أعضاء مجلس النواب ، وثلث أعضاء مجلس الشيوخ ، وطائفة كبيرة من حكام الولايات . فكل خطـة يتبعها الحزبان الكبيران فى التأهب لهذه الانتخابات جميعا لا تقرر مصير المرشحين للرياسة والوكالة وحسب ، ولكنها تقرر فى أغلب الرأى ، مصير السيطرة على مجلس النواب فى غضون السنتين التاليتين . وقد تقرر مصير السيطرة على مجلس الشيوخ ، والى أى الحزبين ينتمى معظم حكام الولايات الذين ينتخبون فى نوفمبر القادم . ومن أندر النادر فى حياة أمريكا السياسية أن يخذل مرشح للرياسة دون أن يخذل معه معظم المرشحين من حزبه فى الانتخابات النيابية ، وفى انتخابات الولايات أيضـا . فالشىء المعلق فى ميزان الانتخاب المقبل ، ليس انتخاب الرئيس والوكيل وحسب ، بل هو مصير الحزب من الناحية السياسية أيضا ، ولذلك ترى أعضاء الحزب الذين يقررون ما خير خطة يسير عليها حزبهم فى الانتخابات المقبلة، أعلى رأيا وانفذ كلمة ممن عداهم من أهل الرأى . فلذلك قيل

ان القرار الذى اتخذه الرئيس ترومان فى موضوع ما يسمى دولة اسرائيل ، كان مخالفا لرأى مستشاريه المختصين فى وزارتى الخارجية والدفاع ، وموافقا لرأى مستشاريه المقربين اليه من مجلس ادارة الحزب الذين لا ينظرون فى الأغلب الأعم الا الى مستقبل الحزب فى السنوات الأربع المقبلة وضرورات الانتخاب التى تقرر ذلك المستقبل فى أوائل نوفمبر القادم •

وهذا مفهوم ، فكل حزب سياسى فى بلد ديمقراطى ، يريد أن يديم سلطانه ، فيبنى دعوته الى الناخبين لتأييده ، على ما تم فى عهد حكمه وعلى ما يعد بانجازه اذا جدد الناخبون ثقتهم به • أما اذا كان حزبا معارضا فانه يبنى دعوته على نقد الحزب القابض على زمام الحكم ، وعلى ما يعد بانجازه هو ، اذا أولاه الناخبون ثقتهم •

ولو كانت الولايات المتحدة اليوم ، كما كانت الى عهد غير بعيد ، معتزلة الدنيا ، قانعة بالاقامة فى قارتها بين محيطين عظيمين يؤمنان سلامتها ، مكتفية بأن يقيم معظم اقتصادها على سوقها الداخلية ، ولا تهتم بالأسواق العالمية الا اهتماما يسيرا ، لحق للامريكيين أن يقحموا شئون الانتخاب فيما يعالجونه من أمور السياسة ، ولظلت مصائر الناس بعد ذلك غير معلقة بما يهواه هذا المرشح أو ذاك ، من الظفر بتأييد اليهود فى نيويورك ، أو جماعات العمال المنظمة ، أو طوائف الزنوج الذين نزحوا من الجنوب الى الشمال •

أما وقد صارت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحربين العالميتين ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية ، فى طليعة دول

الأرض قوة ونفوذا ، وأضحى مصير دول كثيرة وطوائف شتى من الناس ، معلقا على ما تتخذه الولايات المتحدة من خطط سياسية وحربية واقتصادية ، فلا يعقل أن يكون تقدير هذه الخطط رهنا بالاهواء التى لابد أن يثيرها النزاع على السلطان بين الحزبين الكبيرين ، فى سنة انتخاب كهذه السنة .

فالتفسير مفهوم ، لأن النزاع على السلطان فى بلد ديمقراطى مستقر فى طبيعة الكيان السياسى نفسه ، ولكن من العسير على كثيرين من الأمريكيين وغيرهم من الأمم أن يقبلوا ذلك مسوغا لسياسة خارجية عالمية تقوم على الهوى .

وكل سياسة تقوم على الهوى ، لا يمكن الا أن تكون سياسة متقلبة .

وقد كانت سياسة البيت الأبيض فى مسائل كثيرة موسومة بهذه السمة .

وهذا رأى اتفق عليه رجال السلك السياسى الأجنبى فى وشنطن . فهؤلاء رجال ينبغى لهم أن يطلعوا حكومات الدول التى يمثلونها ، على سياسة الحكومة الأمريكية حيال مشكلات هذا العالم المضطرب ، وهو أيضا رأى المخضرمين من رجال السياسة الأمريكية الذين ينبغى لهم أن يرقبوا بعين ساهرة كل حركة على رقعة الشطرنج الدولية .

فالذى يحير هؤلاء الناس جميعا هو هذا التحول المفاجىء فى الخطط التى تتخذها الحكومة الأمريكية ، فى غير مسألة واحدة من المسائل العالمية الخطيرة .

والحكومة الأمريكية لم تزل تنكر منذ عهد ولسون «أساليب

السياسة السرية » • ولكنها تمارسها • وربما كانت ممارستها فى أثناء الحرب شيئا لا مفر منه ، لما بين السياسة والخطط الحربية من صلة وثيقة فى الحرب ، ولكن الحالة لم تتبدل تبدلا مذكورا منذ وضعت الحرب أوزارها ، وقد روى غير واحد من الكتاب السياسين الأمريكيين أن وزارة الخارجية الأمريكية نفسها لم تعرف شيئا عن قرارات البيت الأبيض فى مسائل كثيرة ، الا بعد اتخاذ القرارات استنادا الى رأى مستشارين مقربين من الرئيس ، فأسفر ذلك كله عن أن حكومات الدول التى تربطها بأمريكا أواصر الصداقة والمودة ، وفريقا كبيرا من كبار الأمريكيين ورجال المجلسين النيابيين ، باتوا لا يعرفون ما هى سياسة الولايات المتحدة فى هذه المسألة أو تلك •

ولن يفضى سلوك هذا الطريق الا الى زيادة الاضطراب ، وضعف الثقة بقدرة الحكومة الأمريكية على علاج مسائل ، لا يقتصر أثر علاجها على الأمة الأمريكية وحدها ، بل يشمل أمم العالم جميعا •

والأمة الأمريكية تستطيع فى لمحة من لمحات العبقرية أن تسمو الى المنزلة التى تتبوأها اليوم بين أمم العالم • ولعل أبلغ مثل على ذلك هو تلك العبارة التى وردت فى خطبة مارشال منذ نحو سنة (٥ يونيو ١٩٤٧) فصارت أكبر وأعظم مشروع للتعمير فى التاريخ — مشروع مارشال • فقد ارتفعت الأمة الامريكية فوق النزاع الحزبى ، وأقرت المشروع فى سنة انتخاب ، برغم ما يكبد الأمريكى من مشقة وبذل •

ولو أصغى البيت الأبيض لرأى مستشاريه الذين يعرفون

الشرق العربى ، ولرأى الجماعات التى لا تمارس السياسة ولكنها تفهم طبائع الشعوب العربيـة ، وتدرك القوى الزاخرة والمنى العظيمة التى تحرك نفوسها ، لما اشتط فى اتخاذ سياسة حيال فلسطين تتنكر لمنزلة أمريكا فى جهاد الحرية ، وتلقى ظلا قاتما على رشدها السياسى ، وتعرض مصالحها — التى تعدها مصالح العالم أيضا — للخطر • وقد أعجب الناس بقول الدكتور بنروز رئيس جامعة بيروت الأمريكية الجديد فى رسالته المنشورة حيث قال : « ولو كانت أمريكا تريد حقا أن تقضى على الرجاء الذى يعلقه العالم بقيادتها الحكيمة فى هذه الأيام العصيبة ، لما وجدت طريقا أفضل من طريق النفاق الذى شرعت تسير عليه من أجل ما يسمى أسبابا داخلية ، أو من أجل أى سبب آخر » • ولو أنصف البيت الأبيض الأمة الأمريكية ، لاستطاع بموافقة الحزبين الكبيرين ، أن يجمع بين تقاليد أمريكا الكريمة ومصالحها ، فى سياسة واحدة ، لبابها : صداقة العرب •

ولست أعرف فى تاريخ الأمم مثلا واحـدا على قيام دولة واستمرارها بالاعتماد على عون موصول يأتيها من الخارج • وقد بذل مثل هذا العون لغير دولة ناشئة من أجل غرض خاص • ففرنسا بذلت عونها للمستعمرات الأمريكية الثائرة على بريطانيا ، لكى تزرع الشوك فى طريق بريطانيا يومئذ • والروس لا يتدخلون فى فلسطين من أجل خير الدولة التى تسمى دولة اسرائيل ، أكثر مما تدخلوا فى أسبانيا من أجل خير أسبانيا ذاتها • فكل غرضهم أن يصير لهم فى الشرق الأوسط ، وعلى ملتقى طرق الطيران العالمية ، وفى منطقة يزخر جوفها بالزيت ، موطىء قدم يمكنهم

من أن يزرعوا الشوك فى طريق أمريكا ، خصمهم الأول فى الحرب الباردة — التى قد ترتفع حرارتها يوما ما • فكيف تقبل أمريكا أن تؤازرهم على ما يريدون بمجاراتهم ومحاولة بزهم فى الطريق الذى اختاروه ؟ !

قضى الأمريكيون على عزلتهم بأيديهم يوم اخترعوا الطائرة ثم يوم صنعوا القنبلة الذرية • فصار حتما عليهم أن يتخذوا لسياستهم الخارجية قواعد تعبر عن لباب تاريخهم ونظرتهم الى الحياة ، ولا تتقلب مع رياح الانتخاب •

وأهم مصلحة ينبــغى لأمريكا لها أن ترعاها وتحرص عليها ، هى ثقة الناس بأنهـا لا تلقى بقوتهـا الأدبية العظيمة الا فى كفة الحرية والعدالة ، وقد تستطيع الدولة القوية أن تظل زمنا ما قادرة على فرض رأيها بالقوة أو النفوذ ، ولكنها سرعان ما تتبين أن الثقة بعدالتها تؤتيها من السلطان ما لا تؤتيها اياه ألف طائرة تحجب وجه الشمس •

هكذا يقول العربى

قبلت الشعوب العربية أن تبحث حكوماتها موضوع الهدنة — ولكنها قبلت على مضض • فهى ترى أن البحث فى قضية فلسطين استفاض خلال ثلاثين سنة تقريبا ، دون أن يفضى الى رأى يرضاه العرب المؤمنون بحقهم وعدالة موقفهم •

وهى ترى الآن جيوشها على أبواب تل أبيب ، وبيدها أن تحل العقدة ، كما حلها الاسكندر ، وتخشى أن يفوت عليها البحث والمناقشة ما يستطيع السيف أن يحسمه •

ولكنها فى الوقت نفسه تثق بقادتها ، وحصافتهم ، فقبلت ما قبلوه فى موضوع الهدنة ، بالشروط التى اشترطوها — ولكنها لا تزال حذرة . وهذا الحذر ينبع من فطرة أصيلة فى النفس ، ومن فطنة ولدها العقل وعززتها التجربة . فقد بلت الأمة العربية الصهيونيين ، ربع قرن أو يزيد ، فأدركت أنهم قوم ذوو طمع وغدر وحيلة . وعرفت بالتجربة أن منهم جماعة لا ترضى الا أن تقيم دولة ضخمة فى الشرق العربى ، وان الشقة التى يزعمون أنهم رضوا بها ليست فى نظرهم سوى موطىء قدم يثبون منه الى ما وراءه . فمن العبث أن تتوقع خيرا من مباحثتهم ، أو أن ننتظر اتفاقا معقولا معهم . ففى هذه اللحظة التى أشرفت فيها الجيوش العربية على أبواب حاضرتهم ، وقف ممثلهم فى مجلس الأمن يعلن فى كلام موسوم بالقحة : « انه لا يقبل مجادلة فى حقيقة دولة اسرائيل » مع أن وزير الخارجية الفرنسية بيدو قال فى اليوم نفسه : « ليس لدولة اسرائيل وجود فى القانون ولا فى الواقع » . فأية فائدة خليقة أن تجنى من وقف القتال أربعة أسابيع ؟

هذا لباب ما يدور فى ذهن الأمة العربية . واليه مرجع ما تشعر به من مضض فى قبول ما قبلته حكوماتها — حتى بالشروط التى وضعتها لقبوله .

الا أنها تدرك ، أن حقوق العرب فى فلسطين أسىء عرضها وتأويلها فى مجامع الأمم ، لأن الصهيونيين توسلوا بكل خداع وتمويه ليدركوا ذلك الغرض ، ولأنها هى قصرت فى هذا المضمار . ثم هى تدرك أن الصهيونيين وأذنابهم صنعوا للعرب صورة

فاحشـة وعرضوها على عيون الناس : تنابذ وتواكل واستبداد وتعصب ووحشية • فمن الخير أن يذاع ما يقوله كبير من كبار جمعية الصليب الأحمر الدولية ، ان العرب لأهل نخوة ونجـدة وكرم فى معاملة الأسرى والنساء والعجزة والأطفال • ومن الخير أيضا أن يطلع الكونت برنادوت بنفسه على حقائق حجبتها أضاليل الصهيونيين ، وأن يودعها فى مقترحاته وتقاريره • ثم من الخير أن تقبل الحكومات العربية البحث فى اقرار السلام ، فى الحين الذى تقف فيه جيوشها على أبواب الظفر الحاسم ضد شراذم من شذاذ الآفاق ، حتى تعلم الدنيا أننا أقوياء واننا لقوتنا نرضى أن نبحث فى أفضل الوسائل لاقرار السلام •

ولكن الشعوب العربية تدرك بفطرتها وعقلها أيضا أنه بعد بيان جميع الفوائد التى ربما تجنى من حديث الهدنة ، تبقى حقيقة أصيلة هى هذه الهوة الشاسعة بين ما يطمع فيه الصهيونيون وبين العرض السخى الذى جعله العرب أساسا لحـل مشكلة فلسطين • واذن فلا يتوقع أبناء الأمة العربية ، أن يسفر الحديث خلال الهدنة عن حل مقبول ، وان كانوا يتمنون التوفيق للذين يسعون الى الخير والوفاق •

ولذلك يرى أبناء الأمة العربية ، انه ينبغى لزعماء الدول العربية وقادة جيوشها أن يحتفظوا ببارودهم جافا ، وأن يحذروا الوقوع فى شرك قوامه حديث فى الهدنة يمتد أياما ، ثم هدنة تمتد أربعة أسابيع ، ثم محاولات للتوفيق تمتد ما امتدت الهدنة ، ثم خلاف ينتهى الى استئناف القتال ، فلا يكاد القتال يستأنف حتى يروا يوم أول أغسطس ، ويومئذ يصبح ميناء حيفـا حرا

فى أيدى الصهيونيين يستقبلون فيه ما يشاؤون أو ما يستطيعون من السفن الموقرة بالسلاح والجند •

حذار من أن يتخذ الحديث فى الهدنة ، أو البحث فى أثنائها ، وسيلة لاخماد الشعلة المتأججة فى نفوس الأمة العربية ، فمسألة الصهيونية فى فلسطين ينبغى أن تحسم قبل يوم أول أغسطس •

هكذا يقول العربى •

رسالة مفتوحة إلى برنادوت

أجمع الذين عرفوك ياسيدى الكريم على انك رجل اخلص نفسه للخير ، وعلى أن مجلس الأمن قد أطلق يدك فى اقتراح علاج لمشكلة فلسطين ، وانك قد قلت انك حر : حر من التقيد بالمقترحات الكثيرة التى اقترحت فلم تف • وانا أصدق كل هذا لأنك رجل شريف ، وأحب أن أصدق أيضا أن حريتك لا تقتصر على انك غير مقيد بما سبق ، بل تشمل أيضا — وهو أهم — حرية ذهنك ورحابة صدرك فى قبول الحق متى رأيته وعرفته : « وتعرفون الحق ، والحق يحرركم » •

لذلك استأذنك ، فى أن أعرض عليك أصولا كالبديهيات ، جهلوها أو تجاهلوها ، فتخبطوا حتى صاروا لا يستدبرون مقترحا خائبا حتى يستقبلوا مقترحا آخر أدنى الى الخيبة والضلال •

وليس يسعنى أن أصدق أن فطنتك لم تهدك ، خلال الأسابيع الأخيرة التى قضيتها فى الشرق العربى ، الى أن مدار النزاع بين العرب والصهيونيين وسره هو عزم الصهيونيين على أن يقيموا دولة صهيونية عريضة فى هذه الربوع • فتاريخ الصهيونية المتصل

دليل قائم على هذا العزم •

ولست أشك فى أن فطنتك قد هدتك أيضا الى ما يقضى به العقل والمنطق ، من أن استمرار الهجرة وعدم انشاء دولة صهيونية ، أو استمرار الهجرة وبقاء الدولة فى الحدود المحيرة التى عينها مشروع القسمة ، شىء مستحيل • فالصهيونيون لا يطلبون الهجرة لذاتها ، لأنهم يعرفون أنها لا تحل مشكلة تسعة ملايين أو عشرة ملايين من اليهود فى العالم ، وانما يطلبونها لاقامة دولة صهيونية ، تشمل اليوم رقعة مفككة من فلسطين ، وتشمل غدا فلسطين كلها ، وشرق الأردن أيضا • وليس هذا وهما من الأوهام بل هو قول فريق من زعمائهم • فاعلم ياسيدى أن من يوصى بدوام الهجرة ، يوصى باحالة فلسطين دولة صهيونية خالصة •

وأنت ياسيدى الكريم ، رجل ديمقراطى ، كالشعب الذى تنتمى اليه ، فلذلك فطنت فى أغلب الظن الى انه لا يعقل أن تيسر قيام دولة صهيونية فى فلسطين ، وان تزعم فى الوقت نفسه انك تحترم فى فلسطين كما تحترم فى بلادك ، مشيئة الشعب وحقوقه • فالشعب الفلسطينى العربى صاحب البلاد ، معارض أشد المعارضة ، فى استمرار الهجرة وانشاء دولة صهيونية ، لأنه يؤمن بان ذلك افتئات على حقوقه الطبيعية ، وخطر يهدد كيانه •

واذن فعساك أن تكون قد تحققت انه من المستحيل على اليهود أن يظفروا بمودة العرب ، اذا هم أصروا على استمرار الهجرة وقيام الدولة • وقد نبههم غير واحد من عقلاء قومهم وأصدقائهم ، الى أن قيام هذه الدولة سوف يظل تحديا قائما

للأمم العربية ، وقد يفوت هذه الدول اليوم أو غدا أن تتبرى له ، اذا تألبت عليها قوى عالمية ، ولكنها لن تنفك متربصة لتتبرى متى واتتها الفرصة . فمصير فلسطين ، مرتبط أوثق ارتباط بحياة البلاد العربية وكيانها ، وكل حل ينبغى أن يراعى فيه ، أن وراء شعب فلسطين أربعين مليونا من العرب ، وان من وراء هؤلاء ثلاثمئة مليون من المسلمين .

وعلى ذلك أرجو ، أن يكون البحث الحر قد هداك الى انك لا تستطيع أن تنظر فى مشكلة فلسطين ، الا احدى نظرتين متعارضتين تعارضا أصيلا ، والى انه لا مفر من اختيار هذه النظرة أو تلك .

أما الأولى فان يقام وزن كامل لحقوق الشعب الفلسطينى ومصالحه ورغباته وفقا للمبادىء الديمقراطية ، التى ارتضيتموها فى السويد ، وفى طائفة كبيرة من بلاد الله ، وأما الثانية فان تغلب على حقوق الشعب الفلسطينى حاجة شعب غريب طارىء ، ومطامع فئة ترنو الى السلطان ، لا لسبب سوى انهم استطاعوا بالمال والضغط السياسى أن يؤلبوا دولا كثيرة لتأييدهم .

ولن يكون فى وسعك ياسيدى الكريم ، أن تصل الى حل حقيقى نهائى لمشكلة فلسطين ، الا على أساس النظرة الأولى . فهى النظرة التى تستند الى الحق الطبيعى ، وأما الثانية فتقحم على فلسطين أمورا طارئة لا ناقة لفلسطين فيها ولا جمل .

وهذا الحق الطبيعى ، هو حق الشعب أن يقرر شكل حكومته ، وأن يعين موقفه من المسائل العامة التى تهمه ، ثم حقه أن يسير سيره فى تعزيز الشعور بالتماسك الشعبى ، والحرص على أن

يعيش أبناء الأمة جميعا فى جو المودة والتعاون وان اختلف الرأى . ونمو هـذا الشعور لا يمكن أن يستتب أمره ، الا متى تخلى الصهيونيون عن مطمعهم فى أن ينشئوا فى فلسطين دولة ، أو جماعة مميزة منفصلة عن الشعب الفلسطينى .

وهذا الحق لا يمكن أن يصان ، ولا أن يمهد له طريق النمو الا بقيام دولة مستقلة موحدة ديمقراطية النظام ، تحمل حكومتها تبعة شئون البلاد ، وتبعة تصريفها وفقا للمصلحة العامة كما تقررها المشيئة العامة .

وهذا لا يعنى أن جماعة اليهود المقيمين فى فلسطين اليوم ، سوف تكون فى هذه الدولة « أقلية » بأسوأ ما فى لفظ الأقلية من معان — فلن توصد فى وجوههم أبواب المشاركة فى حكم الدولة وتنمية مواردها ، ولن يعيشوا بمعزل عن التيارات الرئيسية فى حيـاتها القومية ، ولن يكون وجودهم فيها قائما على تنازل الأكثرية بالرضى عنهم ، بل يعنى أن يشاركوا فى افراغ الدولة الجديدة فى قالبها المرتجى ، وأن تربطهم بالعرب روابط المصلحة والمودة ، مودة المواطن للمواطن ، لا مودة القوى للضعيف ، وأن تكون لهم حقوقهم الاجتماعية الخاصة .

ولكن ينبغى أن يفهم أن الدولة الفلسطينية هى دولة عربية . وليس معنى هذا أن كل مواطن غير عربى من مواطنيها عرضة للاضطهاد والشعور بأنه طارىء دخيل ، بل يعنى أن الحكومة والمواطنين جميعا يسلمون بالمعانى المنطوية فى الحقائق الآتية : ان كثرة الشعب عربية . وان لغة البلاد عربية . وان فى طليعة الأهداف التى تتوخاها الحكومة ، هدف المحافظة على طبيعة البلد

العربية ، وهدف التعاون مع الدول العربية . وليس هذا بدعة ، ففى التاريخ وفى الزمن الحاضر قام ازدهار غير دولة واحدة على تعاون عنصرين كبيرين ، ولكن الدولة أخذت أكثر مقوماتها من جماعة الكثرة من أبنائها .

وضمان جميع الحقوق والفرص لجميع المواطنين ، دون نظر الى سلالة أو دين ، كفيل على الزمن بتحقيق الاندماج الاجتماعى المرموق ، فيتعلم اليهود اللغة العربية ، كما تعلموا الانجليزية فى انجلترا وأمريكا والألمانية فى ألمانيا ، ويقبلون منزلتهم الجديدة فى الدولة الجديدة بما تنطوى عليه من حقوق وواجبات . وليس هذا الاندماج شيئا تفرضه الأكثرية فرضا ، ولكنه نتيجة يمليها على الشعب موقع فلسطين الجغرافى ، اذ ليس أمام فلسطين يومئذ سوى طريقين ، فاما أن تعيش فى عزلة عن العالم العربى ، واما أن تصير جزءا لا غنى عنه فى مجموعة الأمم العربية . والطريق الأول هو طريق الهلاك .

لن تجد ياسيدى الكريم ، طريقا مختصرا الى حل ميسر ، لأن كل حل لا يستند الى هذه الأصول يثير من المشكلات أكثر مما يحل ، وعسى أن يكون الدم الذى سفك منذ ثلاثين سنة ، وفى الأسابيع الأخيرة ، قد علم القوم أن طريق التراضى والتعاون ، على ما فيه من مشقة ، اخلق بأن يسلك وأهدى الى الخير العام .

موجتـــان

كل حضارة وكل نهضة وكل تحول أصيل فى حياة الشعوب يرتد الى أصلين رئيسيين من أصول الحياة • أما الأول فهو الفكر الذى يصور الغايات التى تحدى اليها الركائب ، ومنه تنبع القوة المحركة ، واليه ترجع الآراء الفلسفية والعلمية والاجتماعية التى تمهد طرقا كانت وعرة من قبل أو كانت غير مطروقة • فنظريات العلم الحديث فى بناء المادة ، والتطور العضوى والآراء الاجتماعية الحديثة فى الاشتراكية والنظم السياسية والاجتماعية هى التى أفرغت عالمنا الحديث فى قالبه المعهود • وهى جميعا صـــدرت أولا من الذهن الانسانى ، ثم لم تلبث أن تغلغلت فى حياة الناس كل يوم • وأما الثانى فهو البيئة الاقتصادية والاجتماعية التى يعيش فيها الناس — فكل ما يحدث فى هذه البيئة تغييرا أصيلا فيها ، من أساليب الصناعة والزراعة والحذق فى استغلال موارد الطبيعة ، يغير الأحوال التى يعيش فيها الناس ، فيفضى بعد زمن طويل أو قصير الى تغيير فى آرائهم وأفكارهم •

والعاملان متفاعلان ، فبحوث مكسويل الرياضية فى الأمواج الخفية التى تملأ الفضاء أفضت بعد زمن الى جميع عجائب العصر اللاسلكى ، وشيوع الراديو أخذ يفضى الى توثيق الصلة بين الناس ويفسح المجال لطغيان الدعاية خيرا كانت أو شرا • وارتقاء الصناعة الذى نشأ عن التقدم الحديث فى علوم الطبيعة أفضى الى كثير من الرخاء وارتفاع مستوى العيش فأفضى بدوره الى نظرية التفسير الاقتصادى للتاريخ والى المذاهب الاشتراكية المعتدلة والمتطرفة ،

وقيام بعض الدول وطائفة من الحكومات على قواعد تلك المذاهب ٠

وهذه في مذهبي توطئة لابد منها للبحث فى الكتابين اللذين أنوى اليوم أن أنوه بهما ٠ أما الكتاب الأول فعنوانه «ما أسداه المسلمون الى علم الجغرافيا » ، وقد ألفه بالانجليزية عالم من علماء الهند اسمه نفيس أحمد وطبع فى مدينة لاهور بالهند ، وأما الكتاب الثانى فعنوانه « العربية السعودية » وقد ألفه مهندس أمريكى يدعى تويتشل وطبع فى مطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ٠ والكتابان كلاهما يمثلان فى رأيى هاتين القوتين المحركتين اللتين يرجع اليهما التطور الاجتماعى : قوة الفكر ، وقوة الارتقاء الاقتصادى ٠

والأمة العربية اليوم تجوز فترة من حياتها ، لعلها لم تجز فترة أخطر منها شأنا منذ قرون كثيرة ٠ ففى صدرها تحتشد اليوم ذكريات ماض مجيد ، ومنى مستقبل باهر ، أما الأولى فتتحفز لتنبعث وأما الثانية فكالجنين يتململ فى رحم أمه ، وقد أخذته سورة الانطلاق حتى يخرج الى النور ٠

والأمة العربية فى هذه الفترة الخطيرة من حياتها ، تحتاج الى القوتين معا ، قوة الفكر المبدع الذى يعين الغايات ويرسم الطريق ، وقوة الانتفاع بالموارد الاقتصادية ، حتى يستعين بها فى حرب المرض والجهل والفاقة ، فتشب الأمة فى دور انبعاثها ، سليمة البنيان ٠ وليس ثمة ما هو أدعى الى حفز همم الشباب من دراسة الماضى واستلهام عبره ، واستيحاء مآثر العظماء من رجاله ومن نسائه ٠ فقبل ألف سنة من الزمان عنى عالم عراقى مقيم فى مصر فى زمن الحاكم بأمر الله ، بدراسة ظاهرة عجيبة من ظاهرات الطبيعة ،

وهى ظاهرة ما أشيعها ، ولكنها مع ذلك كالمعجزة لا يدرك سرها ، أعنى ظاهرة الضوء ولكن أبا الحسن بن الهيثم كشف من أسرارها ما جعله معلما من معلمى النهضة الأوربية ، ونحن قد نقرأ كتبه اليوم فلا تغنينا عمـا نجده فى المطوّلات الحديثة عن علم الضوء • ولكن لا يفوتنا ولا ينبغى أن يفوتنا أن العقل الذى صنع ما صنعه ابن الهيثم بغير وسائل البحث الحديثة وأساليبه تستطيع عقول كثيرة أن تجاريه اليوم ، فى القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت اذا أتحنا لها الفرصة وأحسنا حفزها وتوجيهها •

وأنا أرى فى كتاب السيد نفيس أحمد حافزا من هذه الحوافز الذهنية فى المقام الأول ، وان كنت لا أغمطه قيمته العلمية ، فقد جمع فى كتاب واحد ناحية من نواحى اهتمام العرب والمسلمين بالعلوم وكتبها باللغة الانجليزية حتى يطلع عليها أبناء الأمم الغربية فى العصر الحديث فيدركوا أن النهضة العربية ليست عاصفة فى فنجان كما يقولون ، وانما هى تجديد لحضارة قديمة عالمية تتصل الدوافع اليها بأعمق القوى التى تحرك النفوس •

فأنا أحب مثلا ، أن أرى طلبة المدارس فى الشرق العربى يطلعون على مآثر العرب فى الجغرافية وهم يتدارسون فى الكتب الحديثة ، خطوط الطول والعرض وأوصاف القـارات والبحار والأنهـار ومحصولات البلدان المختلفة وطبائع سكانهـا ، فكم طالب من الطلاب يعلم أن كتاب الجغرافيا الذى وضـعه بطليموس ترجم بالعربية غير مرة ، وقد كان من مترجميه حنين بن اسحق وثابت ابن قرة الذى توفى فى أول القرن العاشر الميلادى • وان هذا الكتاب هو الذى حفز الخوارزمى المشهور الى وضع كتابه صورة الأرض ،

وأن هذا الكتاب كان يحتوى على خريطة للسماء صنعها هو وتسعة وستون عالما ، استجابة لطلب الخليفة المأمون وتشجيعه ، وقد ظلت رسالة الخوارزمى تؤثر فى العلماء من بعده خمسة قرون متوالية ، وما قولك فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الذى ظهرت طبعته الأولى فى أواسط القرن التاسع الميلادى وطواه صاحبه على أول وصف لخواص سطح الأرض ، فاعتمد عليه فيما بعد ابن الفقيه وابن حوقل ، والمقدسى . أما الاصطخرى فقد ألف فى أواسط القرن العاشر كتاب مسالك الممالك وهو غير المسالك والممالك لابن خرداذبة ، وصنع له خرائط بالألوان ، لكل بلد ذكره ، أما معجم البلدان لياقوت الحموى فأشهر من أن يعرف .

ولو كان الغرض أن يطيل الباحث ذكر الذين ألفوا فى الجغرافية من المسلمين وأسماء الكتب التى ألفوها لضاق الحديث عنه ، ولانحصر فى كشف مسهب من الأعلام فى الناحيتين ، ولكن حسبنا أن تقول ان المسلمين اعتنوا كثيرا بوصف البلدان ، واستطلاع الحقائق الطبيعية اللازمة لمعرفة الجغرافية ، وتركوا فى ذلك تراثا ضخما نفيسا . وقد كان تراثهم ملهما لمن جاء بعدهم من الباحثين وبحرا غنيا حافلا بالحقائق والملاحظات ، غاص العلماء فيه واستخرجوا منه نفائسه .

وقد كان بين الكتب الجغرافية القديمة التى وضعها العرب كتابان وضعهما عالم يمنى هو الحسن بن أحمد الحمدانى المتوفى سنة ٩٥٤ ميلادية فى سجن صنعاء وهذان الكتابان هما « الاكليل » و « صفة جزيرة العرب » ويعدهما العلماء من ذخائر المعرفة عن الجزيرة العربية قبل الاسلام وفى عهده الأول .

وقد جاء اليوم مؤلف أمريكى فوضع كتابه «العربية السعودية» دون أن يهمل ذكر اليمن حتى يصح بشىء من التجاوز أن نطلق عليه « صفة جزيرة العرب فى القرن العشرين » : والمؤلف مهندس يهتم بالتعدين على وجه خاص ولكن جلالة الملك عبد العزيز شرفه بصداقته وأتاح له أن يطوف فى المملكة كيف شاء حيث يؤذن له ، واعتمد على التقارير التى رفعها اليه عن الموارد الطبيعية وأفضل الوسائل لاستغلالها والانتفاع بهالتحسين حال الشعب وزيادة مصادر رزقه •

والحياة فى الصحراء صراع دائم فى سبيل الرزق ونضال لا يفتر لرد غوائل القحط والجوع ، فلذلك عنى تويتشل أول ما عنى بدراسة موارد الماء فى الصحراء وخير الأساليب للانتفاع به فى الزراعة ، ثم عنى أيضا بمناجم المعادن ، واحتمال وجود الزيت قبل أن يوجد فيها ببضع سنوات ، ولكنه لم يقتصر على دراسة الموارد الطبيعية والانتفاع بها ، بل ذكر صفة الأرض وطبقاتها وطرق مواصلاتها وبقايا آثارها ، وأخلاق شعبها وتنظيم ادارتها فى حكم آل سعود ، وغير ذلك من الموضوعات • وقد قسم كتابه ثلاثة أقسام : القسم الأول يشتمل على الصفات التى تميز العربية السعودية ، والثانى يصف نموها الاجتماعى والسياسى ، والثالث منزلة العربية السعودية فى الاقتصاد العالمى • فلم أكن متجنيا على الحمدانى حين قلت أنه يصح أن نطلق ، بشىء من التجاوز ، على كتاب تويتشل « صفة جزيرة العرب فى القرن العشرين » •

وأهم ما تتبينه فى هذا الكتاب هو تأثير المشروعات الزراعية الحديثة واستنباط الزيت فى اقتصاد المملكة العربية السعودية ،

ولعل أبلغ مثل على المشروعات الزراعية مشروع الخرج المشهور . وواحة الخرج تبعد ٥٦ ميلا عن الرياض ومعدل ارتفاعها ١٥٠٠قدم فوق سطح البحر ، وفيها فجوتان عظيمتان قطر كل منهما ٣٠٠ قدم وعمقها ٤٢٠ قدما وفى الفجوتين ماء زلال يتسرب اليهما عن ماء المطر بعد أن يتخلل الأرض ، وقد ركبت عليهما مضخات قوية تخرج للرى ٧٠٠٠ جالون من الماء فى الدقيقة ، وبنيت قناة من الأسمنت المسلح طولها عشرة أميال فتروى ٣٠٠٠ فدان تغل اليوم مقادير عجيبة من البرسيم والقمح والبطاطس والجزر والبصل والباذنجان والبطيخ وغيرها .

وجلالة الملك عبد العزيز يقول : مأتم هنا يمكن أن يتم فى أماكن أخرى . فلذلك ترى أن حصر موارد الماء وانشاء المنشآت اللازمة للانتفاع بها فى طليعة برامج العمل الذى تتولاه الحكومة السعودية .

وهذه البرامج تشمل انشاء ميناءين صالحين فى جده فى الغرب، والدمام فى الشرق ، وسكة حديدية بين ساحل الخليج الفارسى والرياض ، واقامة محطات توليد الطاقة الكهربائية للاضاءة ورفع المياه للرى وتوريد المياه العذبة من وادى فاطمة الى جدة واعداد المستشفيات ونشر دور التعليم . والملك عبد العزيز يريد الاصلاح الاقتصادى فيدأب على توجيه الأمراء ورجال الدولة اليه ويعينه فى ذلك ما يتقاضاه من شركة الزيت العربية الأمريكية ، بعد أن ثبت أن موارد المملكة العربية السعودية من الزيت تعد الآن فى المنزلة الخامسة بين امم الأرض . والشركة حريصة ، حتى بعد تأدية الاتاوة ، على تلبية طلب جلالة الملك عبد العزيز والحكومة

فى كل مشروع من مشروعات الاصلاح ، فرجالها يحرصون أشد الحرص على احترام استقلال البلاد ومعاونة حكومة جلالته ويعتقدون أن كل عمل من هذا القبيل لا تتم له مزية النفع المتبادل ولا يسعى القائمون بأمره سعيا صادقا لكسب ثقة الشعب ومودته واحترامه ، خليق أن تعصف به عواصف الدهر ، وكذلك تتم الفائدة التى تعود على البلاد العربية من زيادة دخل أهلها واتاحة العمل الشريف لآلاف من أبنائها وما يكسبونه من ضروب جديدة من الحذق فى العمل ، وتجنب الخوف من أن تصير هذه المشروعات الضخمة ضربا من ضروب الاستعمار الاقتصادى .

وفى تقدير المهندس تويتشل أن ليس لمستقبل العربية السعودية من الناحية الاقتصادية أفق معروف ينتهى عنده .

واذن فنحن نرى فى هذين الكتابين اشارة الى أصلين رئيسيين من أصول الحياة والحضارة أو موجتين دافقتين من أمواج العمران — موجة الفكر الممثل فى ما أضافه العلماء المسلمون الى الجغرافيا أو قل الى العلوم ، وموجة الموارد الاقتصادية الوافرة فى البلاد العربية وحسن استغلالها ، فاذا أحسنا الانتفاع بما يوحيه هذان الكتابان فقد قبضنا على زمام النجاح فيما نرنو اليه من تجديد حضارة كانت فى عصرها معلمة الدنيا .

الطريق واضح

مستقبل الثروة القومية

تسير مصر المنبعثة قدما الى تثبيت دعائم الصناعة فيها ، واعلاء شأنها ، والانتفاع بها فى زيادة الثروة القومية ، ومن نعمة الله أن مصر الصناعية تستطيع اليوم أن تنتفع بالعبر المستخرجة من تجارب الأمم الأخرى ، فتقيم صناعاتها على أركان سليمة . فالأمم التى سبقت الى الصناعة كان يتعين عليها أن تجرب ، وأن تنتفع بجدوى تجاربها أو خطئها ، والمشكلات الصناعية التى تعرض لنا ، عرض بعضها لغيرنا من قبل ، وحلت على وجه يطابق مصلحة البلد الذى غرضت له وحالته العامة ، فقد مهدت لنا تجربة من سبق بعض هذا الطريق الوعر .

بيد أن الانتفاع بتجارب الأمم الأخرى له حد ينبغى أن لا نقف عنده . فطبيعة الأرض والجو ، وحال العامل وصحته ، وانتشار أسباب النقل أو قلة انتشارها وصلاح بعض خامات الصناعة المتاحة أو عدم صلاحها ، أو جعلها صالحة بعد علاجها ، من المسائل التى تعرض للصناعة الناشئة ، ولابد من حلها على خير وجه يلائم البلد الذى تقوم فيه ، ويكفل للصناعة جودة المصنوع وقلة النفقة ، حتى تروج البضاعة ويزدهر العمل .

وليس ثمة ريب فى أن العبرة الأولى المستخرجة من تجارب الأمم الأخرى هى ضرورة الاستعانة بالبحث العلمى ، من حيث هو وسيلة لارتقاء الصناعة والزراعة أيضا . وقد كان هذا الانتفاع فى الأمم الغربية ، منذ قرن ، شيئا غير منظم ، ولكن أصحاب

الصناعة والزراعة وأهل العلم أدركوا وبخاصة منذ أوائل هـذا القرن ، أن الصلة بين العلم من ناحية والصناعة والزراعة من ناحية أخرى ينبغى أن توثق وأن تنظم ، حتى يستطيع العلم أن يسدى اليها أعظم يد وأنفعها ، فمالوا الى تشجيع البحث العلمى : فى الجامعات بمال الحكومات ومال الأفراد وفى الأقسام الفنية فى الحكومة ، وحقول التجارب ، ثم فى معاهد البحث التى أنشأتها الصناعات الكبيرة .

ومن البحث العلمى ما يكون نظريا أصيلا يبدو أنه لا يمت الى النفع العملى بصلة . ولكن تاريخ أثر العلم فى الصناعة والزراعة دليل قائم على أن البحوث الأصيلة التى تعد نظرية ، كثيرا ما تصير الدعامة الأولى لصناعة أو لزراعة جديدة مجدية ، فصناعة الراديو كلها على تعدد نواحيها وكثرة العاملين فيها ، ترتد الى بضع معادلات رياضية استخرجها مكسويل منذ نحو قرن من الزمان . والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى .

فالبحث العلمى الأصيل ينبغى أن يشجع فى الجامعات والمعاهد الفنية فى المقام الأول ، فمهمتها أن توسع آفاق العلم .

وأنت تجد اليوم أن الأقسام الفنية فى الحكومة المصرية ، والجمعية الزراعية الملكية وكليات الجامعتين ، تضطلع بأبحاث علمية ، تمت الى الزراعة والصناعات الزراعية بأقوى سبب ، وقد كان لها شأن كبير فى زيادة غلة الفدان الواحد من القطن وغيره من المحصولات الزراعية . ومن رجالها اليوم من يجرى تجارب علمية دقيقة على أنواع الحيوان ، وأصناف النبات ، وضروب الآفات والحشرات ، وقد أسفر بعضها عن نتائج رائعة . ورب بحث واحد

يزيد ما يدرّه البقر من اللبن وقيمته الغذائية فيزيد الثروة القومية ملايين من الجنيهات فى كل سنة ٠

فالباحثون فى هذه الميادين يجب أن يوفر لهم قدر كاف من الطمأنينة والتقدير ، وأسباب العيش الكريم ووسائل البحث ، وأن يرفع عن كواهلهم عبء العناية بأعمال الادارة ، حتى يتوفروا على بحوثهم ، فهم كنوز ينبغى أن لا نفرط فيها ٠

أما أصحاب الصناعة والزراعة ، فينبغى لهم أن يقدروا ما أدركه اخوانهم فى الغرب ، بعد تجربة طويلة ، من أن تجويد الصنف ، وزيادة الانتاج ، وقلة التكلفة ، وهى أساس النجاح فى الصناعة والزراعة ، لن تنقاد لهم من نفسها ، فينبغى أن يستعينوا عليها بالبحث العلمى ٠ وقد سمعنا من الدكتور حافظ عفيفى باشا أن بعض الشركات فى مصر لم تغفل هذا ، وأن المساعى تبذل لتنظيمه وتعزيزه ٠ ولكن يندر أن نجد فى مصر اليوم شركة صناعية تستطيع أن تقوم بمفردها على معمل كبير للأبحاث العلمية ، يفى بحاجة البحث العلمى الصناعى فمن الخير أن تجتمع الشركات التى تمارس صناعة واحدة على انشاء معمل للبحث العلمى يختص بالمشكلات التى تواجهها ، ومن الخير أيضا أن يتبرع ذوو الثروة الزراعية الكبيرة بالمال اللازم لانشاء معهد أو أكثر للبحوث الزراعية ، فكل جنيه ينفقونه عليها يجدى الوفا ، عليهم وعلى مصر ، وليس من العدل أن يعتمدوا على الحكومة وحدها فى ذلك٠

ان مصر ، بشعبها وأرضها ، وافرة الموارد المادية والبشرية فاذا أحسنا الانتفاع بها على أفضل وجه ، زادت الثروة القومية وارتفع مستوى العيش وصار فى الوسع محاربة الأعداء الثلاثة

والقضاء عليها • والانتفاع الصحيح بهـذه الموارد رهن بأشياء كثيرة ماديه وخلقية • والبحث العلمى فى طليعتها •

اقتصاد عربى متكامل

عقد اتفاق تجارى بين المملكتين المصرية والعربية السعودية ، وهو لا يختلف ، فى مبدأه ونطاقه ، عن كثير من المعاهدات التجارية التى تعقد بين بلدين • ولكنه مع ذلك ، اتفاق تجارى ذو شأن خاص ، لأنه ينطوى على مغزى ينبغى أن يكون هاديا الى سياسة عامة بين الدول العربية ، فيها خير اقتصادى وسياسى للدول العربية فى مجموعها •

ان اقتصاد المملكة العربية السعودية مكمل فى بعض نواحيه لاقتصاد المملكة المصرية ، واقتصاد المملكة المصرية مكمل فى بعض نواحيه لاقتصاد المملكة العربية السعودية • فالاعتراف بهذه الصلة وتنظيمها يعود بالخير على المملكتين •

تصدر المملكة العربية السعودية ، زيتا من ينابيعها وتتلقى ذهبا أو دولارات وتصدر أيضا ما تواضعوا على وصفه بكلمة « الخدمات » فى علم الاقتصاد ، وهذه « الخدمات » هى ما تتيحه المملكة العربيـة السعودية للحجاج الى بيت الله الحرام ، وتتلقى مقابلا لهـا جنيهات مصرية من الحجاج المصريين ، مثله فى عرف الاقتصاد كمثل « خدمات » الاصطياف التى يصدرها لبنان ، و « خدمات » السياحة التى تصـدرها مصر ، و « خدمات » الملاحة التى تصدرها بريطانيا • والمملكة العربية السعودية تستورد مقادير كبيرة من السلع التى تحتاج اليها فى حياتها القومية من زراعية

وصناعية . فاذا كان فى وسع الاقتصاد المصرى أن يزود الاقتصاد العربى السعودى ، ببعض السلع التى يحتاج اليها ، كان فى ذلك استغناء المملكة العربية السعودية عن بعض المصادر البعيدة التى تستورد منها ، وكان فيه تعزيز لتجارة الصادرات المصرية ، وموازنة للجنيهات التى ينفقها الحجاج المصريون فى الحجاز ، وتزويد لمصر بمبالغ نافعة من الدولارات وان كانت صغيرة ، فتضمها الى الدولارات التى تنالها من مصادر أخرى لتوفية ثمن السلع التى تحتاج الى استيرادها من بلاد العملة الصعبة .

وهذا الذى يصدق على المملكتين المصرية والعربية السعودية ، يصدق فى حدود وعلى تفاوت على الدول العربية جميعا . فالزراعة المصرية لا تنتج كل القمح الذى تستهلكه ، فلابد لها من أن تستورد ، وقد استوردت بعض ما تحتاج اليه من روسيا ، بمقتضى صفقات المقايضة بين القطن المصرى والقمح الروسى . ولكن سوريا تنتج مقادير من القمح تفيض على ما تستهلكه ، وأرض الجزيرة فيها من أخصب أرض الشرق ، فاذا ذهبت الحكومة السورية فى زراعة القمح الى أبعد ما بلغته أساليب الزراعة الحديثة فى اختيار البذور واستعمال الآلات ، صار فى وسعها أن تصدر القمح الى مصر والمملكة العربية السعودية ، علاوة على لبنان . وفى مصر صناعة سكر بلغت شأوا بعيدا من الارتقاء ، وزراعة أرز بلغ الغاية فى الجودة ، وكلا السكر والأرز من مواد الغذاء التى تحتاج اليها البلاد العربية جميعا ، وقلما تنتج منها مقدارا يكفى . وفى سائر البلاد العربية صناعات وزراعات كثيرة ، تستطيع أن تجد أسواقا لها هنا أو هناك فى الدول العربية ،

فتشجيع هـذا التبادل ، وتنظيمه ، احدى الوسائل الكثيرة التى توثق عرى المصلحة بين الدول العربية ، وتزيد الانتاج والعمل المتاح للعمال والصناع وهذا بدوره يفضى الى تعزيز أواصر القربى والتاريخ ورفع مستوى العيش وتمهيد طريق القوة •

وليس ثمة ريب فى أن رقعة الدول العربية غنية بالموارد الطبيعية المادية ، والطبيعية الانسانية ، فتنمية الموارد فى الحالين وفقـا لسياسة منسقة هو طريق الرخاء والارتقاء والقوة •

ولن تجد اليوم من يحتاج الى دليل ، على أن الصهيونيين حيال الشرق العربى ، تراودهم آمال عراض ، اقتصادية وسياسية ، فالعقل والمصلحة والكرامة ، وغريزة الدفاع عن الكيان ، تقتضى جميعا من الدول العربية ، أن لا تقتصر على التمنى فى نشدان الوحدة والقوة ، بل ينبغى أن تبادر الى وضع الخطط التى تكفل نمو الموارد الطبيعية والبشرية فتحيل القوة الكامنة قوة مجدية ؛ وعسى أن يكون الاتفاق التجارى الذى عقد بين المملكتين المصرية والعربية السعودية ، بشيرا بادراك هذه الحقـائق والسير على هديهـا •

الاستقرار لا الجمود

يظل الجسم الحى فى صحة وعافية ما ظلت عناصر المادة الحية التى تتألف منهـا الأنسجة والأعضاء فى حالة توازن واستقرار • فاذا اختل التوازن مرض الجسم ، واذا انعدم فارقته الحياة •

ولكن الاستقرار فى الجسم الحى لا يعنى الجمود ، فالأعضاء فى نشاط دائب ، والمواد التى تتألف منها فى حركة لا تفتر ، يطرح

الجسم قديمه الذى بلى ،و يحل محله كل جديد تقتضيه طبيعة الجسم ولا غنى عنه لسلامته • فالاستقرار فى الجسم الحى لا يعنى الجمود •

وكذلك الحال فى الجسم الاجتماعى • فالاستقرار السياسى والاجتماعى فى دولة ما ، هو أساس الصحة ، فاذا اضطرب مرضت ، واذا انعدم صارت نهبا للعوادى والأعداء والطامعين •

ولكن الاستقرار السياسى لا يعنى الجمود السياسى أو الاجتماعى ، بل السلامة والنمو يقتضيان النشاط الدائب ، مسايرة للحاجة المتجددة ، والفكر المتطور ، وعجلة الزمان التى لا تكف عن الدوران •

فاذا بين أهل الرأى جدوى الاستقرار فى الشرق العربى ، وطالبوا به ، فانما يفعلون ، ليتيح الاستقرار فرصة يزخر فيها النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى ، ويثمر • فالتربية فى المنازل والمدارس والجامعات ، لا يسعها أن تطرد بغير هذا الاستقرار ، وان كانت التربية نفسها حركة دائبة لا تفتر ، بين تلقين وتدريب وطرح لما صار لا يصلح ، وأخذ بالنافع من كل جديد • والنمو الاقتصادى ، فى الزراعة والصناعة والتجارة ، لا يمكن أن يستتب ان لم يثق القائمون على المشروعات ، والمخاطرون بالمال ، بأن الاستقرار السياسى يتيح لهم أن يمضوا فيما أقدموا عليه ، وأن يجنوا ثمرة ما قدموا • والاصلاح الاجتماعى ، هو بطبيعته نزوع الى الخير وتعميمه ، ولكنه عمل طويل المدى متصل الجهد ، لن يسفر عما يرام منه الا على الأيام ، فلا غنى له عن الاستقرار ، بيد أن الاصلاح الاجتماعى ينبغى

أن يساير الحاجة المتغيرة والأفكار المجارية لسير الزمن ، فالجمود كالاضطراب ، كلاهما يعصف به •

لذلك قل أن تجد بين الذين أطالوا التفكير فى شئون الدول العربية ، من يغلب عليه التشاؤم ، من هـذه الفورة التى تتسم بها نفوس الشعوب العربية فى هذا العهد ، فهى ان دلت على شىء فانما تدل على النزوع الى ما هو أفضل فى نظم الحكم ، ومستوى المعيشة ، وانتشار العدالة الاجتماعية ، وتعميم وسـائل التربيـة وفرضها ، وهذه أشياء لا تخشى ولا تبعث على التشاؤم •

ولكن هذا النزوع الى ما هو أفضل ، مكتوما كان أو صاخبا ، يفضى فى الحين بعد الحين الى رجات عنيفة تخشى عاقبتها فى زلزلة التوازن اللازم لسلامة الجسم الاجتماعى وصحته ، ان لم تستتب له الحال — حال الاستقرار — التى تتيـح أن ينقلب النزوع نشاطا مفرغا فى صور وأعمال يرجى لها أن تثمر •

فالنشاط الزاخر فى نطاق الاستقرار شىء يطلب • اما أن يكون الاستقرار والجمود وجهين لشىء واحد ، فسبيل الى علة فى الجسم الاجتماعى ، كعلة تصلب الشرايين فى الجسم الحى •

فالتبعة الأولى التى تقع على كواهل الساسة والحكام ، هى أن يهيئوا الاستقرار الذى يزخر فى ظله النشاط الاجتماعى الصالح من أى لون كان ، ثم أن يوجهوا بمعونة أهل القلم والصحافة والتربية هذا النشاط بالارشاد والدراسة والمعاونة وأن يحثوا عليه وأن يشاركوا فيما لا غنى لهم عن المشاركة فيه ، وهى تبعة خطيرة حيال هـذا الجيل والأجيال التى تليه ، فهم معقد الأمل ، وعسى أن يقبلوا هذا التحدى فى سبيل الوطن والخير العام •

حكم القوة ومنطق النفع

تواجه الأمم الغربية اليوم مشكلتين خطيرتين،احداهما المشكلة الاقتصادية التى يعد حلها على وجه مرض ، أساسا لنجاح سياستها الخارجية ، حيال الكتلة الشرقية لأنه اذا تداعت أركان الثقة وطغت النزعة القومية فى علاج المسائل الاقتصادية ، فيغلب على الرأى أن ينكمش مقدار التجارة بين الدول الغربية ، فيطل العسر برأسه ، وتلك هى فرصــة يترقبها الشيوعيون ، ليجددوا مساعيهم ، التى ردها على أعقابها بعض الشىء ، طلائع رخاء جاءت فى أثر مشروع مارشال •

وأما المشكلة الثانية ، فهى مشكلة الموقف الذى ينبغى أن تتخذه هذه الدول حيال الشيوعية فى الشرق الأقصى • فقد أخفقت سياسة الولايات المتحدة التى كانت قائمة على مظاهرة الوطنيين فغلبهم الشيوعيون الصينيون على أمرهم • وليس ثمة ريب فى أن الوطنيين لا يزال فيهم رمق من حياة وقوة ، وأن الشيوعيين يعانون مشكلات ظفرهم السريع ، ولكن الدلائل تدل على أن كفة الشيوعيين أرجح • وقــد كان هناك أمل يخالج الأمريكيين ، فى أن يكون « ماوتسى تنغ » وأتباعه أميل الى الاستقلال عن موسكو والى الاقتصار على الاصلاح الزراعى ، وأن تقسرهم مشكلات التعمير والانشاء فى الصين على طلب معونة الدول الغربية ، فيخفف ذلك من غلواء شيوعيتهم ، ولكن « ماوتسى تنغ » خيب أمل الذين كانوا يتعلقون بأهداب هذا الأمل • فصار لابد للدول الغربية من سياسة تحد من توسع الشيوعيين فى الصين وما يلى حدودها الجنوبية فى

المنطقة المعروفة بجنوب آسيا الشرقى الى الهند ، فان لم يفعلوا ، فالعاقبة على الدول الغربية من ناحية الصراع العالمى تدعو الى القلق .

والشرق الأوسط ، يحتل فى هاتين المشكلتين اللتين تواجهان الدول الغربية ، مكانا خاصا .

أما المشكلة الاقتصادية ، فقد تبتكر لها حلول قصيرة الأجل ، أو متوسطته كخفض قيمة الجنيه أو مبادرة أمريكا الى شراء خامات حربية بالدولار من منطقة الاسترلينى أو غير ذلك ، ولكن من الواضح أن حلها الأساسى على المدى البعيد هو تمهيد الأسباب لزيادة مقدار التجارة العالمية ، ونمو المناطق الغنية فى مواردها والتى لم تبلغ مبلغا كبيرا من التقدم الاقتصادى حتى تزداد قدرتها على الاستيراد والاصدار . وليس ثمة ريب فى أن منطقة الشرق الأوسط هى احدى المناطق العالمية التى تدخل فى هذا الباب .

وأما مشكلة الشرق الأقصى واتساع نفوذ الشيوعيين فيها فتجعل لمنطقة الشرق الأوسط ، منزلة حربية لا تدانى فى كل صراع عالمى نرجو أن لا ينشب ولكن لابد أن يدخل نشوبه فى كل حساب . فاذا قضى الأمر وكان لا مفر من الصدام فالغالب أن تبنى الدول الغربية حسابها بعد الذى حدث فى الصين ، على جعل الغرب ميدان الحسم ، وهذا يجعل للشرق الأوسط منزلة خاصة فى الميزان الدولى الجديد .

واذن فالمشكلتان جميعا تفرضان على الدول الغربية أن تتوسل بكل وسيلة الى الظفر بصداقة الشعوب التى تقطن هذه الرقعة التاريخية وما يحف بها من تركيا شمالا الى باكستان والهند شرقا فى جنوب . وهى لن تظفر بها ان لم تقم لهذه الشعوب الدليل

القوى على رغبتها الصادقة فى هذا التعاون ، بأن تفرض الحل الذى يرتضيه العرب فى مشكلات منطقة القدس واللاجئين وحدود اسرائيل ، وبأن تجعل جميع المشروعات المقترحة لتنمية موارد الشرق الأوسط خالصة من كل أثارة لفكرة الأثرة والتحكم القديمة ، وتقيمها على مبدأ التعاون الصحيح والنفع المتبادل الذى لا تشوبه شائبة .

ان شعوب هذه الرقعة قد خابت أملا فيما التمسته من اعتبارات الحق والعدل والتاريخ فى حل قضية فلسطين فينبغى لها اليوم أن تتآزر على ابراز ما يطويه الشرق الأوسط من عوامل القوة والنفع ، فى صلتها بالدول الغربية فلعلها تكون أرجح فى الميزان .

قطيعة ضد الطبيعة

المنتج والمستهلك وحدة تقيمها المصلحة والحقيقة الواقعة قبل أن يقيمها القانون ، فالمنتج يحتاج الى سوق يبيع فيها ما ينتجه ، ليستورد بثمن ما يبيع الأشياء التى يحتاج اليها ولا يستطيع أن ينتجها . والمستهلك يحتاج الى موارد يستطيع أن يشترى منها ما يحتاج اليه ، فان لم يكن يملك موارد يصدرها ، وجب عليه أن يصدر خدماته ، كخدمات الاصطياف والاشتاء فى لبنان وسويسرا ، وخدمات استقبال السياح فى مصر وايطاليا وفرنسا ، وخدمات الصيرفى والتاجر الذى يستورد البضائع لبيعها ويكسب من بيعها شيئا يستطيع أن يشترى به ما يحتاج اليه .

فاذا كان المنتج والمستهلك فى أرض واحدة ، وان كان بين جزئيها حدود سياسية ، فالوحدة الاقتصادية بينهما قائمة ، بقانون

أو بغير قانون ، لأن المصلحة والحقيقة تقيمانها • فخير للمنتج أن يبيع جاره المستهلك ، وخير للمستهلك أن يشترى من جاره المنتج ، لأن نفقات النقل فى هذه الحالة تكون أقل ما تكون ، وبذلك يظل سعر السلعة عند المستهلك أقل ما يكون ، وتظل الثقة بتصريف السلعة عند المنتج أعظم ما تكون ، فتتم المصلحة والفائدة من الناحيتين •

وهذا هو وضع سوريا ولبنان فى أصوله الاقتصادية • سوريا تزرع القمح وتربى الأنعام وتنتج الألبان وما يصنع منها ، ولبنان يحتاج الى مقادير كبيرة من القمح والأنعام والألبان لتقيم أوده • فان لم تبع سوريا فى لبنان ما تنتجه فى هذه الأبواب ، وجب أن تبيعه لغيره ، وان لم يشتر لبنان ما يحتاج اليه من هذه المنتجات من سوريا ، فلا غنى له عن أن يشتريها من غيرها • وفى الحالين خسارة على سوريا ولبنان جميعا • ذلك بأن سوريا تضطر أن تدخل فى حسابها جميع مسائل التعبئة والنقل ، فى البر أو البحر أو كليهما ، فيزداد ثمن سلعتها التى تريد أن تصدرها الى غير لبنان ، وقد تصبح بعد هذه الزيادة غير قادرة على منافسة مثيلاتها فى الأسواق العالمية • ولبنان اذا اشترى من غير سوريا ، وجب عليه أن يدخل فى حسابه ، أنه اذا تساوى ثمن القمح مثلا فى سوريا وكندا ، فعليه أن يدفع اضافة الى الثمن الأصلى فرق أجور النقل من كندا والتأمين على الشحن ، وأن يضيف الى ذلك وجوب التوفية بالقطع النادر وهو ليس بالشىء الذى لا يحسب له حساب •

وقد كان اللبنانى منذ عهد الفينيقيين تاجرا ، فى المقام الأول ، فى العرف الاقتصادى ، لأن أرضه الجبلية قلما تنتج ما يكفيه ،

فهو يستورد السلع ويبيعها فيكسب منها ما يمكنه من أن يبتاع ما يحتاج اليه من القمح واللبن والجبن واللحم • وأرضه تصلح للاصطياف ، وللاشتاء أيضا فى حدود ضيقة ، فهو يصدر خدمات الاصطياف والاشتاء ، ويضيف ما يصيبه منها الى ما يكسبه من عمله كتاجر مستورد ليشترى به ما يحتاج اليه • ومن الخير له أن يشترى من سوريا ما تستطيع سوريا أن تصدره ، ومن الخير لسوريا أن تبيعه ما تستطيع أن تصدره • فان لم يفعل فربما أرهقه استيراد ما يحتاج اليه من الخارج ، وان لم تفعل سوريا فربما بارت سلعها ، أو تعقدت الوسائل التى تمهد لها المنافسة فى الأسواق العالمية • بل من هذه المنتجات ما لا يسهل بيعه فى الأســواق العالمية لأنه قد يكون مما يسرع اليه الفساد •

فاذا وضحت هذه الحقيقة الأصيلة فى اقتصاد البلدين ، وجب أن يهون الاتفاق على كل تفصيل من شأنه أن ينظم هذه العلاقة •

بيد أن المسألة ليست اقتصادية وكفى ، بل لها ناحيتها السياسية التى لا يجوز أن تغيب عن الأذهان • كيف تستطيع الدول العربية أن تجمع شملها السياسى ، فى حين أن شملها الاقتصادى شتيت ؟ والقوة الاقتصادية فى الدول العربية لا تزال بكرا على الأكثر ، وليس فى الوسع تنميتها وتعزيزها ، ان مال الرأى الى تنمية اقتصاد كل دولة على حدة وبمعزل عن اقتصاد كل دولة أخرى • فالتفكير ينبغى أن ينصرف الى تنمية اقتصاد الدول العربية ، على أنها رقعة واحدة ، يكمل بعضها البعض الآخر ، فى الانتاج والاستهلاك ، فتتوثق الأواصر بتوثق المصــالح ، وتعز جميعها يدا فى ميدانى السياسة والاقتصاد العالميين • وكيف تأمل الرقعة العربية أن تواجه

مشكلات اليوم الجديد ، واسرائيل تبذل ما تبذل لتكون مركز الصناعة والتوزيع فى الشرق الأوسط ، ان لم يكن اقتصاد الرقعة العربية متكاملا ؟ أليس من التخلف عن اتجاه العصر ، أن نجد دول أوربا الغربية ، تسعى الى ضرب من التنسيق الاقتصادى لتتغلب على مشكلاتها ، وبينها ما بينها من فوارق التاريخ واللغة والثقافة والمنافسة ، على حين نرى بعض الدول العربية يميل الى القطيعة مع ما بينها من وشائج التاريخ واللغة والتكامل الاقتصادى الطبيعى ؟

وليس فى الدنيا دولة تستطيع أن تستكفى مهما تكثر مواردها وتترامى رقعتها وتتسع أسواقها . وهذا على الدول الصغيرة أصدق .

هذا هو قضاء العقل والمنطق ، بل هو قضاء الطبيعة ، وما جمعته الطبيعة حرام أن يفرقه انسان .

منابع الالهام

جاء على زمن ظننت فيه أن العلم أسلوبا وثمرا ، هو الحقيقة الأصيلة فى العمران الحديث ، التى ينبغى أن يتعلق بها رجاء الانسان . فالانتفاع به يقلل الكدح ، ويهون أسباب العيش ، فيفضى على طول الزمن ، الى رفع مستوى الحياة بين الناس ، والى زيادة ساعات الفراغ ، فينفقها الناس فى مطالب العقل والروح العليا ، وأسلوبه هو الأسلوب الذى يتوخى الحقيقة فى ميدان التجربة . فالعلماء — الذين يصدق عليهم وصف العلماء — هم أهل صدق واخلاص واخاء ، وهمة لا يقعد بها اخفاق ، ولا يفل

من حديدها أن لا يظفر صاحبها بالشهرة وذيوع الصيت ...
فخلق العلماء هو صفوة الفضائل فى الحياة . ثم ان العلم لا يعترف بحدود قائمة بين أهل دولة ودولة ، ولا بين أهل جنس وجنس ، ولا بين أهل مذهب ومذهب ، فالكينا تنفع المصاب بالملاريا سواء أكان زنجيا أم أبيض ، ومسيحيا أم مسلما ، وشيوعيا أم رأسماليا ، والقنبلة الذرية تقضى عليهم ولا تستثنى .

ولكننى لم ألبث حتى تبينت أمرين . أما الأول فهو أن كل تحول أصيل فى حياة الاجتماع البشرى ، يحتاج الى قوة دافعة تتصل بغريزة الحياة وحفظ الكيان وتؤثر فى ملكات النفس — التى تحركها الارادة بعض الشىء ، ولكنها تتحرك بغير الارادة على الأكثر . والعلم كما درجنا على فهمه فى العصر الحديث ، شىء جديد طارىء على العقل ، فقوته النفسية الدافعة قليلة . ولا سيما فى نفوس الجماهير ...

وأما الثانى ، فهو أن المشكلة التى تعانيها الحضارة فى عهدنا هذا ليست قلة القوة التى بين أيدينا ، بل كيف ننتفع بها ، وما هو غرض الانتفاع . ان المشكلة ليست مشكلة علميـة وحسب ، أو صناعية وكفى ، بل هى مشكلة خلقية تتصل بقيم الأشياء . وقد أفرغها صديق لى فى كلمة مختصرة عن حيـاته هو ، قال : تخرجت مهندسا ، ولكننى ما لبثت أن تبينت أن مشكلة العالم ليست مشكلة معرفة ، بل هى مشكلة قيمة المعرفة من الناحيـة الخلقية . فانصرف صاحبى من عمل فى ميدان الهندسة كان يبشر بمستقبل باهر وكسب جزيل ، وعاد الى الدراسـة يتوفر على الفلسفة والأخلاق . وهذا الرجل الآن رئيس معهد للتربية ، وهو

فى رأيى من أحسن رؤساء المعاهد تأهبا لعمله ، وأعظمهم توفيقا فيه . وتفسير ذلك واضح . ان بين القوة العظيمة التى أبدعها العلم ، وتقصير الحكمة البشرية فى تثقيف نوازع الناس المتأصلة فى فطرتهم ، هوة كالهاوية ، هى سر الخطر الذى يحيق بالحضارة . فاذا أفلست الحكمة البشرية وعجزت عن النهوض بعبء التثقيف كما ينبغى أن يكون ، أفلتت القوى الهائلة التى وضعت مقاليدها فى أيدى الناس ، فيحق عليهم القول ، فتدمرهم تدميرا .

فالعلم الذى صهر فى بوتقة الحرب يجوز مرحلة انقلاب خطيرة ، ويتصل بأعمق جذور الحياة ، ونحن فى بلاد الشرق العربى نعانى أثر هذا الانقلاب كما تعانيه سائر بلاد الناس ، على تفاوت بيننا وبينها..

ولكننا نعانى فى الوقت نفسه ، مشكلة خاصة بنا ، وان كانت جزءا من مشكلة الانسانية العامة ...

انا نرى بأعيننا بعثا عربيا يمتد من شمال سورية الى خليج ايران ، ومن سواحل البحر المتوسط الشرقية الى أعالى النيل وما وراء الفرات . فأمورنا بأيدينا اليوم ، أو تكاد تكون ، أو ستصير حتما بعد زمن قصير ، فماذا ننوى أن نصنع بهذه الفرصة التى لم تسنح لنا فرصة مثلها منذ قرون كثيرة ؟ أنرخى العنان للأمور تنطلق بنا كالجواد الجامح ، فلا نفيق الا ونحن على جرف الهاوية ، واذا فعلنا فماذا نقول حين تأتى ساعة الحساب .. ؟ أيقبل أحد فى الدنيا أو فى التاريخ من بعد ، عذر من يعتذر بأنه لم يعلم أو أنه لم يبال .. ؟ وما هو الغرض الذى نريد أن نسير اليه ، وما هى القوة الدافعة التى ينبغى أن تتذرع بها ، لنقوى على مشاق السير الطويل فى هذا الطريق الوعر ...

هذه أسئلة تتردد أصداؤها فى جنبات النفوس ، وهى تنزل فى الصميم من حياتنا كل يوم ، ولست أزعم أن عندى جوابا شافيا عنها جميعا أو عن أحدها ، ولكن بعض الجواب وان يكن خاطئا خير من عدم الجواب ، فالحياة لن تتجمد وان تجمد فكر بعض الناس ..

فأول خطيئة ينبغى لنا أن تتجنبها ونحن فى هذا المخاض القومى ، هى خطيئة الاستهتار وعدم المبالاة . ان فى الدول العربية جميعا عشرات الألوف من الشباب لا نستطيع أن تتهمهم بهذه الخطيئة . ولكنهم فى حيرة من أمرهم ، يسألون صباح مساء ماذا نستطيع أن نفعل ، لكى نرتفع الى مستوى الأمجاد التاريخية ، التى أشرقت على الدنيا من أرجاء هذه الأرض ... ؟

أما ما نستطيع أن نفعله فهو أولا فى نظرى ، أن نؤمن ايمانا صادقا بقدرتنا على أن نفعل ، والايمان بقدرة المرء ، تنزل على بعضهم نعمة من نعم الله ، ولكنها فى الأغلب الأعم تربية ومرانة .. فنحن نعلم أن المصريين والفينيقيين والأشوريين والبابليين منذ آلوف السنين ، شقوا الضباب الذى كان يغشى آفاق المعرفة فى فجر الفكر الانسانى ، ونحن نعلم أيضا أن العرب منذ ألف سنة حفظوا بما فطروا عليه من الشوق الى المعرفة جملة صالحة من تراث الفكر الانسانى ، وأضافوا اليه وأبدعوا فيه ، ثم نقل بعض ما صنعوه الى الغرب ، فكان بعض النواة التى تململت فيها حياة النهضة الأوربية . فلماذا لا ندرس هذا التاريخ ، لا على أنه جزء من التاريخ العام وحسب ، بل أيضا على أنه جزء من التيار الجارى فى عروقنا ، وعلى أنه قوة تحرك نفوس الشباب الى الايمان بقدرتهم .

فأنا أعلم مثلا أن ما أثر عن ابن الهيثم فى علم الضـوء ، لا يصلح أساسا لدراسة علم الضوء المفصلة فى العصر الحديث • ولكننى أعلم أيضا أننى حين أقرأ ما صنعه ابن الهيثم منذ ألف سنة ، بغير أدوات البحث التى توافرت توافرا مطـردا على الزمن لمن أتى بعده من العلماء ، وحين أعلم أن ما صـنعه كان له أثر غير يسير فى بحوث كبلر وكوبرنيكوس وغيرهما من بناة العوالم ، وطلائع العصر الجديد ، أشعر أولا بشيء كثير من الفخر ، وثانيا بغبطة عظيمة أننا تقدمنا الى هيكل العلم العام مع سائر الشعوب وفى أيدينا حجارة وضعناها فى أساسه ، وثالثا بأن ما كان يدخل فى طوق ابن الهيثم وعشرات غيره منذ ألف سـنة يدخل فى طوقنا نحن الآن — فى بيروت ، والقاهرة ، ودمشق وبغداد ، وفى كل بلد عربى ، تتاح فيه فرصة لكل عقل أن يكشف عما فيه من خير •••

فهذا الايمان بأننا نستطيع ، هو الذى ينبغى أن يكون حجر الزاوية فى منهج كل معهد من معاهد التعليم ، وكل وسـيلة من وسائل التربية العامة ، من صحافة واذاعة ومحاضرة • وقد نختلف ألف مرة كل يوم على عشرات من مسائل الحكم ، وقـد نكتب ملايين من الألفاظ فى التأييد والمعارضة ، فيزول ذلك كله على الأيام ، ولا يبقى الا ما نعمله من عمل نافع يزكى فى نفوس الشباب ايمانهم الصادق بأنهم يستطيعون كل شيء ، اذا اجتمعت لهم أسباب المعرفة وفضائل الهمة والمثابرة وأعظمهن العزيمة •••

بيد أن استلهام التاريخ لهذا الغرض لا يعنى أنه ينبغى لنا أن ننحصر فى نطاق هذا التاريخ • فكل حضارة ركدت وانحطت ، يوم انعزلت عن سائر الدنيا وقنعت بأن ترى تيارات الحياة الزاخرة

تمر بها دون أن تعبأ بها • ولا يسعنا أيضا أن نعالج المشكلات بالارجاء والمساومة مع الحق ، بل ينبغى لنا أن نأخذ وأن نعطى ، وأن تتذرع بالفكر السديد والعلم الواسع والهمة العالية ووحدة القصد فى علاج المشكلات • وليس لنا من سبيل الى ذلك كله ، الا أن تتخذ من استلهام تاريخنا كله حافزا للايمان بالنفس وموريا لنار العزيمة ، ومن استشراف العالم كله وما عند العالم من ثمار العلم والتجربة سلاحا ماضيا للعمل • فهذان هما جوهرا الشخصية التى نريد أن نصوغها ، لكى تتواءم من ناحية مع فطرتنا وتاريخنا وخاصة أمورنا ، ولكى تتواءم من ناحية أخرى مع سائر العالم السائر قدما الى أمام • وهذا الغرض العظيم تصغر فى جنبه جميع الأغراض الأخرى • وينبغى أن يظل أمامنا كالمنارة نهتدى بنورها •

منذ عهد قريب كنت أقلب أوراقا طال عليها القدم فى أحد أدراجى ، فوقعت عينى على صـــورتين تمثلان غرق البـــاخرة « تيتانيك » عروس البحار فى يومها • أما الصورة الأولى فتمثل الباخرة ، وقد شقها جبل الجليد ، فمالت الى الغرق وأخذت اللجة تحتويها • وقد كتبت تحت الصورة « ضعف الانسان — قوة الطبيعة » • وأما الأخرى فتمثل قاربا تدلى على جنب البـــاخرة الغارقة ، وأمام القارب المزدحم بالركاب رجل يهم بالنزول ليجلس فى آخر مكان فيه لينجو مع الناجين ، ثم تراه وقد ارتد ليخلى المكان الأخير فى القارب لسيدة وراءه تحمل طفلا بين يديها ، وهو يعلم أنه شارب كأس الموت لا محالة • وقد كتبت تحت الصورة « ضعف الطبيعة — قوة الانسان » •• فهذا مثل صغير يضرب للناس على القوة العظيمة فى قلب الانسان ان هو أحسن استعمالها •

وقد زعم علماء الطاقة الذرية ورجال الحرب أن العقل البشرى لا يدرك اليوم ولا فى المستقبل القريب وسيلة حربية أو علمية لدرء خطر القنبلة الذرية • واذن فينبغى للناس أن يلتمسوا الدفاع فى غير الوسائل العلمية والفنية — فى ميدان السياسة — أو قل وأنت أصدق قولا فى ميدان التربية • فعلى الناس أن يتعلموا أن يفهم بعضهم بعضا ، وأن يحسن بعضهم معاشرة بعض وأن يستأصلوا من بيئاتهم تلك البواعث التى تمهد للحرب : « الجهل والفاقة والمرض » ، وأن يشنوا عليها حربا لا هوادة فيها فهذه حرب كما قالها جلالة الملك فاروق — يجب أن تشن ، وهى أنبل الحروب وأنفعها وأعظمها شأنا •••

أيها الشباب — هذا تاريخكم من ورائكم فاستلهموه • وهذه ينابيع علم العالم من أمامكم فانهلوا منها ، ثم اجمعوا بعبقرية عقولكم وقلوبكم بين القوتين ، وسيروا فى طليعة جيل جديد ، يقول للناس •• « هذه قوة الطبيعة قد خضعت لقوة الانسان فى سبيل الخير العام » •••

فرصة الجامعة

تتجه أنظار العرب اليوم الى الاسكندرية ، حيث يجتمع مجلس الجامعة العربية • وقد جاءت فترة ، منذ شهور ، خيل فيها الى بعض الناس ، أن الجامعة العربية قد ذهبت مع الريح ، وأن الهوى وتقديم المصلحة الخاصة ، قد غلبا على التيارات العميقة فى حياة الأمم العربية ، التى أفضت الى قيام الجامعة وتوقيع دستورها فى سنة ١٩٤٥ ، ولكن الذين نظروا الى نهضة العرب منذ أوائل القرن

الماضى ، أدركوا أنها ترجع الى قوى تاريخية تضافرت على خلقها ، فهى ليست كالوردة عمرها يوم وكفى • ففى نفوس العرب ذكرى دولة عريضة امتدت فى أوجها من قلب آسيا الى جبال البرانس ، وذكرى ثقافة عالمية اعترف لها العلماءُ بأنها حملت مشعال الثقافة القديمة زمنا طويلا حتى استضاء به الاحياء الأوربى ، وأن القرن التاسع عشر شهد بوادر اليقظة السياسية العربية استجابة للأفكار السياسية الحرة فى الغرب ، واستنكارا للاستعمار الغربى ، وتطلعا الى الاستقلال والحكم الديمقراطى ، وقد جارى اليقظة السياسية انبعاث فكرى فى التعليم والصحافة والأدب والعلم والتأليف والنشر ، فاجتمعت ثلاث قوى هى التى تحرك الشعوب ، لأنها تنبع من أغوار النفوس وأعماق التاريخ فكل من ظن ، هنا أو هناك ، أن عارضا ما خليق بأن يعصف بفكرة الجامعة ، قد أخطأ الظن •

وقد يستبد بك الشك فى قدرة الجامعة على معالجة المشكلات التى تصدت لعلاجها فى مستهل حياتها ، ولكن لن يسع أحدا أن يشك فى ضرورتها دون أن يشك فى الأمة العربية ومنطق نهضتها • ونحن لا نكاد نرتاب فى أن أقطاب الأمم العربية قد استخرجوا العبرة مما كان،ولم يغفلوا النظرة الى التاريخ الذى جعل الجامعة ضرورة لا غنى عنها ، أو الى المستقبل الذى يتحدى العزيمة بما يطويه من مخاوف كالحة وفرص لا عداد لها للعمل النافع ، فى آن واحد • فان كانوا قد فعلوا ، فليس ثمة ريب فى قدرتهم على أن يرتفعوا فوق أسباب الضعف والفرقة ، فيروها ضئيلة اذا قيست بأسباب القوة وجدوى الاتحاد ، ويومئذ يوطنون النفس على تغليب قوتهم على ضعفهم • قال ابن حزم : كل مصيبة تصيبنى فى مدرسة الدهر،

ان لم تقتلنى فهى لى قوة جديدة •

وعناصر القوة بين أيديهم ، عشرات الملايين من الناس فى نفوسهم طيوف من الماضى المجيد وآمال تسبح فى آفاق مستقبل أمجد ، وفى عقولهم ذكاء ومضاء شقا الحجب عن المعرفة الانسانية فى مهدها ، وبنيا أركان الحضارات الأولى ، وملايين من الأميال المربعة من أرض غنية بموارد الزراعة والصناعة ، وموقع جغرافى لا يكاد يدانيه موقع رقعة أخرى فى العالم كله اليوم •

وقد تتباين الآراء فى خير الوسائل للنهوض باقتصاد الشرق العربى ، ولكنها مجتمعة على أننا نملك مادة النهوض ، وأن الحاجة اليوم ، فى هذا الميدان ، انما هى الى صقل المواهب وتدريبها ، واستكشاف الموارد تمهيدا لتنميتها ، وأن كل معونة ترام سواء كانت فنية أو مالية لا جناح فى طلبها ولا غضاضة ، على أن تكون منزهة عن شوائب التدخل السياسى •

ومنذ عهد قريب نقلت الينا أنباء عن مناقشة مجلس الاقتصاد والاجتماع فى المشروعات المقترحة لتنفيذ خطة المعونة الفنية التى يطلبها أعضاء الأمم المتحدة عن طريق الهيئات الخاصة ، وأخرى عن مناقشة الكونجرس الأمريكى فى مبلغ ٤٥ مليونا من الدولارات طلبها ترومان لتيسير المعونة الفنية للدول التى ترغب فيها وفقا لبرنامج النقطة الرابعة • أفتقبل الدول العربية هذا الضرب من المعونة أم تضرب عنه صفحا ؟ واذا رأت أن تقبله أتقبله فرادى ، أم تقدم فى قبوله مصلحة الجماعة أو المنطقة ، وهو أجدى ؟

ولا يقتصر الأمر على هذا ، فاقتصاد الدول العربية مكمل بعضه بعضا فى طائفة من نواحيه ، فكيف السبيل الى تعزيز هذا

التكامل ؟ وهو اقتصاد سوف يتعرض فى مجمله لخطر حقيقى من قبل اسرائيل ، فهى لن تستطيع البقاء اعتمادا على الهبات ، ولا هى تملك خامات الصناعة الثقيلة ، فيغلب أن تعمد الى انشاء صناعات تنافس صناعاتنا وأن تتوسل بكل حيلة لغزو أسواقنا ، فما هى الوسيلة المجدية لاحباط هذه المحاولة ؟

وليس فى العالم العربى ، من لا يرى أن الاجتماع السليم هو التربة التى ينبت فيها التقدم وتترعرع القوة . وسلامة المجتمع تستمد من صحة الناس وحسن تربيتهم ورضاهم عن أحوال عملهم وجدواه ، ومن ايمانهم بالمعانى الخلقية التى ينبغى أن يكون لها المقام الأول فى حياة الأمة ، أفلا يصح أن تكون الجامعة العربية مقرا لدراسة هذه المشكلات دراسة وافية ، ووسيلة لتنسيق العمل على علاجها فيما بين الدول العربية أولا ثم فيما بينها وبين الهيئات الدولية التى تستطيع أن تنتفع بعلمها وتجربتها ، وأداة للتربية الشعبية بكل وسيلة عرفت وجربت من وسائل تلك التربية ؟

ثم ان الشرق الأوسط فى جملته ، عربيا وغير عربى ، صار له اليوم من المنزلة فى ميزان القوة العالمية وميزان الاقتصاد العالمى ، ما يفرض على حكوماته جميعـا أن تلم قوتها المتفـرقة وتنسق خططها ، ولا تكتفى بتعاون تعمد اليه فى الحين بعد الحين ، يوم تجتمع الجمعية العمومية للأمم المتحدة أو تهم بالاجتماع .

هذه طائفة وحسب من المهام الخطيرة التى ينبغى أن تعيرها الجامعة قسطا وافرا من اهتمامها وأن تعد نفسها لتكون أداة صالحة للنهوض بها . وليس ثمة ريب فى أن شئون السياسة العربيـة وتنسيقها ستظل ، وينبغى أن تظل ، فى الطليعة بين مهامها . ولكن

كل ظفر نناله فى ميادين النمو الاقتصادى والاصلاح الاجتماعى والتنسيق الاقليمى ، يجعل كلمتنا وكلمتها أقوى وأعلى ، فهذه لغة العصر • وسوف تتاح الفرصة للجامعة فى الأيام المقبلة ، أن تكتب صفحة جديدة • والأمم العربية تريد أقطابها أن يتوسلوا بالشجاعة وبالصراحة مهما تكن مؤلمة • فليقل كل ما فى نفسه لوجه الله وخير العرب ، وليكن ما يقولونه بين أربعة جدران ، فالأمم العربية لا يهمها أن تعرف ما يقال ، ولكن يهمها أن ترى النفوس وقد صفت ، والعزائم وقد عقدت ، والعمل وقد بدأ • وهو عمل ينبغى أن يتصل على الأيام ، بعد أن ينفض الاجتماع ويعود الأقطاب الى حمل أعبائهم الكثيرة ، وحسب العاملين فخرا ورضى ، انهم يلمسون بأيديهم الحجارة التى توضع فى أساس صرح قد لا يكمل بناؤه فى عشرين سنة أو خمسين ، بل لن يكمل له بناء ما دام فى النفس شوق الى ما هو خير وأفضل •

نعيش فى واجهة

لسنا ندرى أيهما أوقع فى نفس المرء أو نفس الأمة ، أو أيهما أشد حفزا للهمة ودفعا للعمل : أهو الخوف أم هو الأمل ؟

أما الخوف فيستحث غريزة الدفاع عن النفس ، واذا الغدد تفرز فى دم الرجل مادة تنشط القلب والعضل فتراه والخطر يحدق به قد صار أسرع تفكيرا وأشد مراسا ، واذا الصفوف فى الأمة ، أو الأمم فى الجماعة ، قد تدانت آراؤها واتحد عزمها فتصير التضحية عندها فى سبيل الدفاع عن الكيان أيسر وأحلى • وأما الأمل فيستحث الركب — ركب الرجل وركب الأمة — الى الغايات

البعيدة وقد يكون أبطأ أثرا فى النفس ، ولكن نتيجته على الزمن أبقى وأجدى فى أغلب الحين • والخوف اذا استحثك الى عمل فقد يمكنك من أن تتفادى خطرا أو أن تكون لك الغلبة على خصم وأما الأمل اذا استحثك الى غاية بعيدة نافعة ومضيت فأنت فى عداد المنشئين لنفسك وللاجيال التى تلى •

واذا اجتمع الخوف والأمل معا فقد اجتمعت — للفرد أو للأمة أو للجماعة من الأمم — القوتان اللتان تحركان النفس وتدفعان الى العمل •

وهاتان القوتان تفعلان منذ حين فعلهما فى الجماعة الغربية من الدول • أما الخوف فهو الخوف من قوة الكتلة الشيوعية ، وأما الأمل فهو الأمل المعقود على حشد موارد الجماعة وتوحيدها حتى تصير بما تبنيه من قوة للدفاع وما ترفعه من مستوى للعيش وما توثقه من صلات الفكر والثقافة ، ركنا لصرح لم تزل تشيده الآمال وتهدمه المطامع — صرح عالم يسوده السلام والرخاء ، فقد قضى العلم وقضت الصناعة بأنه عالم لا يتجزأ فيه الرخاء ولا يتجزأ السلام •

ففى شعور الخوف وسورة الأمل نبت ميثاق الوحدة الغربية ومشروع مارشال وميثاق الدفاع الأطلسى ومجلس أوربا وفى كل من هذه الهيئات دلائل تدل على وقع الخوف من السوفيت وخططهم فى نفوس الجماعة الأوربية من الدول ، فهى تتكتل لتدفع مجتمعة مالا قبل لها بدفعه فرادى • وفى كل منها أيضا دلائل على أنها أنشأت ما أنشأت يحدوها أمل لم يزل يتردد على ألسنة الشعراء وأهل الفكر والسياسة منذ عهد دانتى فى القرن الرابع عشر عسى أن

تمحى أسباب الخصام والنزاع فتسترد أوربا الغربية عافيتها وقوتها بالوحدة ، وتقيم عليها الفكر الانسانى الذى أبدع فى العصور الماضية ما أبدع فى الأدب والعلم والفلسفة ، وتجعله مرشدا للقوة المتجددة يدفعها نحو غاياته البعيدة .

ولسنا ندرى ان كان الخوف له من المنزلة فى تحريك نفوس الشعوب العربية كمثل منزلته فى تحريك نفوس الشعوب الغربية ، فان لم يكن فمن الواجب أن تثيره مطامع الصهيوبيين ومساعى الشيوعيين وأثر الفاقة المر فى النفوس ، ولكن أثره يظل أثرا سلبيا حتى ينضم اليه الأمل محركا ودافعا الى العمل المنشىء . فنحن نسعى فى ثلاثة ميادين واسعة لتحقيق الآمال والمنى التى تعلقت بها اليقظة العربية منذ أواخر القرن الماضى . أما الميدان الأول فهو الظفر بالاستقلال والقيام بما يقتضيه من تبعات الحكم الدستورى والتقدم الاقتصادى والاجتماعى . وأما الثانى فتوثيق ما بيننا حتى نصير يدا واحدة فنظفر فى مجالس الدول بمكانة تتفق وما لنا من مكانة فى تاريخ البشر على الأرض من ناحية وفى ميزان القوى العالمية اليوم من جهة أخرى . وأما الثالث فأن نشارك مشاركة الحر للحر والند للند جميع الدول التى تسعى الى توطيد أركان السلام والرخاء فى ظل الأمم المتحدة .

ولن يتحقق لنا أمل فى الميدان الثالث ان لم نبن بناء راسيا فى الميدانين الأولين . فالعالم — كما قال لنا مصرى كبير فى الأمم المتحدة — « يعيش فى واجهة » ولا يغنى عن الحقيقة قول مهما يكن بليغا ففى وسع من أراد أن يستقصى من فوره حقيقة كل قول ، واذن فالبناء فى داخل كل أمة عربية وفى منطقة الأمم العربية

جميعا هو التبعة الأولى التى يمليها الخوف والأمل جميعا وان كان الاهتمام بها لا يعنى قط اهمال الصلات العالمية وتوثيقها • والبناء الداخلى عناصره بين أيدينا وطوع ارادتنا — ان أردنا • أرض واسعة فيهـا خيرات كثيرة جلها لا يزال مستكنا لم يفض ختمه ، وشعوب ذوات ذكاء أثبتت فى غابر التاريخ وحاضره أنها تستطيع بالفكر والمرانة والهمة ، أن تكون أمما تحسن البناء،وأواصر طبيعية واجتماعية تجمع فيما بيننا على وجه قل أن يتوافر لجماعة أخرى من الناس •فالحاجة الأولى اليوم انما هى الى خطة تنسق جميع هذه المزايا وتسير بنا الى هذه الغاية ، والى صوت مدو صادر من الأعماق يوقظ النفوس ويحفز الهمم الى العمل النافع والى شجاعة ينبوعها الثقة بالنفس ، لا يثنيها ثان عن التوسل بكل وسيلة عربية أو غربية من شأنها أن تخرج ذخائر النفـوس وخيرات الأرض وتبنى على التقدم الاقتصادى والاجتماعى شعورا بالقوة والعزة والولاء — فقد قيل فى جدوى مشروع مارشال انه ساعد على انشاء حالة يهم كل وطنى أوربى أن يحمى حماها •

ان العالم يرقب اليوم كتلة الدول الغربية ليرى ، أتنوى حقا أن تتوسل بالخوف والأمل لتسدل ستارا على أسباب الفـرقة القديمة والنزاع التاريخى بينها ؟ وهو يرقب أيضا كتلة الدول العربية ليرى أتنوى حقا أن تبنى على مبادىء حضارتها القديمة وآمال نهضتها الحديثة أمما سليمة البنيان موثقة الأواصر ؟

ان نجاحنا فى البنيان السليم رهن بارادتنا ، ونجاحنا فى توثيق الأواصر بيننا ينبغى أن يكون أدنى من نجاح دول مجلس أوربا • فالأواصر بيننا أقوى وأسباب الخصام أقل ، والتكافل فى الحالين

لا غنى عنه لحفظ الكيان ، ولتحقيق الأمل المنشود • فان لم يفعلوا وان لم نفعل فالمصير لا تحمد عقباه — القوة مكشرة عن أنيابها ، والفاقة لا ترحم ومستغلوها لا يغمض لهم جفن والفرقة لا تجدى سوى الضعف ، والعلاج بين فيما أرى وان كان طريقه طويلا وعرا ، ولكن الوصول الى الغاية يقتضى أن نبدأ السير وأن نواصله وان أثخن الشوك والحصى أخامص الأقدام •

موعد مع التاريخ

بين صور الماضى المجيد ، ومنى المستقبل المأمول ولدت النهضة العربية الحديثة منذ قرن من الزمان ، ومضت قدما نحو أهدافها ، تضعف حينا وتشتد حينا ، ولكنها أبدا تسير الى أمام • فالجامعة العربية التى وقع ميثاقها فى ربيع سنة ١٩٤٥ ، هى نتيجة طبيعية منطقية لقوى التاريخ العربى ، التى ظلت مستكنة حتى أتيح لها أن تنبعث • فالجامعة ليست تدبيرا سياسيا دفعت اليه اشارة وزير أجنبى ، أو قضت به أحوال الحرب العالمية الثانية بل هى مرحلة بلغها تيار تاريخى قوى • وقد كان جهل الدول الغربية لهذه الحقيقة واغضاؤها عن قوة الحركة العربية وتأصلها فى النفوس ، هو الذى باعد ما بيننا وبينهم فى الحين الذى كان أهل الخير فى الناحيتين قد عقدوا رجاءهم على التعاون فى سبيل الخير والتقدم والسلام •

ان تاريخنا حافل بآيات الأواصر الطبيعية القوية التى ينبغى أن تجتمع لأمة أو لطائفة من الأمم حتى يتمهد أمامها طريق الاجتماع حول غرض عام • وفى طليعتها اللغة العربية الغنية المرنة المتجددة على

الزمن الحافل أدبها بذخائر العقل والقلب • فهذه اللغة تراث يزهى به العربى أينما كان : البدوى فى الصحراء والفلاح فى الحقل والحضرى فى المدن الآهلة • وقد يكون السواد من هؤلاء جميعا فى عداد الأميين ولكن احساسهم الفطرى باللغة واستجابة نفوسهم لايقاعها شىء يندر أن تجد له مثيلا فى الجماعات الغربية المتعلمة •

ثم هذه المشاركة الطويلة فى تجربة تاريخية لم تزل متصلة منذ أقدم العصور • فالأمة العربية اليوم هى ما أسفر عنه اندماج سلالات كثيرة قوية ، عاشت على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى أراضى الشرق الأوسط ، وليس ثمة من ينكر أن أهل البلاد التى تنطق بالعربية ، قد تعرضت خلال عصور متطاولة لمؤثرات خارجية وداخلية مختلفة فقامت بينها فوارق • وقد يقيم خصوم الوحدة لهذه الفوارق وزنا أكثر مما تستحق ، وقد يستخف بها غلاة الوحدة فلا يقيمون لها الوزن الكافى ، ولكنها قلما تضعف ذلك الشعور العميق بالقربى والولاء لأصول تاريخية واحدة ، فمن هذه القوى التاريخية نبعت ارادة اجتماع الشمل حول غرض عام •

وقد تعاقبت على العرب أزمان ظلت فيها هذه القوى راقدة ، فلما بدأوا يتصلون بتراثهم القديم ، وبالينابيع التى تفجر منها تاريخهم فى أزهى عصوره ، جعلوا يستوحون الماضى ويتطلعون الى المستقبل ، واذا أمامهم غرض يستأثر بالقوة الدافعة فى النفس فتفرض الولاء الصادق له ، وتجعله عزيمة لا تنثنى • وقد وجدوا فى القرن التاسع عشر الأحوال التى تحول الأمنية الهائمة الى قوة جائحة — وجدوا رجال الحكم فى الدولة العثمانية يمارسون

سلطانهم بمعزل من العرب ، وعلى رغم منهم ، ووجدوا السيطرة الأوربية تتغلغل فيما بينهم ، والتقت فى نفوسهم ذكرى الدولة العربية بالنزعات القومية التى هبت ريحها من الغرب • فاذا النهضة العربية تسير نحو التحرر واثبات النفس • وقد جاءت الصهيونية بأنكر ما يعرف من ضروب الاستعمار فجعلت رد الفعل فى النفس العربية كالقوة الطبيعية لأنه يتصل بحفظ الكيان ، وان ما نشاهده فى مجلس الأمن اليوم من تألب على اهمال حقوق العرب ، شهدنا أكثر منه فيما مضى ، وقد غلبناه على أمره ، وليس يضيرنا اليوم أن نشهد ما نشهد ، فهو الذى يشحذ العزم على السير فى ركاب بعث تاريخى لن يستطيع مجلس الأمن أن يرد تياره المتدفق على أعقابه ، الا اذا مهدنا له بالتخاذل والونى •

فالأمم العربية اليوم على موعد مع تاريخها •

انها تقف أمام العالم وعلى وجهها الكريم سمات العزم ، تسعى الى تحقيق ثلاثة أهداف : أن تنجز استقلالها ، وأن تجعل وحدة قصدها حقيقة لا مراء فيها ، وأن تسير قدما فى طريق التقـدم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى • فهى تشن حربا فى ثلاثة ميادين ، ولا يضيرها أن تنكص مضطرة فى أحدها ، ان هى عاهدت نفسها على أن تتخذ من النكصة فرصة تتحفز فيها للوثوب • والجامعة العربية هى الاعراب عن وحدة القصد فى هذه الحرب ، فمن يفهمها من أمم الغرب ، على أنها وسيلة سياسية عابرة لتحقيق أغراض معينة ، يجهل المعنى العميق السارى فى تاريخ العرب ، كالحبل الذى ينتظم درر العقد •

وهذه الأغراض التى يسعون اليها ، متصل بعضها ببعض ،

متفاعلة كجميع القوى الانسانية ، لا يسعك أن تعزلها بعضها عن بعض ، فالجهاد فى سبيل الاستقلال يستحث التطلع الى الوحدة وما تجديه من قوة ومقدار ما يدرك من الوحدة يعين بدوره على نيل ظفر آخر فى حرب الاستقلال ، وكلاهما يتطلب الكفاح من أجل التقدم الاجتماعى فى أوسع معانيه ، ويستعين بما يتم لنا منه .

ونجاح العرب فى هذه الحرب رهن بشيئين اثنين : بمصير الحضارة الحديثة من ناحية ، وبعزيمتهم وايمانهم من ناحية . ففى عالم تتناحر فيه الدول الكبرى على السلطان ، متوسلة بسياسة القوة ، يقع العرب — بل كل دولة صغيرة أو كبيرة — بين شقى الرحى . فمصير الجهاد العربى ، فى بعض مغزاه هو تحد للحضارة الحديثة ، وللقوى المنشئة فيها . وحسب العرب أنهم نبهوا الدنيا ، فى الجمعية العمومية ومجلس الأمن الى الخطر العظيم الذى يتعرض له الناس بعزوف الغلاة فى الهيئتين عن اعتبارات الحق والعدل . بيد أن مصيرهم هو فى المقام الأول تحد لعزيمتهم ، وللرجال الذين يتولون توجيههم وقيادتهم . فاذا كانوا أكفاء لهذا التحدى فقضية فلسطين تحل من تلقاء نفسها سواء رضى مجلس الأمن أو كره . فهم يدركون أن تاريخهم ، فى قديمه وبعض حديثه ، زاخر بالقوى التى تمهد للظفر بما ينشدون ، وعسى أن يدركوا أيضا أنهم اليوم على موعد مع هذا التاريخ !

نحن شعوب العالم

نحن شعوب العالم

١	— روح الميثاق	أكتوبر ١٩٤٩
٢	— قوة تحرك الأرض	٣١ ينـاير ١٩٤٩
٣	— مشروع جـديد جرىء	يوليـو ١٩٤٩
٤	— معنى النقطة الرابعة	١٤ يوليـو ١٩٤٩
٥	— المساعدات الفنيـة	أكتوبر ١٩٤٩
٦	— أزمة الطعام العالمية	سبتمبر ١٩٤٩
٧	— عودة الى العقل	نوفمبر ١٩٤٩
٨	— مصير الأمم المتحدة	٢٧ ديسمبر ١٩٤٧
٩	— فى قصر شايو	٤ نوفمبر ١٩٤٨
١٠	— الأمم المتحدة — ما نفعها ؟ . . .	٢ نوفمبر ١٩٤٨
١١	— مقعد الصين	٣١ مارس ١٩٥٠
١٢	— موقف مصر	٢٢ سبتمبر ١٩٥٠
١٣	— الوسيلة وحدها لا تكفى	١٥ نوفمبر ١٩٥٠

روح الميثاق

روح الميثاق هى عبارته الأولى : « نحن شعوب العالم » .

بهذه الكلمات الثلاث تستهل الأمم المتحدة ميثاقها . وفى اختيار اللفظين — لفظ « الشعوب » فى مستهل الميثاق ، ولفظ « الأمم » فى اسم الهيئة العالمية ، مغزى لا يكاد يخفى على أحد ، ولكن الحرص على توكيده ، وتفسيره ، يوما بعد يوم ، شىء لا غنى عنه ، لتستكمل الأمم المتحدة المعنى الأول ، الذى من أجله أنشئت واليه تسير .

نعم ، ان حكومات الدول التسع والخمسين ، التى انتظمت أعضاء فى الأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو ، أو قبلت أعضاء فيها بعد انشائها ، هى التى توفد كل سنة وفودها الى الجمعية العمومية ، وهى التى ينتخب مندوبوها كل سنة ، أو كل سنتين ، أو كل ثلاث سنوات ، أعضاء فى مجلس الامن ، أو مجلس الاقتصاد والاجتماع أو مجلس الوصاية ، أو غيرها .

نعم ، ان حكومات هذه الدول ، الأعضاء ، هى التى تملك أن توافق أو لا توافق ، عن طريق ممثليها على القرارات التى تطرح للاقتراع ، وهى التى تكفل تنفيذ تلك القرارات متى تم الاتفاق

عليها بالأكثرية المطلوبة أو تتهاون فى تنفيذها .

نعم ، ان مبدأ الاجماع بين الدول الكبيرة الخمس فى مجلس الامن يحدّ من سلطان الدول الأخرى ويخضع طائفة من أعظم المسائل شأنا وأعلقها بحفظ الامن الدولى ، وصون السلام ، لحق الاعتراض أو الفيتو ، الذى هو نتيجة منطقيه لمبدأ الاجماع الذى تقدم ذكره .

كل هذا ، وغيره كثير ، يوحى بأن الأمم المتحدة ميدان لا شأن فيه لشعوب الدول التى انتظمت أعضاء فيها . ولكن ينبغى أن لا ننسى أن الأركان الثلاثة التى قامت عليها الأمم المتحدة ، هى أولا صون السلام ، وهذه المهمة هى فى المقام الأول مهمة مجلس الأمن ، وثانيا انشاء الأحوال التى يتاح فيها السلام أن يستتب ، وللرخاء أن يترعرع ، وهذه المهمة هى فى المقام الأول مهمة مجلس الاقتصاد والاجتماع ، والوكالات المختصة التابعة له ، وثالثا الاعراب عن الضمير العالمى ، وهذا يتم بغير قيد سوى قيد اللائحة الداخلية ، فى الجمعية العمومية ولجانها .

أما مجلس الاقتصاد والاجتماع ، ووكالاته المختصة ، فلا همّ له أو لها ، سوى التمهيد للسلام عن طريق الرخاء . وهذا المعنى هو شعاره وان لم يتخذه شعارا رسميا ، وهو أيضا شعار كل شعب من الشعوب . فليس فى العالم اليوم أمة لا تريد أن تكون أحسن صحة وأفضل عيشا وأوفر تربية وثقافة وضمانا اجتماعيا لجميع أبنائها على السواء . وليس فى العالم اليوم ، أمة تستطيع أن تزعم أنها فى غنى عن سائر العالم ، وكل من يقول أن الاستكفاء الاقتصادى أو الثقافى مستطاع ، يقوله بدافع من العاطفة ، وبمعزل

عن الحقيقـة ويسلك فى قوله طريق الرجعى والعزلة والجمود • حتى الولايات المتحدة ، أو الاتحاد السوفيتى،وكلاهما يملك قدرا وافرا من الموارد الطبيعية والانسانيـة ، لا يتأتى له أن يستكفى لو أراد •

فاذا كان العالم كله موصول الأواصر ، كما يدل كل استطلاع اقتصادى منزه عن الهـوى ، فالنهوض الاقتصادى فى بعضه ، والتخلف عن النمو الاقتصادى فى بعضه الآخر ، يفضى الى اختلال التوازن ، أى أن الرخاء البشرى ، هو كالحرية ، شىء لا يتجزأ • وقد قال لنكلن ، الرئيس الأمريكى العظيم : « ليس فى وسع بلد أن يعيش نصفه حر ، ونصفه عبد » ، وكذلك عالم اليوم •

فمجلس الاقتصاد والاجتماع أقر هذا المبدأ ، وهو اقرار خطير ، ثم اتبع به اقرار مبدأ آخر،وهو أن الأمم المتحدة تحمل على كاهلها تبعة بذل المعـونة للأمم المتخلفـة فى نموها الاقتصادى ، وهو فى سعيه ، الى تحقيق المبدأين ، مبدأ أن الرخاء لا يتجزأ ، ومبدأ تبعة الأمم المتحدة فى اقامة الرخاء ، انمـا يسعى جاهدا لتحقيق الركن الثانى من الأركان الثلاثة التى قامت عليها الأمم المتحدة ، أى توفير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التى يتاح فيها للسلام أن يستتب ، وللرخاء أن يترعرع •

وهذا عمل مبدأه ومعاده خير الشعوب ، والحكومات ليست فيه سوى وسيلة أو أداة • ممن تستمد هيئة الصحة العالمية وحيها ، ولمن تدبر مشروعاتها ، حين تسعى الى قهر الأوبئة ، أو حصر نطاقها ، أو منع انتقالها ؟ أليست صحة الفرد ، وصحة الجماعة ، هى الركن الذى لا غنى عنه فى بناء صرح الرخاء ؟ وممن تستمد هيئة الطعام

والزراعة وحيهـا ، ولمن تدبر مشروعاتهـا ، حين تسعى بالنصح والارشاد ، الى التوسل بأحدث الوسائل التى فتقتها حيلة العلم وأرستها التجربة ، لزيادة معدل الانتاج الزراعى ، ورفع مقدار المتاح من الطعام لكل فرد من الناس ؟ أليست الكفاية من الطعام هى الركن الذى لا غنى عنه فى بناء الكرامة والطمأنينة وتعزيز القـدرة على الانتاج ؟ ممن استوحى مجلس الاقتصاد والاجتماع ، واللجنـة الاجتماعية العامة فى الجمعية العمومية ، حين حرصا على وضع ميثاق حقوق الانسان،الذى وافقت عليه الجمعية العمومية فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر ١٩٤٨ والذى جاء فى صدره أن الاعتراف بالكرامة الأصيلة فى أبناء الأسرة الانسانية جميعا ، وبتساويهم فى حقوق ملازمة لهم ، هو أساس الحرية والعدل والسلم فى العالم ؟ أليس استمتاع كل فرد بهذه الحقوق ، فى حدود القانون ، هو المثل الذى لم تزل الانسانية تصبو اليه منذ فجرها الأول ؟

أما الجمعية العمومية ولجانها ، فقل فيهـا ما تشاء — قل ان الخطب فى المناقشة العامة التى تسبق العمل فى اللجان الرئيسية ، يغلب أن تكون طويلة ، مملة ، فيها كلام معاد ، أو اتهام مثير من هنا أو هناك ، ينافى الحقيقة حينا ، والذوق أحيانا — أو قل ان العمل فى اللجان يُدبَّر أمره فى الأروقة والاجتماعات الخاصة ، وان الضعيف فيها مهمل حتى يقوى بنفسه أو بأصدقائه ، قل ذلك ، فلا تعدو حقيقة الواقع ، ولكن الذى لا يسعك الا أن تعترف به ، هو أن منبر الجمعية العمومية هو أعلى منابر العالم وأجهرها صوتا ، وليس فيها أو فى احدى لجانها من قيد يفرض على الرأى أو القول ، سوى قيد اللائحة الداخلية ، فالضعيف يستطيع على الأقل أن يقول

كلمته وليس فى وسع القوى أن يمنع هذه الكلمة أو أن يطمسها • فكل ما يقال ، ان لم تعن به الصحف ، فان محطة اذاعة الأمم المتحدة ، تذيعه فى أربعة أقطار المعمورة ، وقسم الصحافة فى الأمم المتحدة ، يعنى بطبع نسخ كثيرة من كل بيان يلقى ، اذا طلب اليه الوفد الذى يلقيه أن يفعل • وستظل الجمعية العمومية ولجانها مترنحة بين العدل المجرد والواقع ، بين الضعيف الذى عدله بيّن ، والقوى الذى ينحاز اليه الناس لأنه قوى ، حتى نصير ، « نحن شعوب الأرض » أصح ادراكا ، وأقوى شعورا ، وأوثق آصرة ، ويومئذ لا يسع القوى مهما علا وقوى ، الا أن يصغى الى هذه الهمهمة الهادرة الصادرة من أعماق النفوس البشرية ، ويقيم لها وزنها الصحيح فى ميزانه العالمى •

نعم ان تاريخ الأمم المتحدة ، كما يتمثل فى مجلس الأمن على الأكثر ، وفى الجمعية العمومية ، لا يرضى كل من تطلع منذ اليوم الأول ، الى هيئة لا تنهج الا نهج الحق والعدالة فى اقرار كل مسألة تطرح للبحث أمامها • وقد حضرت طائفة من اجتماعاتها فى سنتين متتاليتين فهالنى ما رأيت وما سمعت ، من كر وفر على صغائر الأمور ، وثرثرة وتجهم ومناورة فى كبارها • وقد عرفت فى شعوبنا العربية ، غير واحد من أهل الرأى يدعو الى الخروج منها ، وهو رأى اذا قارنته بالمثل الأعلى الذى رنونا اليه من خلال غياهب الحرب ، كان له عندى أعظم التقدير ، ولكننى مع ذلك لا أنسى أن انقسام الدول الكبيرة كتلتين متنافستين قد ترك أثره فى أعمال الأمم المتحدة ، وبخاصة ما كان منها منصبا على المسائل التى تمت الى السياسة والامن بصلة وثيقة ، وانه برغم هذا الانقسام لا تزال

وفود الأمم ، تجتمع وتتنافس وتختلف على الأكثر ، وتتفق على الأقل ، ولكنها تجتمع وتتناقش على كل حال ، فأقول ان كان هذا شر ، فهو أهون كثيرا من أن تمتنع عن الاجتماع • ثم لا أنسى أن الشعوب العربية ، وحكوماتها ، لم تجن من عضويتها فى الأمم المتحدة أقصى الجدوى • نعم خذلتنا الجمعية العمومية فى فلسطين ، ولم ينصفنا مجلس الأمن فى مصر ، وكلاهما غير معصوم عن الخطأ ، كما سمعت بنديت نهرو يقول اليوم ، وهو قول فيه رفق ومجاملة • ولكن متى عنيت الدول العربية بتوحيد كلمتها ، وانشاء وفود دائمة لدى الهيئة كما فعلت مصر فيتمرس رجالها بجميع وسائل الهيئة وأساليبها ، ويبذلون سعيهم الدائم فى الأمور التى تهمهم على وجه خاص ، فانها تصير نواة لكتلة يخطب ودها ومدرسة لطائفة من الشباب العربى يتدربون فى أكبر معهد سياسى فى العالم ، حتى اذا عادوا الى أوطانهم كانوا ، فى الداخل أو فى الخارج ، أنفع له وأجدى عليه • وأخيرا لا أنسى أن شئون السياسة والحرب ، التى كثر عليها النزاع ، واشتدت من أجلها خيبة الأمل ، هى فى الواقع بعض عمل الأمم المتحدة ، وأما البعض الآخر ، فهو ذلك العمل المنشىء ، على بعد مجناه ، فى مجلس الاقتصاد والاجتماع ووكالاته المختصة • فأنباء المشكلات الخاصة بالسياسة والحرب والسلم ، هى التى تحتل المقام الأول فى الصحف ، وهى التى توحى بأن الأمم المتحدة — برغم توفيقها بعض التوفيق فى مشكلات سياسية كمشكلة أندونيسيا — سائرة قدما الى حتفها كما فعلت عصبة الأمم من قبلها • وأما التغلب على المرض ، وتحسين أسباب الانتاج الزراعى ، وتوفير خيرة كتب الأدب فى أهم لغات الأمم ، وضمان

حسن الأحوال التى يعمل فيهـا العامل الصناعى ، وما كان على غرارها ، فلا تلقى سوى عناية قليلة من الصحف ان لقيتها •

فنحن شعوب الأرض ، ينبغى لنا أن نحرص ، أولا على فهم عمل الأمم المتحدة ، وضرورتها ، وثانيا على تأييدها دون اغماض العين عن مواطن النقد فيها — حتى تسير الى الهدف الذى نصبو اليه ، فهى وحدها الوسيلة العالمية التى تعبر عما يجول فى نفوسنا من توق الى السلام والطمأنينة ، وشـوق الى حسن الحال التى لا قيام للسلام الحقيقى الا فيها ، فان كانت هذه الوسيلة غير مجدية حتى اليوم ، أفضل الجدوى ، فليس النقص فيها ، بل فينا « نحن شعوب العالم » •

قـوة تحـرك الأرض

فى أساطير القدماء أن رباً جبارا من آلهـة اليونان ، قال : « اعطونى موطئا لقدمى خارج كرة الأرض وعصا متينة ، فأحرك بها الأرض كما أريد » • أفنجد فى حياة الأمم فى هذا العصر المضطرب قوة كالقوة التى زعمها أطلس لنفسه ، تتيح لقادة البشر قدرة على تحريك الانسانية ودفعها فى طريق الخير والرخاء والطمأنينة ؟

تختلف الأجوبة عن هذا السؤال باختلاف المجيب • وقد يقول لك أحدهم : ارفع عنا خطر الشيوعية تنعم الدنيا بما ترجو • وقد يقول لك آخر ، دمر القنابل الذرية ، بل ألغ الطاقة الذرية الغاء حتى يأمن الناس شرها ، تنعم الدنيا بما ترجو • وقد يقول لك ثالث : كيف السبيل الى الطمأنينـة والشعوب يستبد بعضها ببعض ، أزل من وسائل التعامل بين الأمم أساليب الاستعمار البالية ، تنعم

الدنيا بما ترجو • وقد يقول لك رابع : امح الفوارق بين الدول القائمة ، وأقم بنيان دولة عالمية واحدة لها سلطة القانون تنعم الدنيا بما ترجو • والأول هو جواب الأمريكى الذى يخشى الشيوعية أن تتغلغل فى أرجاء الدنيا حتى تأتيه فى عقر داره فتسلبه ثمر ما كدح من أجله وتحكمه بقوة البوليس السرى المستبد • والثانى جواب الروسى السوفيتى الذى يخشى أن تكون القنبلة الذرية أداة تتوسل بها الدول الرأسماليـــة لتقويض الدولة الاشتراكية والقضاء على مبادئها • والثالث هو جواب الاندونيسى وغيره من أبناء آسيا وأفريقية الذين بلوا مساوىء الاستعمار • والرابع هو جواب المفكر الذى يرنو الى المثل الأعلى ويستخرج الحجة التى تقنعه من عبر التاريخ ومنطق العلم الحديث • ولست تجد فى أحد هذه الأجوبة وحسب ، حلا شافيا لهذه المشكلات التى يعانيها الناس ، وانما الحل ينبغى أن يضم طرفا من هذه الحلول جميعا ، أو طبعات منقحة منها ، وأن يضاف اليه الانتفاع بقدرة العلم والصناعة فى العصر الحديث على توفير أسباب العيش الرخى للناس ، بل ربما كان هذا الانتفاع وهذا التوفير هما المقدمة التى تمهد لغيرها ، فان لم تستطع القوى السياسية المتنافرة أن تجتمع على هذا ، فلعل القوى السياسية المتشابهة فى المبدأ والغاية تستطيع ، فتقيم الحجة المقنعة وتضرب مثلا يحتذى •

وقد مضت ثلاث سنوات أو تزيد منذ وضعت الحرب العالمية أوزارها ، قرأنا فى خلالها شيئا كثيرا عن أزمة الطعام فى أوربا ، ولكن الناس قلما يذكرون ، لطول ما ألفوا ، ان البؤس جاثم على نصف البشر أو أكثر من النصف • فالطعام بينهم قليل لا يكاد يقيم الأود ،

والمرض فاش فلا يقدر للوليد ساعة يولد أن يبلغ من العمر ما يتجاوز عشرين ربيعا أو أكثر قليلا ، والمأوى قليل وحقير لا يوائم كرامة الانسان الذى نفخ الله فيه من روحه ، والقدرة على العمل وهنانة واهية فكأن الرجل شبح يلهث . فهذه الفاقة السوداء ، هى التربة الخصبة ، التى تنبت فيها البغضاء ، ويترعرع فيها الاضطراب الاجتماعى ، وتومىء لمن تحدثه النفس بالتدخل أو الاثارة أو التغلغل أو الاعتداء ، أن أقدم ، وربما كانت فى آخر الأمر ، هى الطريق الذى ينحدر عليه البشر الى ذلك اليوم الذى تهب فيه على الشرق والغرب سواء بسواء ، زعازع الطاقة الذرية ، وغيوم الجراثيم فلا تبقى ولا تذر .

فمن الواضح أن الضرورة تقضى بوضع برنامج عالمى ، محكم التدبير والتنسيق ، غرضه — مثلا — أن تلجم قوة الأنهار الكبيرة فى شتى أقطار الأرض ، كما صنعنا بالنيل ، وكما صنعوا فى نهر التنيسى فى أمريكا ، فنبنى السدود ونولد من مائها المتدفق طاقة توفر أسباب صنع الأشياء التى تشتد الحاجة اليها ، ويتحكم المهندسون فى توزيع مياهها حتى اذا أضيفت الأسمدة وأتقن العمل ازدادت الثروة المنتزعة من الأرض وهى الثروة التى تتجدد ولا تنفد ، وتكثر الآلات التى تزود كل رجل بقدر كبير من القوة المنتجة . فيومئذ يزداد الطعام ويرتفع مستوى العيش وتصح الأبدان ويقل عدد الناس الذين تهلكهم الأوبئة والمجاعات ، وتسترد العقول والنفوس التى تسكن الهياكل المتهدمة اليوم ، ما فطرت عليه ، أو ما أراده لها ربها من أن تفطر عليه من ذكاء وهمة وكرامة ، وتتاح الفرصة للعمل المضمون وتربية الأولاد والاطمئنان على

مستقبلهم • ويومئذ نجد أن غير قليل من بواعث الاضطراب فى حياة معظم شعوب الأرض قد زال ، أما البقية فربما تيسر علاجها بعد ذلك ، ففى أحضان الفاقة تتأصل القوى الهدامة التى تمهد للقلق الاجتماعى أو تمهد للحرب •

هـذا الرأى ، هو الخليق اذا تحقق بأن يكون القوة المحركة التى ترفع البشرية من أعماق الهوة التى تردت فيها • وقد رأينا قبساً منه فى خطبة مارشال التى ألقاها فى جامعة هارفرد سنة ١٩٤٧ فصارت مشروع مارشال فى ست عشرة دولة فى أوربا الغربية • ومنذ عشرة أيام وقف الرئيس ترومان يجدد العهد أمام قومه ، وعلى مسمع من العالم بقوله : « ينبغى لنا أن نؤيد بكل قدرتنا مشروع انعاش أوربا ، ونحن على ثقة بنجاح هذه المغامرة العظيمة فى سبيل الانتعاش العالمى » • ولكنه أدرك أيضا أن الرخاء ، كالسلام وكالحرية ، لا يتجزأ تجزئة جغرافية أو تجزئة اجتماعية ، وأن مشروع مارشال قاصر على رقعة محدودة من سطح الأرض ، فأضاف اليه عهدا آخر ، يتلخص فى قوله : « وينبغى لنا أن نقدم على برنامج جديد جرىء غرضه أن تتاح منافع التقدم العلمى والصناعى ، لتحسين أحوال المناطق المتخلفة فى نموها • ان أكثر من نصف سكان الأرض يعيشون فى أحوال أدنى الى الفاقة ، فطعامهم غير واف ، والمرض منتشر بينهم ، وحياتهم الاقتصادية أقرب الى الفطرة وفقرهم يعوقهم عن التقدم ويهدد المناطق التى بلغت شأوا أبعد من الارتقاء ••• والانسانية اليوم تملك لأول مرة فى تاريخها المعرفة والحذق اللذين يكفلان معونة هذه الشعوب • وأنا أعتقد أنه ينبغى لنا أن نتيح للشعوب المسالمة ذخائر معرفتنا الفنية

وما تقدر عليه من مواردنا حتى نعينها على تحقيق ما تصبو اليه من حياة أفضل ، وينبغى لنا أن نسير ، بمعاونة الأمم الأخرى ، على توفير المال اللازم لتحسين الحال فى تلك المناطق » • وقد أشار بيفن فى خطبته الأخيرة فى مجلس النواب الى مثل هـذا ، وعالج دولة رئيس الوزارة المصرية هـذا الموضوع من ناحيته المصرية معالجة تبشر بالخير •

والحقيقة أن الصورة التى رسمتها هى الصورة المثالية للموضوع من الناحية الاقتصادية ، فاذا توافرت النية الطيبة والهمة العالية والرغبة الصادقة فى النفع المتبادل دون الطمع فى الاستغلال ، ففى طاقة العلم والصناعة اليوم أن يحيلا الصورة المثالية ، والأسطورة القديمة حقيقة فى منال اليدين •

مشروع جديد جرىء

بين المبادىء التى لا يختلف فيها اثنان ، أن بناء السلام العالمى ، هو فى المقام الأول ، عمل انشائى ، أو هو جهاد فى سبيل الانشاء ، ينبغى أن يتصل يوما بعد يوم ، وسنة بعد أخرى ، ولن تنتهى فى هذا الجهاد معركة حتى تشب معركة أخرى • فمكافحة الملاريا التى تسل العافية من أبدان ملايين من الناس ، معركة حقيقية ، كأعظم معارك الحروب التى طالعت أخبارها وهى لن تنتهى حتى يسيطر العلم على البعوض الناقل لطفيليات الداء ، وحتى يتعلم الناس كيف يتقونه ، وكيف يعالجونه • ومثل الملاريا عشرات من الأمراض التى تنهك الأبدان أو تهلكها ، والجهاد فى سبيل لجم الأنهار المتدفقة للانتفاع بمياهها فى زيادة الانتاج الزراعى ، وتوليد

الطاقة المحركة ، معركة أيضا لا يقل ما تحتاج اليـه من المجهود والنظام والبذل والعمل الدائب ، عما يحتاج اليه التأهب لأى قتال . والغرض اللامع الذى يومىء الى أهل العمـل والخير والفـكر الصائب ويغريهم بالأقدام ، هو تحرير أبدان الناس من العلل ، ومن الجوع ، وتحرير عقولهم من عبودية الضعف والتردد ، ففى أحضان الفاقة والسقم ، تتأصل القوى الهدامة التى تمهد للقلق الاجتماعى ، فتمهد للحرب . والرخاء كالسلام والحرية ، لا يتجزأ تجزئة جغرافية ، أو تجزئة اجتماعية ، فلن تتجاور أمتان احداهما تنعم بالرخاء والأخرى ترتع فى البؤس ، دون أن تتأثر احداهما بالأخرى ، ولن تجد فى أمة واحدة طبقة من الناس تنعم بالرخاء والأخرى ترتع فى البؤس دون أن تضطرب حيـاة تلك الأمـة وتسودها النقمة والسخط ، وتصـير عرضة لكل خطـر سياسى واجتماعى .

وان تعجب ، فاعجب لأمم هـذا العصر ، وطبقاتهـا ، التى جعلهـا العلم قادرة على أن تزيل طائفة من هـذه العلل القديمة ، بما أتاحه العلم من أسباب لزيادة الثروة ، وتوزيعها ، وكفاح السقم ، وجعل الصحة والعافية حقا فى متناول جميع الناس ، ولكنها لم تكد تهم بما تستطيع ، ولم تكد تنتفع فى معركة السلام هـذه ، بنفس القدرة وحسن التنظيم اللذين تنتفع بهما فى الحرب ساعة ينفخون فى بوقهـا .

ولذلك شاع الرضى فى دوائر كثيرة ، يوم أعلن الرئيس الأمريكى فى خطبة الرياسة منذ ستة أشهر أو نحوها ، مشروعا عالميا خطيرا وصفه فى قوله : « ينبغى لنا أن نقدم على برنامج جديد جرىء »

غرضه أن تتاح منافع التقدم العلمى والصناعى لتحسين أحوال المناطق التى لم تزل متخلفة فى نموها الاقتصادى • ان نصف سكان الأرض أو أكثر من النصف ، يعيشون فى أحوال أدنى الى الفاقة ، فطعامهم غير واف، والمرض منتشر بينهم ، وحياتهم الاقتصادية أقرب الى الفطرة ، وفقرهم يعوقهم عن التقدم ، ويهدد المناطق التى بلغت شأوا من الارتقاء ••• والانسانية اليوم ، تملك لأول مرة فى تاريخها أسباب المعرفة والحذق اللذين يكفلان هذه المعرفة ، على أوفى وجه وأجداه •

وقد قوبل هذا القول فى أول الأمر بشىء من الحيرة فى أمريكا ، لأن الناس هناك ظنوا أن هذا طريق آخر لانفاق مال جزيل يجمع من دافعى الضرائب فى أمريكا ، كما قوبل بكثير من الحماسة فى أقطار كثيرة لا يكتنفها الستار الحديدى ، لأن الناس ظنوا أن هذا مشروع آخر على غرار مشروع مارشال ، ولكنه أوسع نطاقا ، ولن تلبث هذه الأقطار أن تنال من أمريكا مبالغ كبيرة من المال ، ومقادير وافرة من الغذاء ومعدات الزراعة والصناعة ، بغير مقابل ، أو بمقابل لا يكاد يذكر •

ولكن الفريقين لم يلبثا ، حتى أدركا بعض الحقيقة من وراء المشروع ، وخلصا الى رأى متزن فيه ، وفى نفعه وهدفه البعيد ، فأمريكا على غناها يعجزها أن تواصل جميع الأمم التى فى حاجة ، برفد من مال ومواد ، ولكن أمريكا والدول التى تجاريها فى هذا الجهاد ، تستطيع أن تعين أمما كثيرة معونة فنية وصناعية على تنمية مواردها وزيادة انتاجها ورفع مستوى العيش بين أبنائها • والمال اللازم لهذه المعونة،يجىء بعضه من الهيئات الدولية المختصة فى

الأمم المتحدة ، ومن الشركات الخاصة ، ويجيء بعضه من الأمم التى تنظم لها وفيها هذه المشروعات ، ويعود عليها خيرها الأول .

والفلسفة المجدية التى تقوم من وراء المشروع ، تنهض على أساسين : أما الأول فهو أن أسباب العلم الحديث وأساليب الصناعة والزراعة، وضروب الحذق فى الانشاء والادارة، كفيلة اذا هى اجتمعت الى المال الكافى المثمر فى المشروعات النافعة البعيدة المدى ، بتنمية الموارد الطبيعية الوافرة فى مناطق شتى على سطح الأرض ، وبرفع مستوى العيش بين أهلها . وأما الثانى فهو أن هذا النمو الاقتصادى والاجتماعى ، كفيل بأن يزيل طائفة كبيرة من أسباب الفاقة والبؤس والبرم التى تمهد لتقبل الدعوة الشيوعية التى تزين للناس آمال الوفر والغنى وبسطة العيش .

وليست الفكرة البسيطة التى قام عليها هذا المشروع ، بالفكرة الجديدة . ففى كل بلد من بلاد العالم ، الذى يعنى بتنمية موارده الطبيعية ، من زراعية وصناعية ، تجد عددا غير يسير من الخبراء الأجانب فى الهندسة أو الصناعة أو الزراعة أو الصحة العامة ، من أمريكيين أو بريطانيين أو بلجيكيين أو سويسريين أو غيرهم . يبذلون للحكومات والشركات المحلية ، ثمار تجربتهم وحذقهم ، وتجد أيضا قدرا كبيرا من معدات الزراعة والصناعة التى أنتجتها مصانع أمريكا أو بريطانيا أو بلجيكا أو غيرها ، ينتفع بها فى ترقية الزراعة والصناعة أو مكافحة المرض ، وتجد علاوة على هذا وذلك ، شركات الهندسة والبناء الكبيرة ، فى أمريكا أو بريطانيا أو بلجيكا أو غيرها ، تتولى بالتعاقد مع الحكومات أو الشركات المحلية ، انشاء السدود والمصانع أو المطارات والمرافىء أو غيرها .

أضرب لكم مثلا على ذلك بأحد حفدة روكفلر المشهور . فقد اتجه الى بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية ، فدرس العوائق التى تحول دون تقدم الزراعة والصناعة فيها مستعينا بأكفاء الخبراء ، وعمد الى تذليلها ، فهيأ للزراعة آلات للزراعة وصوامع لتخزين الحبوب ، وحقناً مضادة للكوليرا تحقن بها الأنعام . وقد فعل ذلك على أنه عمل لابد أن يدر عليه ربحا فى آخر الأمر ، متى ثبت لأهل الزراعة أنه يزيد انتاجهم ودخلهم أيضا . وقد تبين أن سبب سوء التغذية عند معظم أهل فنزويلا يعود الى غلاء السمك . والسمك الذى يصاد كثير ، ولكنه غال فى السوق ، لسوء ما هناك من وسائل لنقله وحفظه دون أن يفسد ، فزود المشتغلين بصيد السمك وتجارته ، بصناديق ، ومركبات سكة الحديد مجهزة بوسائل التبريد ، فصار فى الوسع بيع السمك الجديد الجيد بأقل مما يباع السمك الفاسد ، فازداد الاقبال عليه ، فصار يجنى ربحا ، وحسنت تغذية الناس هناك .

بين مشروع مارشال ومشروع ترومان الجديد الجرىء ، فرق فى المبدأ . فالأول ينطبق على بلاد بلغت من الارتقاء الاقتصادى مبلغا عظيما ، ولكن يد الحرب القاسية هوت عليها ، فدمرت ما دمرت ، وقطعت من أوصال اقتصادها ما قطعت ، فالغرض من مشروع مارشال هو بذل العون لها حتى تنهض من عثرتها ، وينتعش اقتصادها بما فيه من زراعة وصناعة ومواصلات . وأما الثانى ، فغرضه تنمية الموارد الطبيعية فى المناطق التى لم تزل فيها تلك الموارد غير نامية . فهو اذن ليس مشروعا لارسال المأكل والمأوى لهذه الشعوب ، ولكنه مشروع غرضه أن يبذل لهذه الشعوب الحذق الفنى والمال اللازم ، لتنمية هذه الموارد حتى تستتب لها أسباب الصحة

الاقتصادية والاجتماعية ويطرد سيرها فى طريق الرخاء •

المغزى الأول المستخرج من قول الرئيس ترومان فى خطبته هو أن مصير أغنى وأقوى أمة على الأرض لا يمكن أن ينفصل عن مصير أضعف الأمم وأفقرها •

والقاعدتان اللتان يقوم عليهما كل عمل من هذا القبيل ، هما أن يكون العمل منتجا حتى يؤدى الغرض الذى أنشىء من أجله ، وأن يسفر عن ربح معقول حتى يجتذب اليه المال الخاص اللازم للسير فيه • أى أن المال الذى يثمر فى هذه المشروعات لا ينبغى أن ينفق فى انشاء المبانى الفخمة والملاعب الفاخرة ، كما أنفقت مال القروض الخصوصية بين الحربين العالميتين فى أوربا ، فهذا الانشاء ليس منتجا ، بل ينبغى أن ينفق فى المنشآت التى تفضى الى تنمية الموارد الطبيعية ، فتفضى تنميتها الى زيادة العمل بين أبناء البلاد ، والى زيادة دخل الحكومة ، والى تدريب أبناء البلاد على ضروب جديدة من الحذق الفنى المنتج •

وأريك جونستون يقترح أن يشترك المال الأجنبى الخاص مع مال أبناء البلاد التى توضع المشروعات لتنمية مواردها،وأن يكون المال الأجنبى هو الأقلية ، ومال أبناء البلاد هو الأكثرية فى أية شركة تنشأ لهذا الغرض • ومن الخير فى رأيى ، أن يجتمع أهل الرأى فى الاقتصاد الزراعى والاقتصاد الصناعى ، وخبراء الصحة والاجتماع على دراسة الموضوعات الخاصة برقعة الشرق العربى ، ويضعوا مشروعا ممحصا لنوع المعونة التى يحتاجون اليها لتنمية مواردهم، وذكر النصيب الذى تستطيع بلاد هذه الرقعة أن تساهم به فى تنفيذ المشروع والسير به الى تمامه •

هل تجد وراء هذا المشروع خطة مفصلة محكمة لتنفيذه ؟

كلا حتى الآن ، لم يكن وراءه يوم أعلن خطة كهذه الخطة • فالأمم المتحدة مهما تتشدد فى نقدها وذكر ضعفها وتحكمها ، لم تنشأ دفعة واحدة بميثاقها المفصل • ومشروع مارشال لم يكن خطة محكمة يوم أعلن مارشال مبدأه فى خطبة جامعة هارفرد • وكذلك قول ترومان فى هذا الصدد ، لا يعد سوى اعراب عن نية وتحديد لهدف، ولكن العناية بالأسلوب والوسائل التى تكفل تنفيذه ، هى عناية صادقة لا ريب فيها • وقد انتقل بحث هذا المشروع الى مجلس الاقتصاد والاجتماع فى هيئة الأمم المتحدة ، وألقيت فيه خطب كثيرة، وطرحت أسئلة ، ودارت مناقشات ، وقد أرسل الى صديقى الكبير الدكتور شارل مالك ، وزير لبنان المفوض فى وشنطن ، ومندوبه فى هيئة الأمم المتحدة ، والرئيس السابق لمجلس الاقتصاد والاجتماع ، وثائق الجلسات التى دارت فيها هذه المناقشات ، وكتب بخط يده على الورقة الأولى : « هذا اتجاه قد يخرج منه خير كثير » •

معنى النقطه الرابعة

أطلقوا عليها وصف « النقطة الرابعة » أو « الفقرة الرابعة » لأنها جاءت فى المقام الرابع بين المبادىء الأربعة التى ذكرها ترومان فى خطبة رياسته ، وقال انها مبادىء السياسة الخارجية التى تنوى حكومته أن تسعى الى تحقيقها • ووصفوها أيضا بقوله : نريد « خطة جريئة جديدة » لمساعدة المناطق التى لم تزل متخلفة فى نموها الاقتصادى •

كانت الخطة أو النقطة يومئذ تعبيرا عن أمل يحرك النفوس ،

وقد أذيعت من أعلى منبر فى أمريكا — منبر تنصيب الرئيس — قبل أن يفحصها الخبراء فحصا دقيقا ويستشفوا جميع المعانى التى تتضمنها ، أو يتبينوا ما يقتضيه تنفيذها من وسائل .

ولعل ترومان أراد يومئذ أن يظفر برضى الناس فى مناطق واسعة من سطح الأرض ، لتنحاز الى صفه فى كفاح الشيوعية والمذاهب الاجتماعية الهدامة ، ومن يراجع خطبة رياسته يجد فيها فقرات كثيرة توحى بذلك .

وقد عاد الى المعنى نفسه منذ أسابيع قليلة ، يوم أرسل رسالته الى الكونجرس ، يطلب فيها ارصاد مبلغ من المال للمرحلة الأولى فى تنفيذ هذه الخطة . ثم انه أدرك أن معظم هذه المنــاطق عانت استعمار دول هى حليفة له فى كفاح الشيوعية . فقال ما يفيد أن أمريكا لم تخرج من عزلتها لتساعد على دوام سياسة الاستعمار ، وصرح : « ليس للنزعة الاستعمارية القديمة — الاستغلال من أجل الربح — مكان ما فى خطتنا » .

وقد يختلف الرأى فى قيمة هذه الأقوال من حيث هى سلاح سياسى فى كفاح الشيوعية . بيد أن قيمة المبدأ من حيث هو ركن خطة اقتصادية نافعة ، قد ازدادت على الدرس والفحص فى الأشهر الأخيرة ، اذ تبين فيه أهل الرأى منجاة من العلل المتأصلة فى الاقتصاد العــالمى .

وليس المبدأ الذى تقوم عليه الخطة بالشىء الجديد ، ولكن علماء الاقتصاد استوضحوه وأيدوه بالأرقام فى العهد الأخير .

درسوا ثلاثا وخمسين أمة تضم ٨٥ فى المائة من سكان الأرض ، فجعلوها ثلاث درجات فى سلم النمو الاقتصادى فالأولى هى التى

بلغت درجة عالية من النمو ، والثانية درجة متوسطة ، والثالثة لم تزل متخلفة فى نموها هذا .

وقد نظروا فى حالة هذه الطوائف الثلاث من ناحية الاقتصاد الأمريكى ، فوجدوا أن الولايات المتحدة قد أصدرت كل سنة فى الفترة بين ١٩٣٦ — ١٩٤٠ ، ما قيمته ٥٫٨٠ دولار لكل فرد فى الطائفة الأولى ، وما قيمته ١٫٢٥ لكل فرد من الطائفة الثانية ، و ٠٫٧٠ لكل فرد من الطائفة الثالثة . ووجدوا أيضا أن معدل دخل الفرد فى السنة فى الطائفة الأولى يبلغ ٣٨٩ دولارا ، وأما الطائفة الثانية فالمعدل يبلغ ١٥٤ دولارا ، وفى الثالثة لا يزيد على ٤١ دولارا . وبحثوا حالة الصحة والتعليم ومعدل العمر فى الطوائف الثلاث ، فوجدوا أن هناك صلة مطردة بين الدخل من ناحية ومستوى الصحة والتعليم ومعدل العمر من ناحية أخرى .

واذن فالسعى الى تحسين الصحة وزيادة معدل العمر ونشر التعليم ، يفضى الى تحسين حال هذه البلاد نفسها ، وزيادة قدرتها على تنمية مواردها ، ورفع مستوى المعيشة بين أهلها ، كما يفضى الى زيادة قدرتها على زيادة ما تنتج واصداره ، وزيادة ما تستورد ، فهذا عمل يوسع أفق الاقتصاد العالمى ، فيجدى على البلد الذى تنمى موارده وعلى البلاد الأخرى التى تبحث عن موارد تشترى منها واسواق تصدر اليها . فاذا ازداد مقدار الاقتصاد العالمى ، ازداد نصيب كل منتج منه . وهذا هو العلاج الناجع الطويل المدى لمشكلة الاقتصاد العالمى .

فلذلك جعل ترومان مدار «النقطة الرابعة» ، الدعوة الى « خطة

جديدة جريئة » لبذل العون للمناطق المتخلفة فى نموها الاقتصادى • فلم تكد تنقل أنباؤها حتى ظن كثيرون من رجال السياسة والاقتصاد ، وأخطأوا الظن ، انها تطوى وراءها تدفق مئات الملايين من الدولارات لتنمية هذه الموارد على غرار مشروع مارشال ، فلما عرضت المسألة على مجلس الاقتصاد والاجتماع منذ أشهر ، وحصر البحث فى حدود « المساعدة الفنية » قال مندوب الهند ساخرا : « ليست جديدة ، ولا جريئة ، ولا هى خطة » •

ولكن البحث أسفر عن توضيح الغرض والوسيلة • أما الغرض فليس رفدا يبذل ، ولكنه كالشرارة التى تشعل النار • ففى كثير من هذه المناطق التى وصفت بعبارة «المتخلفة فى نموها الاقتصادى» موارد عظيمة طبيعية وبشرية كامنة ، فهى تحتاج الى معونة فنية لتنميتها والانتفاع بها أوفى انتفاع وتقتضى مجهودا كبيرا تبذله حكوماتها وشعوبها ، وأموالا ضخمة تثمر فى المشروعات التى يعدها الفنيون حتى تؤتى خيرها • وأما الوسائل فثلاث : مبالغ تخصصها الولايات المتحدة كل سنة فتنفقها وحدها أو بالاشتراك مع الأمم المتحدة ، على الخبراء الفنيين الذين تطلب معونتهم فى هذه المناطق ، فيتولون مع خبراء البلد نفسه استطلاع الموارد ، ودراسة المشروعات ، ثم يعاونون اذا طلب منهم ذلك ، فى حسن تنفيذها • وقد طلب ترومان من الكونجرس أن يرصد للمعونة الفنية ٤٥ مليون دولار فى السنة الأولى ، وهو مبلغ ضئيل ، اذا قيس بمئات الملايين التى تطلع اليها بعضهم ، وقد وصفه أحدهم فى نيويورك تايمز بقوله : « تمخض الجبل فولد فأرا » •

وأما الوسيلة الثانية فهى المال الذى ترصده الأمم المتحدة

لهيئاتها الخاصة ، كهيئة الطعام والزراعة ، وهيئة الصحة العالمية وغيرهما • وقد وضع تقرير منذ عهد قريب فأوصى بتخصيص ٨٥ مليون دولار تنفق فى بحر سنتين ، فتتيح لهذه الهيئات الفنية أن تعاون الحكومات المحلية فى كفاح الأمراض وزيادة الانتاج الزراعى وهكذا •

ولكن ذلك كله لا يغنى عن الاستعانة بمبالغ كبيرة من المال ، ومقادير كبيرة من المعدات الزراعية والصناعية ، لتنفيذ المشروعات العمرانية ، فالاعتماد فى هذا الباب يكون على الهيئات الدولية مثل بنك التعمير ، والشركات الخاصة القادرة ، ثم على الحكومات والجماعات المالية المحلية •

بيد أن الأموال الخاصة — أى أموال الشركات — لا يغريها أن تقدم الا اذا ضمن لأصحابها سلامة مالهم وتحويل ربحهم المعقول الى نقد بلادهم ، ومن أجل ذلك يقترح ترومان أن يفاوض فى عقد معاهدات لهذا الغرض وأن يوصى بنك الاصدار والاستيراد بضمان المال الخاص الذى يثمر فى مشروعات سليمة لقاءجعل صغير.

فاذا أحسن تطبيق هذه الخطة ومضت قدما دون تلهف على الثمر العاجل ، فانها تجدى على الزمن فى رأى كثيرين ، فى علاج المشكلة الاقتصادية العالمية من أصولها ، بتوسيع آفاق الاقتصاد العالمى ، انتاجا وتبادلا ، وبزيادة قدرة الملايين على الانتاج والشراء فى المناطق التى تعد اليوم متخلفة فى نموها الاقتصادى •

كان مشروع مارشال علاجا لحالة طارئة ، ولكن خطة النقطة الرابعة تنظر الى ما وراء الطارىء ، عسى أن تقيم ركنا اقتصاديا سليما لعالم ينعم بالحرية والرخاء •

المساعدات الفنية

فى العصور المتلاحقة منذ فجر التاريخ ، كان الأئمة من رجال الفكر ، يخرجون فى الحين بعد الحين بآراء جديدة ، أو مذاهب جديدة ، فى الأخلاق ، أو فى العلم ، أو فى الاجتماع ، فلا يلبث بعضها حتى يصير كالمصباح يكشف الطريق فيهتدى به الناس ولكن سير الفكرة الجديدة من دماغ صاحبها ، الى أن تصبح منبثة متغلغلة فى طوايا الاجتماع البشرى ، تؤثر فى حياة الناس يوما بعد يوم ، لم يكن فى عهد ما ، منذ فجر التاريخ سيرا هينا ، فهى كثيرا ما تلقى المعارضة والمقاومة وكثيرا ما يُمنى صاحبها ، وأنصارها من بعده ، بالاضطهاد ، وقد تثار الحروب من أجلها ، الحروب التى يتقاتل فيها البشر ، والحروب التى عدتها البيان والدليل • وهذا الوصف ينطبق أكثر ما ينطبق على رسل الدين ، ومصلحى الاجتماع وأئمة العلماء •

ويقابل هذا التيار ، فى النهوض بالاجتماع البشرى ، تيار آخر ، يرتد الى ابتكار الوسائل التى تغير بطبيعتها ، وبمجرد الاقبال عليها من البيئة الاقتصادية والاجتماعية ، التى تعيش فيها جماعات البشر • فكشف النار واختراع العجلة فى فجر التاريخ صنعا ذلك ، واختراع محرك الاحتراق الداخلى ، واتاحة الوقود السائل المستخرج من النفط ، صنعا ذلك أيضا فى عصرنا هذا • فقد برحت القاهرة فى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت ، وحطت بى الطائرة فى مطار نيويورك فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد • ولولا محرك الاحتراق الداخلى ، ووقود الطيران المصفى لكان اجتياز

خمسة آلاف أو ستة آلاف من الأميال بهذه السرعة ، ضربا من ضروب الخيال • وهأنذا الساعة واقف أمام مذياع — وهو وسيلة جديدة — أحدث العالم العربى ، من دار الأمم المتحدة هنا فى ليك سكسيس فلا أكاد أنبس بكلمة حتى تقع فى مسمع من يتفضل من اخوانى فى العالم العربى ، بالاستماع الى :

جميع هذه الخواطر ، وكثير على غرارها ، جالت فى ذهنى ، حين خرجت من اجتماع اللجنة الاقتصادية العامة فى ليك سكسيس، منذ أيام ، على أثر اتخاذها ، قرارا عسى أن يثبت الزمن انه من أخطر القرارات التى اتخذت فى هذه الدار وأجداها على الناس •

وهذه اللجنة لم تزل ، منذ افتتحت هذه الدورة ، تتناقش فى موضوع النهوض الاقتصادى فى الأمم التى لم تزل متخلفة فى نموها الاقتصادى • والقرار الذى اتخذته ، يقضى بعقد مؤتمر تدعى اليه جميع حكومات الدول المتمتعة بعضوية الأمم المتحدة ، أو احدى هيئاتها الخاصة لتنظيم برنامج المعونة الفنية التى ينبغى أن تسدى الى الأمم التى تحتاج اليها • وقد اتخذ هذا القرار بالاجماع ، ولعل لجنة عامة من لجان الجمعية العمومية ، لم تتخذ من قبل قرارا فى موضوع خطير الشأن كهذا الموضوع ، بالاجماع • فقد أيدته جميع الدول على اختلاف نزعاتها السياسية ونظمها الاقتصادية ولم تشذ عن الموافقة عليه دول الكتلة السوفيتية نفسها ، التى دأبت على معارضته متهمة الدول التى اقترحته ، وسارت فى طليعة الدعوة اليه ، بأنها انما تفعل ما تفعل ، لكى تقبض بأيديها على اقتصاد هذه الأمم المتخلفة فى نموها الاقتصادى ، وتنشر فيه استعمارها • وفى هذا الاجماع شىء غير قليل من الرجاء •

ويلوح لى أن فكرة بذل المعونة الفنية ، للأمم المتخلفة فى نموها الاقتصادى ، والتمهيد بذلك الى نهوضها الاقتصادى ورفع مستوى الحياة فيها ؛ هى فكرة تجمع فى حدود تعريفها البسيط ، بين التيارين ، اللذين يدفعان العمران البشرى ، دفعا الى أمام ، وهما التياران اللذان أشرت اليهما فى مستهل الحديث .

أما فكرة التكافل الاقتصادى العمرانى على هذا النطاق الواسع بين الدول التى بلغت شأوا بعيدا من التقدم الاقتصادى ، وبين الأمم التى لم تزل متخلفة فى نهوضها الاقتصادى ، فتكاد تكون جديدة فى الاجتماع البشرى ، وان كان التكافل بين الناس من أصول الرسالات الدينية العلوية التى تهدى الناس الى الخير .

وأما فكرة اصلاح البيئة الاقتصادية ، فقد صارت بعضا من عقيدة راسخة فى أذهان المصلحين فى هذا العصر ، ومبدأها أن العالم لا يستطيع أن يعيش فى سلام ورخاء ، ما دام بعضه راسفا فى قيود القلة والفاقة والمرض . ولذلك حرص ميثاق الأمم المتحدة ، فى مستهله ، على التنويه بأن تعزيز الأحوال التى تتيح التقدم الاقتصادى والاجتماعى ، من أهدافه الأولى ، كما حرص على انشاء مجلس الاقتصاد والاجتماع ، وجميع الوكالات المختصة التابعة له ، لتبذل كل سعى فى طوقها ، لتحقيق هذا الهدف . ولعل أحدا لا ينسى عمل وكالتين من هذه الوكالات ، وكالة الصحة العالمية ، ووكالة الطعام والزراعة ، فعملهما حتى اليوم برغم جدة العهد بهما ، وقلة المال المتاح لهما ، هو مثال باهر على هذا الاتجاه العالمى الجديد ، الذى يرجى له أن يجدى أحسن الجدوى ، اذا مضى فى سبيله .

وقد اشتهرت فكرة المعونة الفنية ، التى يراد بذلها ، للأمم المتخلفة فى نموها الاقتصادى ، بعد أن حرص الرئيس ترومان على أن يخصها بالذكر ، ويدعو اليها فى خطبة رياسته التى ألقاها فى اليوم العشرين من شهر يناير ١٩٤٩ ، ولسنا نريد أن نغض من فضل ترومان فى هذا الباب ، اذ أفرغ الرغبة العامة فى مقترح واضح المعالم ولكن الفضل الأول فى ذلك يعود الى الأمم المتحدة ، التى جعلت « التعاون الدولى فى حل المشكلات الدولية ، الاقتصادية والثقافية والانسانية» غرضا من أوائل أغراضها • وفى الدورة الأولى التى عقدتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، اتخذت الجمعية قرارا قالت فيه : ان بعض الدول الأعضاء يحتاج الى مشورة الخبراء فى ميادين النهوض الاقتصادى ، والاجتماعى والثقافى ، وان الأمم المتحدة تعترف بتبعتها فى بذل العون لهذه الدول ، وتعترف أيضا بأن هذا النهوض لا غنى عنه للسلام والرخاء فى العالم ، وان الوكالات المختصة التابعة لمجلس الاقتصاد والاجتماع ، هى الأداة المختصة فى هذا الباب ، فهى لذلك تعهد الى مجلس الاقتصاد والاجتماع بدراسة خير الوسائل وأجداها للقيام بهذه التبعة •

فهذا القرار الذى اتخذته الجمعية العمومية فى شهر ديسمبر ١٩٤٦ هو الأصل ، الذى تحدرت منه النقطة الرابعة ، وجميع المباحثات والمناقشات التى دارت فى الأمم المتحدة وغيرها ، وأخذت تكشف اليوم عن خطة عالمية يزداد وضوحها شيئا فشيئا • فالنهوض الاقتصادى والاجتماعى فى الأمم المتخلفة ، هو فى الواقع مهمة الأمم المتحدة فى المقام الأول ، لا برنامج أمة واحدة ، هى الأمة التى تكلم الرئيس ترومان بلسانها •

نعم ان الولايات المتحدة تنوى وفقا لبيان رئيسها ، أن تمضى فى القيام بما تراه تبعة واقعة على كاهلها ، وقد طلب الرئيس ترومان من الكونجرس الأمريكى ، أن يخصص لبرنامج المعونة الفنية فى السنة الأولى ، مبلغ ٤٥ مليون دولار ، يباح بعضها الى النصف فيما أذكر ، للأمم المتحدة لتنفقها مع ما تخصصه الأمم المتحدة لهذا الغرض ، عن طريق وكالاتها الخاصة ، وتنفق الحكومة الأمريكية البعض الآخر فى هذا السبيل لهذا الغرض .

والطريق الذى يحتمل أن تسير عليه الولايات المتحدة لتحقيق هذا الغرض بيّن من المثل التالى : فى وشنطن العاصمة الأمريكية ، معهد اسمه معهد الشئون الخاصة بالأمم الأمريكية ، وهو وكالة تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية ، كما ترى وكالة الصحة العالمية تابعة لمجلس الاقتصاد والاجتماع فى الأمم المتحدة . وهناك أيضا لجنة حكومية مختصة بشئون المعونة الفنية . فالمعهد — ونطاق اختصاصه أمريكا اللاتينية — لم يزل منذ عشر سنوات أو نحوها يرسل خبراء فى الصحة العامة والزراعة والتربية الى دول أمريكا اللاتينية التى تطلب هؤلاء الخبراء ، فيعاونونها على دراسة مشكلاتها الخاصة بالصحة أو الزراعة أو التربية ، ويشيرون عليها بحلول لهذه المشكلات . وأما اللجنة فتبذل من المال المخصص فى ميزانيتها ما يعينها على اختيار الشبان النجباء ، بالاتفاق مع الحكومات أو الهيئات القومية ، فيتاح لهم أن ينفقوا فى الولايات المتحدة سنة أو أكثر أو أقل ، يتدربون فى خلالها على أحدث الأساليب الفنية فى نطاق اختصاصهم .

ومن قبل ذلك أنشأت جماعة من الأمريكيين ، شركات فى دول

أمريكا اللاتينية ، وجعلوا رأس مالها مشاركة بينهم وبين الجماعات المالية المحلية ، وجعلوا يطبقون الوسائل الفنية الحديثة فى الزراعة والنقل وصناعة الألبان وغيرها ، ويدربون أبناء البلاد التى يعملون فيها ، على هذه الأساليب ، ويعلمونهم ضروبا نافعة من الحذق ، فى الوقت الذى يتيحون لهم أبوابا شريفة للرزق ، وقد قطعوا على أنفسهم عهدا بأن يبيعوا نصيبهم فى هذه الشركات فى خلال عشر سنوات للجماعات المحلية التى تريد أن تبتاعه . وعلى غرار هذه الشركة شركات أخرى .

ومنطقة الشرق العربى هى من المناطق التى اجتمع لها لونان من الموارد — الموارد الطبيعية ، والموارد الانسانية ، فتنمية الموارد الطبيعية ، وفقا لخطة موضوعة ، وتنمية الموارد الانسانية بتحسين الصحة ، والنهوض بالزراعة والصناعة ، وتوسيع آفاق التربية ، تكفلان للشرق العربى عودته الى المكانة التى كانت له فى التاريخ ، يوم كانت الحضارة العربية معلمة الدنيا .

والوسائل التى تمهد لتحقيق الغرض كثيرة منوعة ، وقد أبانت المناقشات التى دارت فى الأمم المتحدة فى الأسابيع الأخيرة ، أن هناك اجماعا على ضرورة السير فى هذا الطريق ، طريق الخير العام ، وعسى أن يسفر المؤتمر الذى تقرر عقده عن برنامج واضح المعالم منسق الأجزاء ، وعسى أن لا تتخلف الدول العربية عن الاشتراك فيه والاستفادة منه بما يمهد للعمل النافع .

وقد بين لى أعضاء الوفد المصرى ، الذين توفروا على هذه الناحية من بحوث الأمم المتحدة أن المعونة الفنية ستفرغ فى قوالب شتى — كايفاد الخبراء لاستشارتهم ، أو تمهيد الطريق فى الخارج

أو فى الداخل لتدريب خبراء البلد الذى يطلب المعونة ، أو انشاء مراكز لايضاح أفضل الوسائل الفنية المتبعة فى باب ما ، أو بناء مصانع للتجربة ، تصير بعد الامتحان والاتقان نماذج تحتذى . قالوا : وهذه المعونة فنية ، ولن تسدى الا تلبية لطلب دولة ، ولن تفرغ الا فى القالب الذى تريده تلك الدولة ، ولن تجرّ فى ذيولها عواقب سياسية أو حربية ، ولا غرض لها سوى انشاء اقتصاد متزن الجوانب قوامه ضروب من الصناعة والزراعة تجود فى هذ البلد أو ذاك .

واتماماً للبحث سألت كبيرا فى شركة تصنع المعدّات الزراعية ، ما الفائدة التى تجنونها من اشتراككم مع هيئة مالية محلية ، فى تنمية موارد الزراعة فى بلد ما ، فقال : نحن رجال انتاج ، فكل ما يمهّد لنا فى حدود معقولة من المخاطرة التى لا مفرّ منها فى عالم الأعمال ، أن نزيد ما نبيعه من منتجاتنا ، نقبل عليه . فاذا كانت الأرض التى تشير اليها ، تحتاج الى عشرة ملايين دولار ، لتنمية مواردها ، اشتركنا بما قيمته خمسة ملايين من معداتنا وخبرائنا ، أو أكثر أو أقل، واشتركت الهيئات المحلية بالباقى. فاذا تمت أعمال الاستصلاح وازداد الانتاج ، ارتفعت قيمة الأرض ، فتجنى رؤوس الأموال المحلية التى اشتركت فى هذا العمل فائدتها ، وأما نحن فنقسّط مالنا مع الفائدة المعقولة ، على أقساط بعيدة الآجال — عشر سنوات أو عشرين ، وهذه الأقساط تتيسّر توفيتها بازدياد النشاط الاقتصادى والدخل القومى وارتفاع مستوى العيش .

ولقيت صديقى الدكتور شارل مالك فسألته فى كل هذا

فقال : ان العالم العربى لا يريد أن يقيم فى عزلة عن تيارات الرأى والعمل النافع ، أما أن يظن أن التحسن الاقتصادى والاجتماعى يمكن أن يكون بديلا من الحلول السياسية ، أو أن الحقوق يمكن أن تشرى وتباع ، فشىء مختلف الاختلاف كله •

فليس ثمة غضاضة فى الاقبال على كل مشروع اقتصادى سليم يعين على النهوض بهذه الرقعة ، نهوضا يتكافأ مع مواردها الطبيعية والانسانية ، من ناحية ، ومع مكانتها فى التاريخ وفى العصر الحديث من ناحية أخرى ، ولكن لا غنى مطلقا عن الحرص واليقظة حتى يظلّ « مال قيصر لقيصر » •

أزمة الطعام العالمية

فى كل صباح وكل مساء ، تتيح لنا أنباء الأمم المتحدة ، أن نبرم بها ، وننحى باللائمة عليها ، فالشقاق بين الدول الكبيرة ، يجعل مجلس الأمن عاجزا عن أن يعالج أية مشكلة ، عظمت أو دقت، علاجا حاسما • أما أن يعالجها على أصول من الحق والعدالة ، فأمل قد توارى ، وراء ضباب الخطب الطويلة المملة ، وأساليب سياسة القوة ، التى تمارس فى الجهر أو فى الخفاء • وأكثر برمنا منصبّ على مجلس الأمن فعلى الجمعية العمومية • فهما الهيئتان اللتان تعالجان شئون السياسة ، وشئون السياسة لم تزل توزن منذ كان البشر بميزان المصلحة ، والمصالح متضاربة •

بيد أن الأمم المتحدة أنشأت هيئات فنية خاصة ، وعهدت اليها بمعالجة طائفة من المشكلات ، فى وسع النـاس أن يتحرروا فى علاجها ، من نزعاتهم السياسية المتضاربة ، أو من أكثرها • وفى

طليعة هذه الهيئات هيئة الصحة العالمية ، وهيئة الطعام والزراعة. فالأولى تعنى بصحة الناس ، والثانية تعنى بغذائهم ، وكلاهما ، أى الصحة والغذاء ، يكفل أحدهما الآخر ، ويسند أحدهما الآخر، فى اقامة الصحة الاجتماعية ، وتحرير الناس من خوف المرض وخوف الجوع .

تقرر الهيئة الأولى ، أن الصحة هى « حالة العافية الكاملة ، بدنا وعقلا واجتماعا ، وليست مجرد انتفاء المرض والضعف ، وهى أيضا حق أساسى لجميع البشر بغير تمييز بين جنس وجنس ، أو دين ودين ، أو اعتقاد سياسى ، أو حالة اقتصادية أو اجتماعية » .

وتقرر الهيئة الثانية ، أن توفير المقدار الكافى من الطعام الجيد وبالأسعار التى لا ترهق المنتج ولا المستهلك ، هو مثل لم تزل الانسانية تصبو اليه ، وترجو الهيئة أن تدركه أو تعين على ادراكه بالانتفاع بما أتيح للناس فى هذا العصر من معارف ومعدات .

وكلتا الهيئتين تقرر ، أن صحة جميع الشعوب ، ووفاء التغذية فى جميع الشعوب ، شىء لا غنى عنه فى ادراك الأمن والسلام ، وهو رهن بالتعاون الكامل بين الدول والأفراد .

واذا استثنينا السعى الى منع الحرب ، فلعل أخطر مشكلة تعانيها الأمم اليوم ، هى أزمة الطعام وموارده وما له من أثر فى صحة الناس واستقرار اجتماعهم أو اضطرابه .

يعانى البشر اليوم مشكلتين خطيرتين احداهما سياسية ، يدور عليها البحث فى المؤتمرات العالمية ، وفى جلسات مجلس الأمن والجمعية العمومية ولجانها السياسية ، وتكاد أنباؤها تستأثر بالجانب الأكبر من صفحات الصحف ، وبالقسط الأوفر من أحاديث

الناس فى مجالسهم • ومدار هذه الأزمة ، هو النضال فى سبيل السلطان وأسباب القوة التى تتيح للناس — فى آخر المطاف — أن يفنوا بعضهم بعضا • وأما المشكلة الثانية فهى مشكلة الصلة بين ازدياد سكان الأرض ، والموارد التى يخرجون منها ما يقيم الأود ويسبغ العافية ، وقلما تستغرق أنباؤها أكثر من أسطر قليلة فى الصحف، حينا بعد حين، وقد ينعقد لها مؤتمر ولكن يندر أن يسير ذكره فى الخافقين • ومع ذلك ليس من الغلو فى التقدير ، أن نقول ان الأزمة الثانية ليس أقل شأنا من الأولى ، بل فى الوسع أن نقول، ان مشكلات الأزمة الأولى ، لن يرجى لها حل مرضى ، ان لم تحل مشكلات الأزمة الثانية • فاذا أهملت مشكلات الأزمة الثانية ، لم يكن بدّ من أن تتفاقم مشكلات الأزمة الأولى وتستفحل •

وأساس هذه المشكلة فى نظر فريق من العلماء ، وفى طليعتهم جوليان هكسلى ، أن موارد الأرض لا تكفى سكانها • ولو أردنا، أن نرفع مستوى التغذية لجميع سكان الأرض ، الى معدّل مقبول ، خلال ربع القرن المقبل ، لوجب أن يضاعف مقدار الطعام الذى كان ينتج فى السنة السابقة لنشوب الحرب العالمية الثانية وهذا شىء لا يمكن أن يتم فى سنة أو سنتين ، وفى خلال ذلك يزداد عدد سكان العالم نحو مئتى مليون كل عشر سنوات • أى أن سكان العالم، يزدادون ازديادا يفوق ازدياد موارد الطعام• وفى الوقت الذى يزداد فيه سكان العالم ، نحو عشرين مليونا كل سنة ، ترى الانسان الحديث قد أتقن سلاحين لتدمير الحضارة ، أحدهما الأسلحة الذرية ، والثانى تفتت تربة الأرض وانجرافها • والسلاح الثانى أشد خطرا على الحضارة من الأول • فالحرب ، والتقاتل بالأسلحة

الذرية ، يدمّر البيئة الاجتماعية التى تنبت فيها الحضارة . وأما تفتت التربة وانجرافها وما يلحق ذلك من قلة الأرض المنتجة ، فيدمر البيئة الطبيعية التى تنبت فيها الحياة نفسها .

هذا مجمل رأى هكسلى ومن يجاريه . ولكن رأيه لا يسلم من النقد ، والذين يسددون اليه سهامه ، ليسوا أقلّ منه رسوخا فى علوم الأحياء ، بل هم أعلى منه كعبا فى علوم الزراعة ، وفى طليعتهم السير جون رسل ، رئيس المجمع البريطانى لتقدم العلوم وكبير علماء الزراعة فى بريطانيا .

ورسل لا ينكر حدّة أزمة الطعام التى يعانيها العالم . والنذير الذى طلع به جوليان هكسلى فى العهد الأخير ، طلع بمثله على العالم من قبل ، مالثوس فى سنة ١٧٩٨ ، والسير وليم كروكس فى سنة ١٨٩٨ ، ومن أقوال كروكس ، أن سكان العالم الذين يزداد عددهم ازديادا مطّردا ، سوف يواجهون مجاعة فى سنة ١٩٣٠ ان لم يزد معدل المحاصيل التى تنتجها الأرض المزروعة ازديادا كبيرا . ولكن العهد الذى تلا نذير السير وليم كروكس ، شهد فيما شهد صنع الأسمدة الكيميائية ، بعد أن ابتكرت طريقة لتثبيت نتروجين الهواء ، كما شهد وجوها مختلفة فى تقدم فى أسباب الزراعة ، العلمية والعملية ، وتحسين أصناف النبات وزيادة انتاجها بالتأصيل ، فجاءت سنة ١٩٣٠ ومرت ولم يمن العالم بالمجاعة التى توقعها كروكس ، والعلماء الذين يجارون رسل فى رأيه ، يذهبون الى أن الانتفاع بالمعارف العلمية الحديثة فى الزراعة ، والتعاون الدولى على تطبيقها ، ينبغى أن يزيد موارد الطعام زيادة كافية . وقد طلع على الناس منذ عهد قريب عالم يقول ان الكيمياء كفيلة بتحويل

مادة السلولوس الخشبية الى ضروب من موارد الطعام ، فان صح ما يقول كان فى ذلك وسيلة جديدة لزيادة موارد الطعام ، تضاف الى غيرها • وحجة هذا الرجل أن معدة الانسان لا تستطيع أن تهضم السلولوس ، وأن تحويل السلولوس مع مواد غذائية أخرى ، الى لحم فى الأنعام كالضأن والبقر وغيرها ، ليس عملا مجديا جدوى كافية ، فالعجل لا يحوّل الى لحم سوى ١٢ فى المائة مما يأكل ، ان حسن أكله والى أقل من ذلك ان لم يحسن ، وأن تحويل السلولوس بالكيمياء الى مواد غذائية كالسكر والبروتين وغيرهما أجدى كثيرا • وهذا مستطاع • والرجل يرى أنه اذا انتفعنا بعلوم الكيمياء كان فى وسع الأرض أن تكفل غذاء ١٥ ألف مليون من الناس بدلا من ألفى مليون وربع مليون •

وعلى كل حال فان هيئة الطعام والزراعة التابعة للأمم المتحدة قد أعلنت فى دستورها أن أغراضها تتلخص فى رفع مستوى التغذية ومستوى المعيشة لجميع شعوب الأرض ، والسعى الى زيادة الكفاية فى انتاج الطعام وسائر المحصولات الزراعية وتوزيعها ، وتحسين حال الجماعات الكبيرة التى تسكن الريف ، فتسدى بذلك كله يدا الى انتعاش الاقتصاد العالمى واطراد اتساعه •

وقد ولدت هذه الهيئة من مؤتمر عقد فى أثناء الحرب ، للبحث فى أجدى الوسائل التى تكفل للناس احدى الحريات الأربع — التحرر من العوز • ثم وضع نظامها فى مؤتمر تال ، وكان بين الأمور التى اتفق عليها أعضاؤه أن ثلثى سكان العالم ، ينالون ما هو دون الكفاية من الغذاء ، وأن صحتهم خليقة أن تتحسن ، وعافيتهم أن ترتد ، اذا نالوا قدرا وافيا من الغذاء الملائم ، وأن فلاحى العالم ،

هم ثلثا سكانه ، وأنهم يستطيعون أن ينتجوا الكفاية من مواد الطعام اذا استعانوا بمعارف العلم الحديث وأساليبه ، وأن ازدياد الانتاج وتحسين وسائل التوزيع ، يكفلان عملا لجميع الناس ، فاذا نحن فى رأس تيار اقتصادى اجتماعى زاخر ينتهى الى القضاء على الفاقة والعوز ، وأن تحقيق هذه الأغراض لن يتم الا عن طريق التعاون بين الدول ونشر المعارف والتنظيم الاقليمى ، وهذا هو أسلوب الهيئة فى عملها •

وعلى ذكر المساعى التى تبذلها هيئة الطعام والزراعة لتحقيق هذه الأغراض ، أحب أن أعرض بالذكر لنصيب الشرق الأدنى ، من هذه المساعى ، وما يستطيع أن يسديه لنفسه وسائر العالم فى هذا الميدان النافع •

ان منطقة الشرق الأدنى هى احدى المناطق ذات الشأن العظيم فى العالم اليوم ، لما فيها من موارد زراعية وافرة تستطاع تنميتها ، فاذا طبقت فيها المعارف الفنية والعلمية أفضى ذلك الى منافع دائمة • ففى الوسع زيادة الانتاج الزراعى فيها حتى يصير كافيا لسد الحاجة ، وربما كان هناك فائض للاصدار •

فأولا — فى الوسع زيادة مساحة الأرض التى تصلح للزراعة ، وهذا يتم فى المقام الأول بتوسيع نطاق نظام الرى المتبع • فموارد المياه غزيرة ، والأرض التى تصير صالحة للزراعة بالرى واسعة ، فالمشكلة هى كيف يتم الانتفاع بالأساليب الحديثة فى ضم هذين الموردين — الماء والأرض — ضما يفضى الى النفع العام •

ان ضغط السكان على الأرض فى مصر ، هو أعلى ما يعرف من هذا القبيل فى العالم • والانتفاع أحسن الانتفاع بالأرض الصالحة

للزراعة فيها عن طريق الرى لم يزل معروفا مشهورا منذ زمن • ولكن المساحة الصالحة للزراعة يمكن زيادتها من خمسة ملايين ونصف مليون فدان الى سبعة ملايين فدان • وهذه الزيادة لها خطرها العظيم ، لوفرة انتاج الفدان الواحد فى السنة •

وسوريا قليلة السكان ، لا يزيد عددهم على ثلاثة ملايين ونصف مليون ، والأرض التى تزرع فى السنة لا تزيد على أربعة ملايين فدان ، ولكن فى الوسع زيادتها الى عشرة ملايين فدان ، منها ثلاثة ملايين الى خمسة ملايين فدان تنتفع بنظام للرى ، بدلا من نصف مليون فدان تروى الآن •

أما العراق ففيها قدرة على الانتاج الزراعى تجعلها فى طليعة بلاد العالم من هذه الناحية • فوادى دجلة والفرات ينطوى ثراه على تحد عظيم لعزائم رجال الفن والعلم ، وعلى أمل عريض لعالم لا يزال يحتاج الى زيادة كبيرة فى موارد طعامه • والرأى أن هذا البلد كان فيما مضى يكفى عشرة ملايين من الناس يسكنونه ، وأما سكانه اليوم فأقل من خمسة ملايين ، والمساحة المزروعة أقل من ستة ملايين فدان ، وقد عمل غير تقدير واحد لزيادة الأرض الصالحة للزراعة بالرى فى العراق ، فاذا أقلها أن الستة ملايين فدان أو أقل يمكن أن تصير عشرين مليونا •

وثانيا — يضاف الى زيادة المساحة الصالحة للزراعة ، الانتفاع بالأساليب الحديثة فى الانتاج • وهذا تحد أيضا موجه الى رجال العلم الزراعى الحديث •

ان تحسين البذور المستعملة فى الزراعة وتأصيلها وتحسين أصناف النبات من المسائل التى لم تزل فى الشرق الأدنى عملا

لا يجارى التقدم الحديث على العموم • وقد أحسن تطبيق هذه الأساليب على بعض المحصولات كالقطن ، والموالح ، والبلح ، ولكن المجال فسيح ، ولا سيما فى تطبيق هذه الأساليب على محصولات المواد الغذائية كالقمح والشعير والذرة والخضر والفاكهة وغيرها •

وتحسين الماشية والأنعام هو أيضا ميدان فيه مجال واسع للعمل المجدى • فوزارة الزراعة المصرية لم تزل منذ سنوات تعمل على تحقيق مشروع عظيم نافع غرضه مضاعفة مقدار اللبن الذى يدره الجاموس •

واذا قسنا مقدار اللبن الذى يدره البقر أو الجاموس أو الماعز أو غيرها فى الشرق الأدنى بما يدره أمثالها فى بلاد أخرى وجدناه قليلا • ومقدار اللبن الذى تدره هذه الحيوانات أقل كثيرا مما يحتاج اليه سكان هذه المنطقة فى مجملها •

أما آفات الزراعة والأمراض التى تصيب النبات والحيوان فى الشرق الأدنى فكثيرة ، فصدأ القمح وذباب الفاكهة والجراد والحمى القلاعية والطفيليات وغيرها ، آفات تقتضى أن ينتفع فى كفاحها بعلوم الباثولوجيا والحشرات والبيطرة والكيمياء وغيرها •

وقد زاد استعمال الآلات الزراعية وينبغى للزيادة أن تطرد ، ولكن مجرد زيادتها لا يكفى ، بل ينبغى أن يلاءم بينها وبين الأحوال المحلية التى تستعمل فيها ، حتى تؤتى أعظم نفعها •

وثالثا — تلوح من وراء هذا كله مسألة خطيرة : أينتفع بتحسين أساليب الزراعة وزيادة الانتاج والايراد ، لرفع مستوى العيش بين جماهير الفلاحين ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يقتضى بحثا

وعملا فى ميادين شتى ولكنها مترابطة ، كتنويع المحاصيل ، وغذاء الفلاح ، والاعتمادات الزراعية ، وعلم الاجتماع الريفى والاقتصاد الزراعى ، وتعديل توزيع الأملاك الزراعية .

ورابعا — كان الشرق الأدنى المنبت الأول فى التاريخ لطائفة كبيرة من أهم النباتات التى استأنسها الانسان ثم زرعها واستغلها ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، مثل القمح والشعير والذرة والزيتون والبن وغيرها . وهذا يشير بالاستنتاج الى أن أرض الشرق الأدنى غنية بالمادة الحية التى يتولد منها النبات . والملاحظات العلمية الحديثة تؤيد هذا الفرض ، فهذا الموضوع ينبغى أن يكون ميدانا واسعا للبحث المنظم والاستقصاء الدقيق . والشرق الأوسط لم يزل منذ أقدم العصور ينتفع بالرى فى أودية الأنهر العظيمة : النيل والفرات والدجلة ، وقد أنشئت نظم عجيبة للرى فى العصور القديمة فى الجزيرة العربية ، وليس ثمة ريب فى أن استطلاع هذه النظم القديمة يفضى الى حقائق ينفع تطبيقها فى العصر الحديث أعظم نفع .

فهذا الموضوع ، موضوع تحسين الزراعة فى الشرق الأدنى ، بفروعه المتعددة ، النظرى منها والعملى ، هو ميدان للتعاون بين شعوب الشرق الأدنى وحكوماتها من ناحية ، ثم بينها وبين خبراء العلوم الزراعية الحديثة من ناحية ، سواء أخذناهم بحكم برنامج النقطة الرابعة أو خطة المعاونة الفنية التى وضعتها الأمم المتحدة .

عودة إلى العقل

قال الشاعر العربى : والعقل خير مشير ضمه النادى .

قد يقتتل الناس فى سبيل النفط والفحم ، لأن الصناعة لا تستغنى عن أحدهما الآن ، لتدير الآلات المتحركة فى المصانع ، أو السيارات والطائرات والسفن المتحركة على الأرض أو فى الهواء والماء . وقد يكون توزيع النفط والفحم فى جوف الأرض توزيعا لا تعادل فيه بين الأمم ، ان أخذنا بالحدود الجغرافية القائمة الآن ، ولكن العقل يستطيع أن ينشىء النظام الذى يتاح فيه لكل أمة ما يكفى حاجتها المشروعة . على أن العقل لا يقف عند هذا الحد ، بل هو يسعى ، من طريق الأداة التى اخترعها — أداة العلم — الى بلوغ اليوم الذى تصبح فيه موارد الطاقة المحركة ميسورة للجميع كالهواء فى جو الأرض ، أو كالخضرة على سطحها ، أو كالأشعة التى تملأ رحاب الكون .

فالطاقة المستخرجة من الذرّات أو من ضوء الشمس خليقة أن تكون الأداة المرموقة لقلب أساليب العيش فى المستقبل رأسا على عقب . فاذا تمكن العلماء بعد اطلاق الطاقة الكامنة فى الذرات من الانتفاع بها فى توليد الطاقة المحركة الرخيصة الميسورة ، أو اذا استطاعوا أن ينفذوا الى سر الأوراق الخضر فى التقاط طاقة الشمس وخزنها ، فقد يكون العصر المقبل عصرا تتوافر فيه الطاقة المحركة توافر الهواء الذى تتنفسه أو الماء الذى نروى ظمأنا به .

فالناس يعتمدون الآن على الفحم أو على النفط ومشتقاته ، أو على الطاقة المولدة من الماء المنحدر . والمصدران الأولان من

مصادر الطاقة — أى النفط والفحم — مآلهما الى النفاد ، وان اختلف العلماء فى تقدير مدى الاعتماد عليهما قبل نفادهما . فاذا أتيحت الطاقة الذرية للعمل المجدى ، أو كشف أسلوب للانتفاع بالطاقة التى فى ضوء الشمس ، فالنتائج الصناعية والاقتصادية التى يسفر عنها هذا أو ذاك أو كلاهما تكون فى الطبقة الأولى من عظم الشأن فى الاجتماع البشرى .

والشمس هى فى الأصل مصدر كل طاقة متاحة لنا . فالحرارة والطاقة الكهربية مردّهما جميعا الى الشمس ، سواء أمن الماء المنحدر تولّدت الطاقة ، أم من الفحم المحترق أم من النفط . وكل الطعام يصنع أصلا فى معمل الورق الأخضر ، فهو دون غيره من معامل الطبيعة والانسان يستطيع أن يلتقط طاقة الشمس بأسلوب هين ويستعملها فى بناء المواد الغذائية الأساسية ، ثم يخزنها . ثم يأخذها الانسان والحيوان طعاما . وما فتئت الشعوب تتزاحم بالمناكب وتتقاتل فى سبيل « مكان فى الشمس » على حد قول غليوم الثانى . والمكان فى الشمس قد يعنى الطعام الذى تولده الأوراق الخضر بفعل طاقة الشمس . وبعض أسباب الصراع الدولى على الأقل مدارها فى طاقة الشمس التى حبست فى جزيئات النفط وأطباق الفحم .

ان موضوع طاقة الشمس موضوع واسع النطاق . ويقول العلماء ان سطح الأرض يتلقى كل سنة من طاقة الشمس ، قدرا يعادل الطاقة التى يولدها حرق ستمائة ألف مليون مليون مليون (٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) طن من أجود أصناف الفحم .

والنبات الأخضر هو أعظم أداة وأدق أداة لتحويل طاقة الشمس الى أشياء تنفع الناس • وطريقته فى هذا التحويل يطلق عليها وصف « التركيب الضوئى » • أما سرّها فلم يبح تماما للعلماء حتى الآن • فالنفوذ الى هذا السر فى طليعة مشكلات العلم ، بل فى طليعة مشكلات الحضارة • فعلى السياسة التى تبيح لمعدات الحرب ألوف الملايين من الجنيهات ، أن تبيح للباحثين فى هذا الموضوع ما يكفيهم من المال للبحث ، فاذا وفقوا الى حل المشكلة كان ذلك خطوة كبيرة نحو تحقيق احدى الحريات الأربع التى يريدها الناس أركانا للعالم المرتجى ، وهى التحرر من العوز والفاقة •

وهذه المشكلة تعالج من ناحيتين • أما الأولى فدراسة أسرار النمو فى النبات ، وهذا يتيح للعلماء والزراع متعاونين ، زرع نبات يفوق مئات الأضعاف النبات الذى يزرع الآن فى جميع أنحاء الأرض ، فيحوّل جانب كبير منه الى مصادر تستخرج منها الطاقة بأساليب جديدة •

وأما الثانية فالبحث الكيميائى الأصيل فى التفاعلات التى تمكن العلماء من تقليد الورق الأخضر ، أو مجاراته فى تركيب الكربون (المنتزع من ثانى أكسيد الكربون) والايدروجين (المنتزع من الماء) فى مركبات تشبه المثلين (غاز المستنقعات) أو البنزين ، ثم اضافة الأكسجين الى هذه المركبات للحصول على السكر والخشب والفحم ، ثم اضافة النتروجين للحصول على البروتين • ومن هذه المركبات الأساسية تصنع مركبات أخرى متعددة تعد جزيئاتها مخازن للطاقة •

ومتى حل العلماء مشكلة التركيب الضوئى وأنشأوا طريقتهم

الخاصة لخزن طاقة الشمس المشعة ، فقد تكون هذه الطريقة مماثلة فى أصولها لطريقة الأوراق الخضر ، وقد تكون أجدى منها وأكفأ .

فالناس بوجه عام يعتمدون ، بغير اهتمام بالمستقبل ، على قدرتهم أن يتناولوا الطاقة من الفحم والنفط وما أشبه . ولكن مثلهم فى ذلك كمثل التاجر الذى ينفق رأس ماله أو يبعثره رويدا رويدا . ولذلك يذهب العلماء الى أن البحث فى هذا الموضوع ، ليس بحثا نظريا وحسب ، بل هو بحث نظرى فتان وعملى خطير فى آن . واذا لم ينتبه أقطاب الحكومات والشعوب الى هذا البحث حالا ، ويرصدوا المال الوافى للعلماء ، ليشرعوا فى دراسته دراسة عميقة واسعة ، فقد يواجه البشر المشكلة ، وليس بين أيديهم الأدوات اللازمة أو المعرفة الكافية لحلها . وقد يصاب الناس من جراء ذلك بنقص فى الطاقة المتاحة لهم اذا أهمل هذا البحث .

مهما تكن وجوه التحول السياسى والاجتماعى التى يحتمل أن تطرأ على حياة البشر فلا مفر من اطراد اعتمادهم فى الحرب والسلم على الموارد المعدنية ، أو ما يحل محلها . ومهما تكن قواعد النظام العالمى الذى يكافح فى سبيله ملايين من الرجال والنساء ، فلن يصبح هذا النظام حقيقة واقعة الا اذا كان ملائما لخصائص الطبيعة البشرية ، وأوصاف الموارد المتاحة لهم فى الأرض أو فى طبقات الأرض .

وقد دل البحث الدقيق المحكم فى موارد القارات جميعا على أن فيها موارد وافية من المعادن الأساسية ، أى أن الطبيعة تتيح فرصا متساوية للناس أو تكاد تتساوى ، ولكن الناس اختلف شأنهم حتى الآن فى اغتنام هذه الفرص واستغلالها . الا أن الطبيعة لا تميل

الى انعزال كل قارة عن الأخرى واستكفائها . والقول بأن كل قارة تحوى فى طبقات ثراها موارد معدنية وافية ، ليس صحيحا على اطلاقه ، حتى اذا سلمنا بأن بعض المعادن يصلح للاستعمال محل بعض آخر — كاستعمال النفط المستقطر من الفحم بدلا من النفط الطبيعى فى قارة أوربة — وجدنا شذوذا على القاعدة العامة . ففى معظم المناطق التى ارتقت فيها الصناعة وازدحمت منشآتها ، نجد قلة ظاهرة فى موارد القصدير ، فلا يكاد يكون فى ثرى القارة الأمريكية الشمالية ركاز قصدير ، وفى قارة أوربة موارد قصدير يسيرة ، لا تزوّد تلك القارة بأكثر من خمسة فى المائة مما تستهلكه من هـذا العنصر . وكذلك قل — على تفاوت — فى النيكل والراديوم واليورانيوم وغيرها .

فاستغلال موارد الأرض المعدنية المتاحة استغلالا كاملا يقتضى تنظيم حياة الأمم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، على أساس عالمى ، يضع العقل أركانه على أساس البحث العلمى . ويقول مايذر أستاذ علم طبقات الأرض فى جامعة هارفرد : ان اكتفاء كل قارة وعزلتها أمر لا يقره علم طبقات الأرض . فليست هناك قارة ما تستطيع أن تزوّد الشعوب التى تقطنها بالمقادير الكافية من جميع المعادن اللازمة للحضارة ، وأن تكفى حاجات جميع الناس . فالاستغلال التام لموارد الأرض لا يتم الا اذا ساهمت كل قارة بنصيب فى سبيل الخير العام ، ولا مفر للعالم الجولوجى — على قول مايذر — من القول بأن تنظيم هذا الاستغلال على أساس عالمى أدنى الى تحقيق الخير العام .

على أن العقل العلمى استهل فى العهد الأخير فصلا جـديدا

وكتب فيه آيات تبشر بتخفيف ضغط الحضارة الحديثة على موارد الأرض التى تنفد مهما تكن عظيمة ، وذلك باستحداث موارد كثيرة تحلّ محل المعادن ، ولا تنفد • فموارد الطبيعة طائفتان بوجه عام ، احداهما طائفة المعادن التى تكونت فى جوف الأرض فى أحوال جولوجية خاصة عريقة فى القدم ، وهذه الموارد مصيرها الى القلة والنفاذ • والثانية طائفة المواد التى تتجدد كل سنة ، لأن التراب والماء والهواء وضوء الشمس تتعاون على تجديدها ، فهى لن تنفد الا اذا انصرف الناس عن الزراعة • والعلم الحديث أثبت أننا نستطيع أن نصنع من موارد الطبيعة التى تخرجها تربة الأرض طائفة كبيرة من المواد التى كنا نعتمد فيها على المناجم والآبار • فمئات من اللدائن الكيميائية تحل الآن محل عشرات من الفلزات فى مئات من وجوه الاستعمال •

ولنضرب على ذلك مثلا واحدا ، هو حبة من فول الصويا ، الذى أصبح نفعه فى نظر العلماء لا يقتصر على كونه طعاما مغذيا ، بل صار يُعَدُّ مخزنا لا ينفد ما فيه من العناصر التى تصلح لاستخراج كثير من مواد الصناعة •

أقبلت شعوب الشرق الأقصى ، ولا سيما سكان الصين ومنشوريا ، منذ قرون على زراعة فول الصويا ، فغدت حبوبه موردا لطعام سكان آسيا الغربية فى منزلة موارد الخبز واللحم والدهن جميعا • أما فى أوربة وأمريكا ففضل الناس الحنطة والذرة والشعير ، فى المقام الأول • وفى مستهل القرن التاسع عشر بدأ الأمريكيون فى الولايات المتحدة يزرعون فول الصويا ، ولكنهم لم يصنعوا منه طعاما بل صنعوا منه علفا للمواشى ، أو حرثوه فى الأرض لتسميدها

به • وقد بلغت المساحة المزروعة « فول الصويا » فى الولايات المتحدة الأمريكية بحسب الاحصاء الأخير الذى اطلعت عليه أربعة عشر مليون فدان •

ولكن أصحاب العلم الجديد — على « الكيمرجى » أى استخراج مواد للصناعة من منتجات الحقول — وجهوا النظر الى أن فى حبوب هذا الفول ذخيرة لا تكاد تنفد • ففيها طاقة يزوّد بها من يأكلها ، وفيها مواد كثيرة تصلح لشتى الصناعات • واذا كان الكيمائى الزراعى والصناعى فى هذا العصر ، لا يحيط عمله كالكيمائى القديم ، بألوان السحر وضروب الخفاء ولا يحاول أن يحوّل المعادن السخيفة الى معادن ثمينة ، فانه عندما يستخرج حريرا من خشب الشجر ويصنع أبوابا وصوفا ومطاطا وزيتا يحل محل النفط فى محركات ديزل ، ودهانا يدهن به الخشب والحديد من حبوب فول الصويا ، فذلك عمل يصغر فى جنبه عمل جميع الكيميائيين الأقدمين • وهذا مثل واحد وحسب على ما يستطيعه هذا العلم وغيره من العلوم •

والنتائج التى يسفر عنها بحث الباحثين فى هذا الميدان العلمى الجديد ، فى فترة قصيرة ، لا تبدو سريعة الجدوى ولا تستوقف النظر • ولكن اذا أحصى ما تحقق منها خلال السنوات العشر الأخيرة ، ثبت أنها خطوة عمرانية عظيمة الشأن لا تقوم بمال ، لأنها سبيل جديد الى استعمال الموارد الطبيعية المتجددة سنة بعد سنة ، واحلال منتجاتها محل بعض الموارد التى لا تتجدد اذا نفدت • فتأثيرها فى العمران مزدوج ، فهى تتيح للناس ما لم يكن متاحا لهم من قبل ، وهى تغنى عن معادن آخذة فى النفاد ، فتضعف من

حدّة التنافس بين الدول على حيازتها .

لا يزال هـذا التطور العمرانى فى المستهل ، فاذا قال رجال السياسة والاجتماع ، « الرخاء » و « القضاء على العوز والفاقة » قال رجال العلم « لبيكم ، عبد بين أيديكم » ولو كان مستقبل العالم مرتبطا بموارد الأرض ، وقدرة العلم ، وحسب ، لما كان هنـاك شك ّ فى كونه مستقبلا باهرا ، ولكن هذا المستقبل مرتبط أيضا بتحكيم العقل فى صلات الأمم بعضها ببعض ، وبالخضوع لمنطق المعرفة والحق . « وتعرفون الحق والحق يحرركم » فالعقل مناط الأمل . وهو ، كما قال الشاعر العربى ، « خير مشير ضمه النادى » .

مصير الأمم المتحدة

كان بحث مسائل اليونان ومصر واندونيسيا فى مجلس الأمن ، ومسألة فلسطين فى الجمعية العمومية ، والطاقة الذرية فى لجنتها ، وما تبدى فى بحثها جميعا ، من وجوه الخلاف ، (وهى أغلب) أو الاتفاق بين الأمم ، ولا سيما الكبيرة ، باعثا على التساؤل : ترى ما هو مستقبل هيئة الأمم المتحدة ، وما هى القوى الرئيسية التى تؤثر فى الهيئة الدولية التى أنشئت لتكون أداة لتوطيد سلام العالم والمحافظة عليه ؟ وما هى العقبات التى تحول دون توفيقها فى المهمة العظيمة التى ألقيت على كاهلها ؟ فمسألة مستقبل هيئة الأمم المتحدة هى أخطر مسألة تستبد بنفوس ملايين من الناس فى جميع أقطار الأرض ، بعد ما لمسوا فى سنة كاملة من النقاش العقيم عجزها عن التقدم بحل مجد لمعظم المسائل التى تختلف فيها الدول الكبيرة ، حتى بات الناس يسألون أنفسهم ، أفى وسع

هذه الهيئة أن تستمر بعد أن أحالها العجز عن الاتفاق أداة مثلومة الحد ؟

ونحن اذا نظرنا فى تاريخ الهيئة منذ قيامها فى أواسط سنة ١٩٤٥ تبينا ثلاث قوى كبيرة تؤثر فيها وتوجهها • أما القوة الأولى ، فهى ما لأعضائها الذين يقرب عددهم اليوم من ستين دولة ، من قوة أدبية ، فقد اجتمعت هذه الدول يحدوها الأمل أن تجعل الهيئة قوة لا ترد فى توطيد أركان الأمن والسلام ، وتعزيز المساعى التى تسير بالانسانية قدما فى طريق الارتقاء المادى والأدبى ، وهذه القوة غامضة غير مبلورة ، ولكنها أبدا قائمة من وراء أعمال الهيئة وفروعها المختلفة ، وليس من الحكمة ولا من الحقيقة أن تزدرى وان سخّرت أحيانا للضغط والهوى •

وأما القوة الثانية فهى وجوه الخلاف الأصيلة ، بين آراء الدول الكبيرة ومصالحها من ناحية ، وآراء الدول المتوسطة والصغيرة ومصالحها من ناحية أخرى • فهذه هوة عظيمة بين مبدأ تساوى الأمم الأعضاء فى الهيئة ، وحقيقة عدم المساواة فى الواقع بينها • وأهم مظهر ظهر فيه هذا الفرق ، تنكر الدول المتوسطة والصغيرة لحق الاعتراض فى مجلس الامن ، فهو فى نظرها وسيلة لتحكم الدول الكبيرة ، وقد كانت الجمعية العمومية مجالا أعرب فيه ممثلو الدول الصغيرة على استنكارهم هذا •

وأما القوة الثالثة ، فهى العجز عن الاتفاق بين روسيا من ناحية وجماعة الدول غير السوفيتية من ناحية أخرى ، ولا سيما الولايات المتحدة وبريطانيا ، أو اذا شئت أن تفرغ القول فى أبسط قوالبه ، فقل انها العجز عن الاتفاق فى معظم الأمور بين

روسيا وأمريكا ، وهـذا العجز بين فى معظم مراحل الهيئة منذ نشأتها حتى اليوم ، وقد برز بروزا خطيرا فى جميع المباحثات الخاصة بالقوة الحربية التابعة لمجلس الامن ، وبالهيمنة على الطاقة الذرية ، وتقييد الأسلحة المعروفة ، ثم تراه بينا فى مشكلات ايران واليونان وكوريا والمساومة على ضم دول جـديدة الى الهيئة أو انتخاب أعضاء جدد فى مجلس الامن •

وقد فرغت الدول التى مثلت فى سان فرنسسكو من وضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة فى شهر يونيو من سنة ١٩٤٥ ، وأصبحت هيئة الأمم المتحدة ، هيئة قائمة فى شهر أكتوبر من تلك السنة ، يوم بلغ عدد الدول التى أبرمت الميثاق تسعا وعشرين دولة ، ومن غرائب الاتفاق أن روسـيا السوفيتية كانت الدولة التاسـعة والعشرين ، وعقدت الجمعية العمومية اجتماعها الأول فى لندن فى يناير ١٩٤٦ ، فعنيت هذه الجمعية العمومية بتنظيم العمل فى مجلس الأمن والجمعية العمومية وسائر فروع الهيئة ، ما عدا مجلس الاقتصاد والاجتماع ، ثم انتقلت الهيئة الى نيويورك ، حيث أقيم لها مقر مؤقت ، الى أن يتم تشييد مقرها الدائم فى قلب مدينة نيويورك نفسها •

واذا راجعنا أعمال الهيئة فى جميع فروعها ، منذ نحو سنتين ، تبينا شيئا يبشر بالخير ، وان كنا فى الوقت نفسه نبرم أشد البرم ، بما نسمعه ونقرأه عن الخلاف المتمكن فى مجلس الأمن ، وقصور رجاله عن الارتفاع الى مستوى المنى التى عقدتها الشعوب عليهم ، قبيل النصر فى الحرب وغداته ، ويقلقنا أن يكون النظر فى معظم المسائل التى تعرض عليه ، من ناحية الأغراض والمصالح السياسية

الخاصة ، لا من ناحية الحق والعدل ، على قدر ما يستطيع البشر أن يتبينوا وجـه العدل والحق • ومهمة مجلس الأمن فى منع الحرب أو قمعها ، هى على خطرها احدى المهمتين اللتين ألقيتا على عاتق الأمم المتحدة ، وأما الثانية فهى ازالة الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التى تمهد للحروب ، وتعزيز قوى الاخاء والتبـادل والتفاهم التى تتيح للسلام والرخاء بيئة يترعرعان فيها ، وثانية المهمتين ألقى أمرها الى فروع الهيئة الأخرى المختصة بالاقتصاد والزراعة والطعام والصحة والتربية وما كان على غرارها •

ولم تكد تنظم هيئة الأمم المتحدة وفروعها ، حتى اصطدمت بعقبات خطيرة ، فمن المسائل الجوهرية التى نص عليها الميثاق انشاء قوة حربية تكون متاحة لمجلس الأمن ، وقد عهد الى لجنة أركان الحرب أن تعد ، على « أسرع وجه مستطاع » الاتفاقات التى تجعل هذه القوة متاحة للمجلس ساعة يحتاج اليهـا ، وقد انقضت سنتان ، ولا تزال هذه اللجنة غير متفقة على رأى تستطيع أن تقدمه فى تقرير الى مجلس الأمن ، والاتفاق على هذه القوة شاق ولا ريب ، ومن الأسئلة التى ينبغى للجنة أن تجيب عنها وتفصل فيها أسئلة كهذه : ما طبيعة هذه القوة ، وهل تكون دائمة تابعة لهيئة الأمم المتحدة ، أو تكون مؤلفة من قوى تقدمها ، الدول الأعضاء ، اذا ما دعاها مجلس الأمن الى ذلك ، ومن يتولى قيادة هذه القوة المؤلفة من عناصر تابعة لدول متفرقة لكل منها عزة عسكرية تباهى بها وتحافظ عليها ، ومن الذى يتولى الانفاق على هذه القوة ، وهل تفعل الأمم المتحدة ذلك ، ثم توزع النفقات على أعضاء الهيئة ، وكيف تستعمل الفصائل المنضوية فى القوة

الدولية ، أترسل فصيلة روسية مع فصيلة أمريكية مع فصائل أخرى لقمع حرب فى أمريكا الجنوبية ، أم يلجأون فى ذلك الى ضرب من التخصص الاقليمى، ومن الذى يزود هذه القوة بالسلاح والعتاد ، أيكون لهيئة الأمم نفسها موارد خاصة لتزويدها بما تحتاج اليه ، أم تزود كل أمة كتائبها الخاصة بها ، وكيف ينسق السلاح والعتاد الذى تستعمله فصائل مختلفة منتظمة فى فرقة واحدة ؟

وكأن هذه المصاعب كلها لم تكن كافية ، فطرأت على مجلس الأمن مشكلة الطاقة الذرية الشائكة ، التى ذاع أمرها بعد توقيع الميثاق فأنشئت لها لجنة خاصة مؤلفة من أعضاء مجلس الأمن وكندا ، فاستحكم فيها الخلاف على وسائل الهيمنة عليها .

وقد زاد الطين بلة فى علاج هذه المسائل وغيرها مما طرح على مجلس الأمن ، ما ذاع أمره من لجوء روسيا الى حق الاعتراض ، لجوءا يقال فيه أنه لم يكن مقصودا حين تم الاتفاق عليه فى يالتا أولا ثم فى سان فرنسيسكو .

فقد كان المفهوم فى سان فرنسيسكو أن الدول الخمس الكبيرة ، التى هى أعضاء دائمة فى مجلس الأمم ، لن تعمد الى استعمال حق الاعتراض التى منح لها ، الا فى الأقل الأندر وفى أخطر المسائل التى لها صلة بكيان هيئة الأمم المتحدة ، أو بالكيان القومى ، ولكنه لم يستعمل على هذا الوجه فى معظم الأحيان ، فصار اللجوء اليه وسيلة تعرقل أعمال مجلس الأمن وتكفه عن اقرار شيء بالأكثرية حتى ولو كانت الأكثرية ساحقة — ثمانية أصوات أو تسعة أصوات من أحد عشر صوتا — ولذلك اشتد

البرم باستعمال هذا الحق على هذا الوجه ، علاوة على تنكر الدول المتوسطة والصغيرة منذ أول الأمر ، لمنح هذا الحق على الاطلاق ، ومن هنا ما ارتفع به الصوت منذ حين بوجوب الغاء هذا الحق ، ولكن ينبغى أن لا ننسى أن كل قرار قد يتخذه مجلس الأمن لالغاء حق الاعتراض ، خاضع بدوره لحق الاعتراض ، فليس ثمة وسيلة فى الميثاق للخروج من هذا المأزق بالالغاء ، ولذلك اتجه الرأى ، الى بحث الموضوع مرة أخرى فى الجمعية العمومية ، عسى أن يتألب الرأى العام العالمى ، فيقنع الدول الكبيرة ، بضرورة الحد من استعماله ، والعودة فى استعماله الى الأغراض الجوهرية التى عينت له فى مبدأ الأمر ، وقد انشئت « الجمعية الصغيرة » لكى تواصل البحث باسم أعضاء الهيئة جميعا فى مسائل غير مدرجة فى جدول مجلس الأمن ، عسى أن يكون رأيها اعرابا عن رأى دولى عام ، فيردع هذه الدولة أو تلك عن الافراط فى استعمال حق الاعتراض .

أما ثانية المهمتين اللتين ألقيتا على عاتق الهيئة العالمية فهى توفير الأحوال التى يستتب فيها السلام والرخاء ، ولو نهضت فروع الهيئة بما وكل اليها نهوضا موفقا ، لرأيناها واقفة فى أول الطريق المفضى بها الى تحقيق بعض الأمل الذى عقد عليها ، وليس هذا الطريق طريقا ممهدا ، ففيه وعورة هنا وهناك ، ولكن أعظم عقبة تعترض السير عليه هى عقبة الخلاف ، بين روسيا من ناحية والدول الغربية من ناحية أخرى ، وعجز الفريقين فى آن عن تسوية الخلاف بينهما والتعاون تعاونا وثيقا ، وفقا لحرف الميثاق وروحه ، وليس فى وسع أحد ، أن يبلغ من المعرفة الدقيقة

والتنزه عن الهوى ، مبلغا يتيح له أن يحكم لأحد الفريقين أو عليه، ولا يزال الرجاء معقودا على أن تردم الهوة بين الفريقين ، على الأيام ، وان بدت الهوة اليوم أوسع وأعمق مما كانت منذ سنتين أو منذ سنة وحسب .

فاذا عجز الفريقان عن التقدم تقدما يذكر نحو التفاهم ، ظلت هيئة الأمم المتحدة فيما نراها فيه اليوم من العجز وقلة الأثر فى علاج المسائل الكبيرة ، التى يختلف عليها الفريقان اختلافا أصيلا. وقد يكون فى وسع الجماعة غير السوفيتية من الدول أن تمضى فى طريقها فى القيام بأعمال الهيئة التى لا تكاد تكون مثارا للخلاف — مثل مجلس الاقتصاد والاجتماع ، ومجلس الوصاية وهيئة الزراعة والتغذية وغيرها ، وهذا عمل نافع ولا غنى عنه ، ولكنه لا يجدى شيئا اليوم ولا فى المستقبل المنظور ، فى الوصول الى نظام مجد للهيمنة على الطاقة الذرية ، أو تحديد السلاح ، أو التقدم بهيئة الأمم المتحدة حتى تصير الأداة لاقرار السلام والأمن والمحافظة عليهما .

واذن فليس يسعنا أن نغمض العين عن شيء ليس حدوثه من الأمور المستحيلة ، ذلك بأن تنشطر هيئة الأمم المتحدة شطرين أحدهما سوفيتي والآخر غير سوفيتى . فقد تبلغ الفوارق بين الفريقين مبلغا من التحجر يجعل التفاهم والتعاون بينهما شيئا متعذرا ، فينفصل أحدهما عن الآخر ، انفصالا غير عنيف ، ولما كان الفريق غير السوفيتى هو أكثر الدول المنتظمة اليوم فى هيئة الأمم المتحدة ، فيومئذ قد يستمر هذا الفريق باسم هيئة الأمم المتحدة ، ويكون للجماعة السوفيتية هيئتها الخاصة .

والأحوال التي تفضى الى هذا الانفصال — اذا أفضت اليه — ليست حتما مما يعزز أمل العالم فى الأمن والسلام • بيد أنه من الجائز أن تصبح هيئة الأمم المتحدة بعد الانفصال ، أدنى الى الانسجام والتآزر والعمل المجدى فى نطاق أضيق أو تنحل الهيئة الى جماعات اقليمية كالجامعة الأمريكية والجامعة العربية والجامعة السلافية وغيرها •

واذن نستطيع أن نقول ان تقدم الهيئة تقدما مطردا الى تحقيق أغراضها الجوهرية لا يزال ممكنا •• ولكن ذلك لن يتم الا على قدر ما تستطيع الدول أن توفق بين موقف الجماعة السوفيتية والجماعة غير السوفيتية • والغالب أن تستمر الهيئة فى حالتها الحاضرة المتعثرة بضع سنوات أخرى على الأقل بيد أنها حالة لا يمكن أن تستمر الى ما لا حد له ، وما لم تسو وجوه الخلاف ، وتتآزر الدول جميعا ، صار انشطارها شيئا لا مفر منه ويومئذ ينقسم العالم « عالمين اثنين » ، بل يذهب بعض أهل الرأى الى أن الانقسام قد تم •

فى قصر شايوه

أقمت فى باريس أسبوعين كاملين ، منصرفا عما تتيحه باريس من مباهج ومتع أدبية أو تاريخية أو فنية • فقد أتيتها لأشهد اجتماع الأمم المتحدة فى قصر شايو فيها ، فاستأثر العمل فى القصر بعنايتى ، فكنت أغدو الى القصر مبكرا لأظفر بالتذاكر التى تخول لى أن أحضر هذا الاجتماع أو ذاك ولا أبرحه الا بعد الغروب لأعود الى النزل حيث تتاح الفرصة مرة أخرى للتحدث مع أعضاء الوفود

العربية فيما تم فى يومنا المنصرم ، أو فيما عساه أن يتم فى غدنا المقبـــل .

وقد سرت مع أحد الاخوان ذات صباح ، فجعل يدل على المواقع التاريخية فى باريس ، وما أكثرها ، وعلى آيات النحت والنقش فى القصور القديمة ، فكأنه كان يستحضر أيام فرنسا فى ابان عظمتها ، فكنت أرى بعينى ، ولكن ذهنى كان منصرفا الى حاضر الانسانية ومستقبلها ، فهذه التماثيل الرائعة وما تمثله من حضارة عالية ، مهددة بالفناء ، ان لم تجد الوفود المجتمعة فى قصر شايو سبيلا الى رفع الكابوس الذى يقض مضاجع النـــاس فى العصر الذرى .

فلذلك دأبت على الذهاب الى القصر ، اريد أن أتعلم ، فكأن عهد الدراسة قد عاد . فصل فى الصباح من العاشرة والنصف صباحا الى الواحدة بعد الظهر ، ثم غداء خفيف مع زميل من الصحفيين ، أو صديق من أعضاء الوفود العربية أو الغربية ، ثم فصل ثان فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، الى السادسة أو نحوها ، ثم ساعة أو بعض ساعة فى الحجرة المخصصة لصحفيى الشرق الأوسط تعد فيها البرقيات وتطبع وتسلم لمكتب البرق .

وقد حضرت جلسات اللجنتين الأولى والثالثة ، وما كنت أنصرف عن احداها الا اذا اجتمــع مجلس الأمن لبحث قضـيـة الهدنة فى فلسطين ، أو قضية الحصار المضروب على برلين . وأولى اللجنتين تعنى بمسائل السياسة والأمن ، وثانيتهما بمسائل الاجتماع والثقافة . فالطاقة الذرية ، وخفض الأسلحة المألوفة ، وقضايا فلسطين واليونان وكوريا من موضوعات اللجنة الأولى . أما

دستور حقوق الانسان ، ومعاهدة حرية الأنباء ومشكلة اللاجئين العرب ومشردى الحرب فى أوربا ، فمن موضوعات اللجنة الثالثة.

وقد أعجبت بالأسلوب المتبع فى هذه الاجتماعات لترجمة أقوال المندوبين . فاللغتان المستعملتان فى هيئة الأمم المتحدة هما اللغتان الانجليزية والفرنسية . ولكن لكل عضو من أعضاء الوفود أن يتكلم الانجليزية أو الفرنسية أو الروسية أو الأسبانية أو الصينية ، فتجد فى الشرفة المخصصة للمترجمين والمترجمات ، من يستطيع أن ينقل كلامه اما الى الفرنسية واما الى الانجليزية ، ويتم ذلك على الفور فلا يتأخر المترجم عن المتحدث أكثر من كلمة أو كلمتين . وانت تجلس فى شرفة الصحفيين والزوار ، فتجد على مقعدك جهازا تعلقه فى عنقك وتضع سماعتيه على أذنيك ثم تفتح كباسا رقيقا ، وتدير زرا مرقوما ، فتتلقى حديث المتحدث بلغته أو باللغة التى تطلبها ، فاذا كان المتحدث روسيا أو ارجنتينيا ، تلقيت حديثه مترجما بالانجليزية ان شئت أو بالفرنسية ان شئت.

ويطلقون على هذه الترجمة وصف الترجمة المصاحبة . وأغرب منها الترجمة اللاحقة . فقد يلقى أحد أعضاء مجلس الأمن خطبة تستغرق ساعة أو بضع ساعة ، فاذا هناك مترجم يبادر على أثر انتهائها ، فيلقى ترجمتها كاملة ، بالفرنسية أو الانجليزية ، وقلما يخطىء أو يتردد ، وكثيرا ما يعيد فى ترجمته نبرات الخطيب الأولى.

فهذه القدرة على الترجمة ، وهذه الأجهزة التى تتيح لك أن تستمع باللغة التى تطلبها ، هما الوسيلتان اللتان جعلتا التفاهم اللغوى مستطاعا بين ممثلى ثمان وخمسين دولة من مشارق الأرض ومغاربها .

وقد كان الممثلون العرب يتحدثون باحدى اللغتين الانجليزية أو الفرنسية ، وكانوا أجود قولا وأطلق حديثا من الوفود الأخرى التى تستعمل هاتين اللغتين دون لغاتها القومية •

ولكن المناقشة فى فروع هيئة الأمم المتحدة تقتضى من أعضاء الوفود شيئا أعظم شـأنا من الطلاقة فى احـدى هاتين اللغتين وحسب • فهذه الوفود تضم رجالا ونساء بلوا السياسة وعركوا أساليبها ، فحجتهم فى أكثر الأحيان قوية ينبغى أن تقرع بمثلها ، وبديهتهم يقظة ، تمكنهم من أن يقتحموا كل موطن ضعف فى قول المناظر للظهور عليه ، ومعرفة أكثرهم بمواد الميثاق ودقائق اللائحة الداخلية واسعة دقيقة ، تعينهم على اللجاج والارجاء ، اذا كان فى الأرجاء مصلحـة لهم ، فلم أحضر اجتماع لجنـة من اللجـان الا وسمعت فيها نقاشا طويلا مملا على شئون تتعلق باللائحة • فكل هذه أمور ، لا يستطيع العضو الجديد الوافد على هيئة الأمم المتحدة ، ان يحسنها الى أقصى حد قبل التمرس بها ، ومن هنا ترى أكثر الدول قد عينت لها مندوبا دائما فى الهيئة ومعه جماعة من الأعوان ، يتبدل أفرادها فى الحين بعد الحين ، ولكنها تضم دائما أفرادا قد تمرسوا بأساليب المناظرة والمناقشة فى هيئة الأمم وفروعها •

وأضرب على ذلك مثلين • ففى احدى الجلسات التى عقدتها اللجنة الأولى وبحثت فيها ناحية من نواحى قضية فلسطين — حضور ممثلى اللجنة العربية العليا وحكومة عموم فلسطين — اعترض مندوب أوكرانيا على هذا الحضور بحجة بدا فيها الغرض ولكنها لم تخل من بعض القوة ، فانبرى له فارس الخورى ، ورد

عليه بحجة منتزعة من أقوال المندوب نفسه ، يوم كان رئيسا لمجلس الأمن منذ أشهر فى ليك سكسيس ، فأفحمه •

وفى احدى الجلسات التى عقدتها اللجنة الثالثة — ورئيسها شارل مالك وزير لبنان المفوض فى وشنطن — اقترح المندوب البريطانى أن يقدم بحث مشكلة اللاجئين العرب لأن المشكلة ملحة ، فأراد أحد المندوبين أن تعين لجنة فرعية ، وطلب آخر تعليق بحث اللاجئين العرب على فروع اللجنة السياسية من وضع الحل السياسى لقضية فلسطين ، ففطن الدكتور شارل مالك الى أن الأولى مناورة غرضها الارجاء ، وان الثانية محاولة غرضها منع البحث لأن الأوساط المطلعة كانت تعلم أن اللجنة السياسية سوف ترجىء بحث فلسطين الى ما بعد الانتخابات الأمريكية على الأقل ، فاستند الرئيس الى ما له من حق وفوت على الرجلين غرضهما • فلما طرح الاقتراح الأول للتصويت وافقت عليه أكثرية كبيرة عددها ٤٤ وامتنع ٦ عن التصويت • ولولا ذلك لأرجىء بحث موضوع اللاجئين العرب أكثر مما أرجىء ، أو لظل فى جدول اللجنة الى أن تنتهى الهيئة من اجتماعها فى باريس •

وتناولت طعام الغداء ذات يوم مع فارس الخورى فى مطعم المندوبين ، فانضم الينـا فريدريك أوزبورن مندوب أمريكا فى لجنة الطاقة الذرية ، وجعل يسأل فارس الخورى عن تفاصيل ما يخلق أن يتم فى اللجنة وفى مجلس الأمن متى عرض مشروع قرار اللجنة الفرعية عن موضوع الطاقة الذرية • فوضح له ما أراد أن يستوضحه • فلما انصرف الأمريكى قال لى : انظر الى هؤلاء ان عدد الرجال فى وفدهم مئة أو أكثر ، وهو يضم خبراء من كل

صنف ولون ، أفلا تعجب أن تراه يجيئنى مستفتيا ؟ قلت : كلا لا أعجب ، فمن قال ان العدد كفيل بالذكاء أو ان الذكاء يغنى عن التجربة والحنكة •

فذكرنى ذلك كله بحكمة ألقاها على منذ سنوات فخامة الرئيس شكرى القوتلى • فقد قال انه عاد قبيل الحرب العالمية الأولى من الدراسة فى الاستانة الى دمشق ، وجعل يعمل مع اخوان له على انشاء جمعية تسعى الى الاستقلال فلقيه ذات يوم رجل مخضرم من رجال السياسة وقال له : سمعت انك تسعى الى الاستقلال • فقال الفتى نعم أسعى • فقال المخضرم : استقلال من ؟ استقلال عن من ؟ استقلال متى ؟ انك لن تدرك الاستقلال ولا فى خمسين سنة ! فقال الفتى : والله ان فى كلامك ما يشجع ، فقد كنت أظن اننا ربما لا ندركه فى مئة سنة • فعلينا أن نضاعف الجهد •

قال الرئيس : كان ذلك منذ ثلاثين سنة أو أكثر قليلا • وها نحن أولاء بحمد الله قد أدركنا ما كنا نتطلع اليه ، وما كان مخضرمنا يعده مستحيلا ، وهذه أصوات وفودنا فى هيئة الأمم المتحدة ، تجتمع فتكون عشر أصوات الدنيا • ونحن لا نزال فى حاجة الى أكثر الدعائم التى يقوم عليها الاستقلال ويثبت ، فما على الشباب الا أن يسعوا ، وأن ينسوا السنين التى قد يستغرقها سعيهم •

وقد رأيت الوفود العربية فى قصر شايو ، فهى تسعى جاهدة فى اللجان وفى الأروقة ، وتزداد تجربة فى الاعراب والمناورة ، وحبذا الحال لو كانت أوثق صلة بالصحفيين كما يفعل الوفدان

البريطانى والأمريكى ، أو كما يفعل الصهيونيون ، ولعلها بعد ثلاث سنوات قد أخذت توقن أن هيئة الأمم المتحدة ميدان رحب تمارس فيه سياسة القوة ، وقل أن تجد فيه مكانا لدعاة العدل والحق — الآن على الأقل : وأنت لا تستطيع أن تمارس سياسة القوة ان لم تكن قويا ، فالضعيف الذى يفعل خليق أن يفضح ضعفه ، مهما يكن فصيحا أو ألمعيا • والشرق العربى غنى بموارده فى الرجال وموارده فى الطبيعة ففرض واجب عليه ، وهو يجاهد فى مجالس الأمم ، أن يعنى عناية محكمة التدبير ، بانماء موارده الاقتصادية ، فيزداد قوة ويعلو منزلة حيال سائر العالم ، ويومئذ ترى رجاله اذا نطقوا فى قصر شايو أو ليك سكسيس ، أقنعوا اقناع ذى سلطان •

هيئة الأمم المتحدة . ما نفعها ؟

، منذ أسبوع احتفلت الأمم المتحدة بيومها • وقد استمعت الى الخطب تلقى ، وشاهدت الضياء الباهر الذى غمر أجمل رقعة فى باريس ، فلم ينسنى ذلك ساعات قضيتها فى مجلس الأمن أو الجمعية العمومية أو اللجان أو الأروقة ، استمع الى لجاج لا يخلو فى الحين بعد الحين من كلمة كان رجال السياسة فى العصور الغابرة يعدونها نابية ، أو استطلع من المندوبين والصحفيين أخبار المناورات السياسية التى تدبر فى الرواق أو على مائدة الطعام لتحقيق غرض أو آخر • وقد دأبت على ذلك أسبوعين كاملين ، فلا أذكر أن احدى هذه الجماعات اتخذت قرارا يصح السكوت عليه سوى اعادة انتخاب القضاة الخمسة لمحكمة العدل الدولية ،

واقرار أربع مواد من دستور حقوق الانسان •

فسألت نفسي ، وسألت غيري ما نفع هيئة الأمم المتحدة ؟

فمن قائل ان الأمم المتحدة قد منيت بخيبة ذريعة فى النهوض بما ألقى اليها من مهام وما عقد عليها من آمال • ومن ذا الذى يستطيع اليوم أن ينكر هذا الرأى ؟ فمجلس الأمن ليس وزارة عالمية ذات سلطان ، والجمعية العمومية ليست مجلسا نيابيا تتواءم فيه المصالح المتضاربة التى تسعى كبار الأمم وصغارها الى تحقيقها ، وتخضع فيه الأقلية لرأى الأكثرية • فليس فى وسعك أن تقول اليوم ان هيئة الأمم المتحدة هى حكومة عالمية لا تزال فى دور الجنين • فالأحوال التى تتيح تحقيق هذا الحلم ليست قائمة • بل ضدها هو القائم ، والانقسام الواقع بين الشرق والغرب يسوء سوءا مطردا ، فبدلا من أن نرى الدول الكبيرة قد اتفقت على معاهدة صلح مع ألمانيا — وقد انقضت ثلاث سنوات ونصف سنة منذ وضعت الحرب أوزارها فى أوربا — نرى صراعا فى برلين قد بلغ ذروة عالية من الاستحكام والجفاء • وبدلا من أن نرى تسوية عامة لشئون الشرق الأقصى ، نرى الحرب لا تزال دائرة الرحى فى الصين والهند الصينية ، ونطالع أخبار العنف فى الهند وبرما والملايو واندونيسيا • وبدلا من أن نرى سلاما فى الشرق الأوسط ، نرى حالة حرب قائمة بين الدول العربية وغزاة أجانب لا حدود لمطامعهم ، تؤيدهم دول كبيرة ، ونرى ايران وتركيا عرضة لشبح خطر ماثل عند افقهما الشمالى • أما لجنة الطاقة الذرية فكانت قد كفت عن العمل لأن كثرة أعضائها قررت أن مواصلة البحث ، وموقف روسيا واتباعها هو ما هو ، مضيعة

للوقت والجهد وكفى • وكذلك قل فى كل سـعى بذل لخفض السلاح أو تحديده • وسوف تعود اللجنتان الى البحث استجابة لتوصية اللجنة السياسية ولكن الأمل فى الاتفاق والتفاهم على هذه الأمور يكاد يكون كالوهم •

قلب نظرك كيف تريد فلا ترى الا أدلة تتراكم على أن الرجاء الذى عقد على هيئة الأمم المتحدة هو رجاء قد خاب •

بيد أن الذين يعترفون بكل ما تقدم ، ولا ينكرونه ، يذهبون الى أن الأمم المتحدة أنجزت من الأعمال النافعة شـيئا كثيرا ، معظمه خاف عن الناس •

وفى طليعة ما أسدته انها أتاحت بحث مسائل سياسية كثيرة على ملأ من الناس قاطبة • نعم انها لم تحل مشكلة ايران حيـال روسيا ، ولا مشكلة مصر فى شكواها من الاحتلال البريطانى والسودان ، ولا مشكلة فلسطين التى ذهبت فيها كل مذهب غير مذهب العدل والحق والميثاق ، ولكنها أسمعت الناس صوت ايران ومصر والعرب ، على نحو كان يكون متعذرا لولا وجود هذا المنبر الذى يتيح لكل صاحب شكوى أن يقول قوله فى شكواه •

وهذا فى حد نفسه ليس بالشىء اليسير • فالدول التى تدعى الى الحساب أمام الرأى العام الدولى أصبحت تقيم وزنا غير يسير لمبادىء الميثاق • وهذا فى أغلب الرأى كان الباعث الأول الذى دعا الحكومة الأمريكية الى الجلاء عن منطقة بناما حين طلب ذلك منها ، وأفضى الى جلاء الروس عن اذربيجان • فقيمة الأمم المتحدة فى هذه الناحية هى من حيث المبدأ ، كقيمة الشرطة فى أى

بلد ، لا تنبع من قدرتها على معاقبة المعتدى الآثم ، بل من قدرتها — وان وهنت — على الحيلولة دون وقوع الاعتداء أو الاثم • فقد صارت الأمم تحسب حسابا لسؤالين : هل يعد العمل الذى تنتويه انتهاكا لميثاق الأمم المتحدة ؟ أو هل تريد أن تقف أمام الأمم المتحدة موقف المتهم للدفاع عن هذا العمل أو ذاك ؟

أضف الى هذا كله ما تسديه هيئات شتى منتمية الى الأمم المتحدة فى ميدان الاقتصاد والاجتماع أكثرها تابع للمجلس المختص بذلك أو فروعه مثل هيئة الزراعة والطعام ، أو هيئة الصحة العالمية • فجمع الاحصاءات الاقتصادية وتبويبها ونشرها واعداد الدراسات الاقتصادية العالمية ، كالتقرير الذى أعدته اللجنة الاقتصادية الأوروبية ونشرته ، والمقترحات التى اقترحت لتحسين الأحوال الاقتصادية فى بقاع شتى من الأرض — عمل يعد فى المقام الأول شأنا ونفعا • ثم هناك أعمال أخرى ورثتها الأمم المتحدة عن عصبة الأمم ومضت فيها مثل رقابة المخدرات ومنع الرقيق الأبيض واستغلال الأطفال فى العمل ، والمحافظة على أحول صالحة للعمل فى المصانع ، والقيام بحملة كبيرة ضد انتشار عدوى السل بين الصغار والعناية بالأطفال المشردين •

فهذه جميعا أعمال لها قيمتها ، ونفعها بعيد الأثر ، وليس فى وسع أحد أن يغمط الأمم المتحدة حقها فى فضل ما صنعت من هذا القبيل •

ولكن الامتحان الذى تمتحن به الأمم المتحدة هو فى آخر الأمر امتحان سياسى : اتستطيع الأمم المتحدة أن تقيم الدليل على

نفعها كأداة سياسية ؟ ولما كان خطر الحرب هو الكابوس الذى يقض مضاجع الناس فى هذا العالم المؤرق المكلوم ، فان نفع الأمم المتحدة لا يوزن فى أذهان الناس الا فى ميزان نجاحها أو اخفاقها فى منع الصراع ، أو فى ميزان قدرتها على توفير أسباب الأمن والسلام •

وليس ثمة من ينكر أن القوى التى تسعى لحفظ السلام ، ليست كثيرة ولا بينة • ولكن مهما تكن مواطن الضعف فى الأمم المتحدة ، وهى كثيرة بينة ، فانها فى طليعة هذه القوى • فهى المكان الوحيد الذى تلتقى فيه الدول الكبيرة ، ساعية ، وان كان ذلك نفاقا فى أكثر الحال ، الى تحقيق أغراض مشتركة • وهذا الالتقاء شىء لا غنى عنه ، ولا سيما متى كانت احدى الدول الكبيرة تعيش وكأنها فى معزل عن سائر الجماعة البشرية ، أو أكثرها • وقد يشتد الجدل بينها ويطول ، ويكثر الالتجاء الى حق النقض ، ولكن الالتقاء نفسه يخفف من الحدة الكامنة ، وقد تتعدد وجوه الخلاف ، ولا تلتقى الآراء ، ولكن اللقاء والقول فيه كفيلان بالانصراف على شىء يسير من وئام ، وان احتدم صراع الرأى ، واشتد التنابز بالكلام •

وفى سعى الأمم المتحدة الى القيام بمهمتها السياسية ، تراها قد أخذت تنشىء بعض الأساليب والوسائل لمعالجة المشكلات • فهى تعتمد بعض الاعتماد على سلطانها الأدبى ، أو تتوسل بالوساطة أو بانشاء لجنة تعرض خدمتها للتقريب بين وجوه النظر المختلفة • ولما كانت مساعيها لحل بعض المشكلات القائمة تحتاج الى وسيلة تمكنها من تأييد ذلك السلطان فانك ترى السكرتير

العام قد طلب فى تقريره الذى قدمه الى الجمعية العمومية ، أن تعنى بانشاء شرطة تابعة للأمم المتحدة ، تستطيع الهيئة أن تعتمد عليها فى تيسير تنفيذ القرارات التى تتخذها • فلو كانت هـذه الشرطة متاحة فى اندونيسيا مثلا ، للمحافظة على خطوط الفريقين، لكان الوصول الى هدنة بين الفريقين خليقا أن يتم فى وقت أقصر•

وهذه القوة لن تستعمل للهجوم ، فهى غير القوة المسلحة التى اقترح انشاؤها — ولم يتم — لتكون فى يد مجلس الأمن سلاحا لكبح الدول التى تعتدى ، فهذا فيما أظن لا يزال بعيد المنال •

وحقيقة الأمر أن الأمم المتحدة لا تزال ، كالسلام نفسه ، عرضة للانهيار ، وما نالته حتى الآن من نجاح يسير فى مسائل لم يقع الخلاف فيها بين دول كبيرة ، انما نالته على الرغم من فرقة الكلمة والصراع الناشب بين الدول الكبيرة نفسها •

وأكثر النقد الذى سدد الى الأمم المتحدة ، قائم على خيبتها فى تحقيق أشياء لم تعدّ هى لتحقيقها • فهى لم تنشأ لتحقيق الوحدة بين الدول الكبيرة بل قام الميثاق على فرض قيام هذه الوحدة بين الدول الكبيرة ، وقد تعهدت هذه الدول يوم وقعت الميثاق أن تسلك طريق التساهل والرضى وحسن الجوار ، وأن تحشد قوتها للمحافظة على السلام والأمن بين الدول • ولكن الدول الخمس الكبيرة عجزت عن أن تحقق الوحدة بينها فكان هذا الخلاف أفدح عبء آد ظهر الهيئة العالمية •

ومن يراجع الخطب التى ألقيت فى مؤتمر سان فرنسسكو يتبين أن الرأى الغالب يومئذ كان أن الهيئة لا قيمة لها الا بعد أن تعقد معاهدات الصلح ، وأهم معاهدات الصلح لم تعقد بعد •

وأكبر الرأى أن الذين عقدوا عليها آمالا كبارا غالوا فيما صنعوا ، وقد قال لى أحد أقطابها فى باريس : « لم أجد سوى فئتين كبيرتين من الشعوب وضعوا فيها كل ثقتهم ، أما الفئة الأولى فالأمريكيون من ذوى النزعة المثاليـة والذين لم يتمرسوا بأساليب السياسة الدولية ، وأما الثانية فالعرب الذين ظنوا أنهم واجدون فيهـا ما يغنيهم عن القوة التى ينبغى أن يوفروا أسبابها بين أيديهم » .

فميزان الرأى فى ما للهيئة وما عليها ، ليس مائلا كله ضدها . والقليل الذى تم فى تسوية بعض الخلافات ، والكثير الذى حقق فى نواحى الاقتصاد والاجتماع ، يبيحان لها بعض الحق فى أن تطالب بأن يواصل الناس تأييدهم لها ، على الرغم من نفقاتها وهى دون ميزانية شركة متوسطة ، واخفاقها حتى الآن فى النهوض بمهمتها الأولى .

مقعد الصين

مضت ثلاثة أشهر أو نحوها منـذ أن خرج مندوب الاتحاد السوفيتى من مجلس الامن ، ثم لحق به زملاؤه وممثلو الدول التابعة لروسيا فى فروع الأمم المتحدة ، فأثار ذلك من القلق فى نفوس الأعضاء مالم تثره أية مشكلة أخرى واجهتها الأمم المتحدة، فى تاريخها القصير المتعثر .

ويرجع أصل هـذه القطيعة ، الى تمثيل الصين الشيوعية فى الأمم المتحدة ، بدلا من الصين الوطنية ، التى تقلص ظل سلطانها على الصين منـذ أواخر السنة الماضية .. واذا أخذنا بما يقوله ممثلو الاتحاد السوفيتى فالقطيعة ماضيـة فى طريقها حتى تقضى

الأمم المتحـدة ممثل الصـين الوطنية ، وتستقبل ممثلى الصين الشيوعية فيها .

وليس بين الأعضـاء اليوم من يستطيع أن يعين متى يكون ذلك . فان طال الزمن قبل حل المشكلة فقد تصبح قطيعة الدول الشيوعية — وربما استثنيت يوغسلافيا — للأمم المتحدة شيئا دائما . نعم أن رجال القانون قد يقيمون الدليل ، على أن ممثلى السوفيت تخلوا عن حضور الأمم المتحدة ، من تلقاء أنفسهم ، فلا يعدو أن يكون تخلفهم غيابا وحسب ، ولكن من الواضح ، انه اخطر كثيرا مما يتراءى لرجال القانون .

وقد مضت فروع الأمم المتحدة فى عملها ، بغير مشاركة ممثلى الدول السوفيتية ، فلم يكن ذلك معوقا لها ، بل فى وسعك أن تقول ان العمل فيها ولا سيما فى المنظمات المختصة يغلب أن يكون فى غياب الممثل السوفيتى ايسر منه فى حضوره ولكن اذا نظرت فى عمل مجلس الأمن وجدته ناقصا ، متسما بالتردد . فقد اتفق أن كان عمل المجلس قليلا منذ خرج ممثل السوفيت منه ، ولكنه امتنع عن بحث المسائل الشائكة مثل الطاقة الذرية والفصل فى الدول التى طلبت أن تنتظم أعضاء فى الهيئة العالمية ، ولو حاول أن يتخذ قرارات فى هذين الموضوعين وما كان على غرارهما ، لكان عرضة لخطر كبير ، هو أن تكون قراراته مجردة من الصـبغة العالمية ، حتى اذا سويت مسألة الصين ، وعادت روسـيا الى المجلس ، وحل فيه مندوب الصـين الشيوعية ، فلا يستبعد أن تطلب الدولتان الغاء القرارات التى اتخذت بغير موافقتهما ، فان لم تلغ خرجتا من الأمم المتحدة ، وقد يكون خروجهما الى غير رجعة

فارجاء البت فى هذا الأمر ينطوى على خطر ، ويرى تريجفى‌لى الأمين العام للأمم المتحدة ، انه ينبغى أن يكون قبل عقد الدورة المقبلة ، ومن الخير أن يكون أقرب • ومن أجل تيسيره ، أعد تريجفى لى مذكرة ، عالج فيها الموضوع من ناحيته القانونية ، ولكنه طوى البحث القانونى على نداء مضمن وجهه الى أعضاء الأمم المتحدة بأن يكفوا عن السير الى غير غاية معلومة •

ليس فى تاريخ الأمم المتحدة سابقة يسترشد بها فى هذا الموضوع ، فلم يسبق أن وجه اعتراض الى سلامة تمثيل دولة ما من الدول الأعضاء • ولعل أدنى الحوادث شبها بمشكلة الصين ، هو النزاع الذى قام فى عصبة الأمم فى سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ بين ايطاليا والحبشة ، فيومئذرات عصبة الأمم أن ترضى موسولينى فامتنعت عن الاعتراف بسلامة أوراق ممثلى الامبراطور هيلاسلاسى فى الجمعية العمومية • فلذلك اثنى تريجفى‌لى عن الاعتماد على السوابق فى مذكرته واستند الى الفصل الخاص بقبول الأعضاء الجدد فى ميثاق الأمم المتحدة فذهب الى أن الاعتراف الدبلوماسى بدولة ما ليس شرطا أساسيا فى قبول تلك الدولة عضوا فى الأمم المتحدة فقد وافقت دول كثيرة على قبول برما واليمن عضوين فى الأمم المتحدة مع انهما غير معترفة بهما اعترافا دبلوماسيا • فالأصل فى رأى تريجفى‌لى ، ليس الاعتراف الدبلوماسى بل هو الشرط المنصوص عليه فى المادة الرابعة من الميثاق ، وهو قدرة الدولة وعزمها ، على النهوض بالالتزامات التى يفرضها عليها انتظامها عضوا فى الأمم المتحدة • واذن فعلى أعضاء الأمم المتحدة، أن يقرروا فيما بينهم — على رأى تريجفى‌لى — أى الفريقين

فى الصين ، أحق بالكلام باسم الصين ، وأقدر على ممارسة السلطان فيها والانتفاع بموارد البلاد وتوجيه الشعب والتمتع بطاعة أكبر فريق فيه .

فاذا أخذ بهذا التفسير ، اتضح أن الصين الشيوعية هى صاحبة القدرة الآن ، ولكن أهى صاحبة العزم أيضا ؟ أم تنوى أن تتوسل بالقطيعة كروسيا ، كلما ألفت نفسها أمام موقف لا ترتضيه ؟

وعلى كل حال يظن تريجفىلى أن تفسيره يمهد طريقا تسلكه الدول التى تريد أن تعترف بالحقائق السياسية ، دون أن تسترد اعترافها بحكومة شانغ كاى شيك ، أى أن الولايات المتحدة مثلا تستطيع أن تقر تمثيل الصين الشيوعية فى ليك سكسيس ، دون أن تسترد اعترافها بالصين الوطنية .

هذا من الناحية القانونية . ولكن الناحية السياسية أغلب وأوثق صلة بأصول المشكلة ، ومؤداها ، أمن مصلحة الدول الغربية أن تمهد لعودة روسيا الى الأمم المتحدة ، برغم ما يكلفها ذلك من مضايقة قد تبلغ مبلغ هزيمة دبلوماسية ، وبرغم ما تعرضها له هذه العودة ، من ضعف فى مجلس الأمم سببه وجود دولتين شيوعيتين لهما حق الفيتو ؟

بين أهل الرأى من يذهب الى أن عمل الأمم المتحدة خليق أن يكون أيسر وأجدى ، ان لم تعترضه وسائل التعويق التى يمارسها ممثلو السوفيت وأتباعهم ، وان لم تثقله الخطب السياسية الجدلية الرنانة التى دأبوا على القائها ، وانه من الخير أن تجتمع فى الهيئة دول بينها أواصر من أصول التفكير والنظر الى الحياة

ويستطيع ممثلوها اذا استعملوا لفظ « الحرية » أو « الديمقراطية » أو سمعوه أن يتحققوا من أن معناه واحد فى ذهن القائل والمستمع •

ولكن اذا كانت الدول الغربيـــة تريد أن تجتمع ، حيث لا يعترض مناقشاتها عنت السوفيت وجدلهم القوى الذى يرهق الأعصاب ، فأمامها انماط شتى من الاحلاف — مجالس الدفاع الأطلسى ، والوحدة الأوربية ، والجامعة الأمريكية ، والتعاون الأوربى الاقتصادى والوحدة الأوربية وغيرها وفيها تستطيع أن تصنع ما ترى أنفسها فى حاجة ملحة اليه •

ومقطع الأمر ليس هذا ولا ذاك ، بل هو : أثمة فضيلة ما فى « عالمية » الأمم المتحدة ؟ أفى العالم حاجــة حقيقية الى مكان يجتمع فيه ممثلو الأمم جميعا ، برغم ما يساورها من جفاء الحرب الباردة والمخاوف التى تثيرها •

فان كان الجواب بالايجاب ، وجب أن تظل صفة « العالمية » منسحبة على الأمم المتحدة ، وعلى الأمم المعارضة لتمثيل الصين الشيوعية فى ليك سكسيس ، أن ترضى بما ليس منه بد وان ثقل على نفوسها حتى تبقى بين الشرق والغرب صلة ما وان كانت واهية • واذا كان الجواب بالنفى ، لأن روسيا فى بعض الرأى لم تشترك قلبا كما اشتركت قالبا فى الأمم المتحدة ، فلتترك وشأنها ولتمض الأمم المتحدة فى طريقها ولكن هذا الرأى ليس بالرأى الأغلب •

الوسيلة وحدها لا تكفي

ما أكثر المشكلات التى يعانيها أبناء هذا العصر وما أعتاها ! كيف يحسنون الانتفاع بموارد الأرض حتى تقيم أود الناس الذين يزداد عددهم سنة بعد سنة ؟ أو كيف يستطيعون أن يصونوا الموارد المعروفة من التلف ، ويكشفوا ما لم يكشف بما أوتوا من علم وتجربة ؟ كيف يوفقون بين سلطان الدولة وحرية الفرد ، حتى تستوى كفتا الميزان بينهما فتستطيع الدولة أن تكفل الخير للرعية دون أن تفتئت على حقوق أفرادها ؟ كيف يسيطرون على القوى المخوفة التى فتقها العلم من دخائل الذرية وجعلتها الصناعة فى منال اليدين حتى يسخر نفعها للناس ويجنبوا شرها المهلك ؟

جميع هذه المشكلات ، على ضخامتها تلى المشكلة الأولى : كيف يضمن قسط من السلام ، يتيح للعقول أن تزدهر وللهمم أن تعمل ؟ والسلام بحد ذاته ليس خيرا كله ، ان أغرى بالفتور والطمأنينة ، والحرب بحد ذاتها ليست شرا كلها ، ففى بلايا الحرب تقتحم العقول أبوابا كانت موصدة ، وتخرج خيرا لا شك فيه ولكن تدمير الحرب وفتكها جعلا كل رجاء بحل هذه المشكلات ، مرتبطا أوثق ارتباط بتوفير قسط من السلام .

ألق نظرك على المال الذى ينفق فى التسلح ، وعلى ألوف العلماء والصناع الذين ينفقون قدرتهم العلمية ووقتهم ، فى استحداث الأسلحة وصنعها ؟ ولو أنفق بعض هذا وكفى فى زيادة الانتفاع بموارد الأرض ، والغلبة على الأمراض المستعصية ، لكان الناس أيسر حالا وأنعم ، ومازلت أذكر كلمة قالها عالم طبيب لوزير فى

أعقاب الحرب العالمية الأولى : اعطونا المال اللازم لبناء بارجة واحدة ، وأنا الكفيل بقهر السرطان .

ولكن كيف تستطيع الدولة — أية دولة — أن تفعل ذلك مادامت تستشعر الخوف على كيانها وكل عزيز عليها ؟ فلذلك ينبغى لكل سياسى يحمل تبعة الحكم ، أن يطلب كل وسيلة خليقة أن ترفع الكابوس الذى يقض مضاجع الناس ، وتضمن لهم شيئا من الطمأنينة ؟

كانت الدولة فيما مضى تعتمد فى ضمان سلامتها على قوتها وحدها ، أو على قوتها وقوة من تحالف ، فلما انتهت الحرب العالمية الأولى ، ارتفع الى المقام الأعلى فى تفكير الناس مبدأ « السلامة المشتركة » أو « الأمن الجماعى » وهو وليد حقيقة العمران الحديث ،الذى لا يتجزأ فيه السلام ولا الأمن ولا الرخاء ، وعلى ركنه قامت عصبة الأمم ، وعلى صخرته تحطمت ، أما الأمم المتحدة ، فقد كان ميثاقها أوفى من ميثاق العصبة اذ أجرى ضمان الأمن وتوفير الرخاء فى عنان واحد .

بيد أن ابرام الميثاق لم يكن مستطاعا لولا الاتفاق على مبدأ اجماع الدول الخمس الدائمة فى مجلس الأمن — أى حق « الفيتو » . وقد حال التوسل بهذا الحق دون الوصول الى نتيجة مجدية فى كثير من صغائر الأمور وجلائلها . ولو كانت روسيا ممثلة فى مجلس الأمن يوم غزو كوريا الجنوبية ، لما استطاعت الأمم المتحدة أنتعمل شيئا من حيث هى « الأمم المتحدة » . واذا لم يكن بد من تطبيق مبدأ السلامة المشتركة ، فلا غنى عن تفادى العرقلة والعقم اللذين يفضى اليهما « الفيتو » ولما كان

الاتحاد السوفيتى هو الذى توسل بهذا الحق أربعين مرة أو تزيد ، فان مبدأ الأمن المشترك يبقى معلقا — فى أغلب الحال — على كلمة يقولها ممثله فى مجلس الأمن ، أو ممثل أية دولة كبيرة تحدثها النفس بالالتجاء الى حق «الفيتو» فى عرقلة العمل على مقاومة عدوان وقع . أى أن مجلس الأمن لا يستطيع أن يقرر رد عدوان ما الا اذا رضى ممثل السوفيت — أو ممثل أية دولة كبيرة أخرى — أن يعده عدوانا !

هذا منبت المشروع الذى عرضه الوزير أتشيسون على الأمم المتحدة فى دورتها هذه ، وقد أطلق عليه وصف : « العمل المشترك لصون السلام » .

وهو يلخص بعد تعديله فى أربعة مقترحات : الأول — أن تدعى الجمعية العمومية الى الاجتماع فى خلال أربع وعشرين ساعة اذا أعجز « الفيتو » مجلس الأمن عن اتخاذ قرار فى موضوع عدوان صريح وقع . وللجمعية أن تدعى بناء على طلب أكثرية الأعضاء ، كما كانت الحال ، أو بناء على طلب سبعة من أعضاء مجلس الأمن ، وهو طلب لا يخضع لحق « الفيتو » . الثانى — انشاء «لجنة مراقبة للسلام» مؤلفة من أربعة عشر عضوا ، فتشخص الى مواقع الخطر بأمر من مجلس الأمن أو الجمعية العمومية ، فتستطلع الحال وتقدم تقريرا عنها . الثالث — دعوة الدول الأعضاء الى تقدير مواردها وتقرير مدى ما تستطيع أن تسديه من مساعدة لتنفيذ توصية مجلس الأمن أو الجمعية العمومية « لاعادة السلام الدولى والأمن الى نصابهما » وأن تعد عناصر فى قواتها المسلحة تتيحها وفقا لدستورها وقوانينها للانتظام فى وحدة أو وحدات تابعة للأمم المتحدة . الرابع — انشاء

لجنة مؤلفة من أربعة عشر عضوا تتولى تنظيم العمل وتوجيهه بمقتضى البند الثالث وتقدم مقترحاتها الى مجلس الأمن والجمعية العمومية قبل أول سبتمبر ١٩٥١ .

ليس فى هذه المقترحات شىء جديد حقا ، فعقم مجلس الأمن خلال السنوات الماضية ، حمل كثيرين من رجال الفكر والسياسة على تدبر ما يمكن . وقد يطول الجدل بين أرباب الفقه الدولى على بعضها ، وهل فيها تجاوز لنصوص الميثاق ، وهل الجمعية العمومية هى خير هيئة فى الأمم المتحدة للنهوض بهذه التبعة . فقد تجنح الجمعية الى قرار ما فى سورة من الحماسة دون نظر دقيق الى حقائق القدرة على التنفيذ ، وعرف التكتل فيها يتيح لكتلة ما أن تحول بين الجمعية واتخاذ قرار بأكثرية الثلثين المنصوص عليها .

وقد يذهب الأمل ببعضهم الى أن هذا المشروع وقد أقرته الجمعية العمومية ، خليق أن يصنع المعجزات كلما وقع مجلس الأمن فى مأزق . والحقيقة أن حدوده بينـــة ، فتوصية التوسل بالقـــوة لا تجوز الا بعد وقوع العدوان ، وعقبات حشد القوة وتنظيمها وسرعة الانتفاع بها كثيرة والمشروع على كل حال لا يغير الحقيقة القائمـــة وهى أن التبعـــة فى مقاومة عدوان كبير تقع على الدول الكبيرة ، فليس فيه جدوى ان لم تتفق جميع هذه الدول . ولذلك جاء اقتراح العراق وسوريا باجتمـــاع الدول الخمس الكبيرة لتسوية ما بينها مكملا للمشروع . ولعل أعظم فائدته اليوم هو أنه اعتراف من خمسين دولة وافقت عليه بأن السلامة المشتركة ينبغى أن تكون على أساس عالمى ، وأنه وسيلة خليقة أن تحطم الأغلال التى تغل أداة نافعة ، كمجلس الأمن ، عن العمل المجدى .

أنا الطاقة الذرية

أنا الطاقة الذرية

١ — بين خطرها ونفعها	٦ أغسطس	١٩٤٩
٢ — سبب الخيبة	١٤ يونيـو	١٩٤٨
٣ — طورها الجديد	١١ أكتوبر	١٩٤٩
٤ — روسيا بين المعرفة والقدرة	١٧ أكتوبر	١٩٤٩
٥ — التوازن العالمى الجديد	٢٦ أكتوبر	١٩٤٩
٦ — القنبلة فى عام	٢٧ ديسمبر	١٩٤٩
٧ — قنبلة ذرّية أخرى	٢١ مارس	١٩٥٠
٨ — قيمـة الاتفاق	٢٥ مارس	١٩٥٠

بين خطرها ونفعها

في مثل هذا اليوم منذ أربع سنوات ، استيقظ العالم على أصداء دمدمة القنبلة الذرية ، التى تفجرت فوق مدينة هيروشيما اليابانية ، فدمرت معظم مبانيها وأهلكت عشرات الألوف من أبنائها ، وقد روّع الناس على الرغم من فرحهم بأن هذه القنبلة تدنى الحرب العالمية الثانية من ختامها ، فقد أدركوا بفطرتهم أن البشر قد صنعوا لأنفسهم سلاحا مدمرا لا عهد لهم بمثله ، فاذا لم يؤتوا الحكمة فى سياسة أمورهم ، فالدنيا كلها تظل قائمة على فوهة بركان يغلى جوفه ويمور ، ثم لا يدرى أحد متى يقذف فى الفضاء بحممه وناره ، ويفيض على جوانب كأسه من جحيمه المتسعر .

ولكن الناس راجعوا أنفسهم فتذكروا ما قاله العلماء عن الانتفاع بطاقة الذرة فى توليد القوة المحركة ، وقرأوا عما صنعوه حقا من تحويل حرارة النشاط الذرى الى قوة محركة . ثم طالعوا أنباء تحير العقول عن نفع ذرات يولدها الانشطار الذرى ، فى مباحث الطب ، وشفاء الأمراض ، واماطة اللثام عن أسرار مشكلات لم يزل أهل الزراعة يعانون عواقبها وعلماء النبات يستكشفون أسرارها منذ زمن بعيد .

فصار الناس ، بين الخوف من خطر الطاقة الذرية ، ورجاء

الانتفاع بها ، فى حيرة وقلق • ولكن حيرتهم لم تطل ، فقد أدركوا أن البحث الذى يكفل الانتفـاع هو بطبيعته بحث يطول وأن القنبلة الذرية نفسها قد تحسم الأمر قبل أن تتاح الفرصة الكافية لهذه المباحث حتى تجدى جدواها •

فلذلك اشتدت الدعوة الى تبصير الناس بالعواقب ، والى بذل السعى القوى المتصل ، لانشاء عالم لا يحتاج النـاس فيه الى استعمال القنابل الذرية فى صراع يدور بين طوائفهم • وقد ذهب العلماء ورجال الحرب الى أن العقل البشرى لا يستطيع أن يتصور الآن ، ولا هو خليق أن يتصور فى المستقبل المنظور ، وسيلة فنية تكفل الدفاع الكامل أو الوقاية التامة من خطر القنبلة الذرية • فاذا كان الدفاع الفنى الحربى لا يجدى سوى بعض الجدوى ، فأين نلتمس الدفاع ؟ وهل ينبغى أن يستسلم الناس الى القنوط من وسيلة تجنبهم أن تذهب أرواحهم فى موجة طاغية من الضغط الساحق ، وسحابة متقدة من النار والاشعاع — كما حدث منذ أربع سنوات ؟

فلما مضوا يتلمسون طريقة للخلاص ، اختلف الرأى ، منهم من دعا الى انشاء حكومة عالمية لها سلطان القانون على جميع الأمم ، ومنهم من ذهب الى أن هـذا الرأى على قوة منطقه بعيد المجنى ، والمشكلة التى يواجهها العالم ملحة غاية الالحاح ، فاقترح هؤلاء انشاء لجنة خاصة بالطاقة الذرية تضع نظـاما وتتولاه ، فيكفل هذا النظام السيطرة على الانتفاع بها ، ويمنع استعمالها فى صنع الأسلحة الذرية •

ولكن روسيا خالفت هذا الرأى • وما زلنا منذ ثلاث سنوات

أو تزيد تشهد النضال بين الفريقين •

فالخلاف على موضوع الطاقة الذرية ، وانشاء نظام للرقابة الدولية عليها ، حتى يجنى نفعها ويجنب النـاس ضرها ، ليس بالموضوع الجـديد • فقد أنشئت لجنة الطاقة الذرية ثم بدأت أعمالها فى مارس ١٩٤٦ ، ومنذ ذلك اليوم ، والخلاف قائم بين رأيين • أما الرأى الأول فهو رأى الجماعة التى تشايع الولايات المتحدة فيما تذهب اليـه ، وهو ضرورة انشاء نظـام للرقابة والاشراف ، لا يتقيد القائمون عليه بحدود الدول ، ولا يخضعون لحق الفيتو ، فاذا تم ذلك أباحت الولايات المتحدة على مراحل ، ما عندها من أسرار صنع القنبلة وأحالت مصانعها الى هذه الجماعة ، وتكون خاتمتها مرحلة تدمير جميع القنابل التى فى حوزتها ، ومن ثم تمضى هذه الجماعة على سننها ، تعنى من ناحية بالاستيثاق من أن الطاقة الذرية لا ينتفع بها فى دولة ما من أجل الحرب ، ومن ناحية أخرى ، بتشجيع البحث على الانتفاع بالطاقة الذرية فى الصناعة والنقل والطب والزراعة ، وما أشبه • وأما الرأى الثانى ، فرأى روسـيا والدول التى تسبح فى فلكها ، فقد حرصت منذ العهد الأول على المطالبة بتدمير القنابل الذرية الموجودة أولا ، ثم وضع نظام للاشراف والمراقبة ، ولم ترض بأن يخرج أى قرار فى أية مسألة خاصة بهذا النظـام على الخضوع لحق الفيتو فى مجلس الأمن •

وهذا الخلاف الذى كان بينا منذ أواسط ١٩٤٦ ، استحكم حتى صار مأزقا لم يوجـد مخرج منه ، فاذا رأى لجنـة الطاقة الذرية فى آخر سنة ١٩٤٧ ، أن لا جدوى من مواصلة البحث ،

فقررت أن تكف عن العمل ، فلما وضع موضوع الطاقة الذرية فى رأس جدول اللجنة السياسية فى باريس ، فى أواخر سبتمبر (١٩٤٨) اشتد القلق لأن ذلك وافق استفحال أزمة برلين ، فأدرك الناس ، أن للموضوع ، بعد البحوث الفقهية الأولى صلة وثيقة بحياة الناس وفنائهم ، ولم تنته اللجنة الأولى الى حل يرضى يومئذ ، ولكنها انتهت الى قرار يوصى اللجنة بأن تواصل عملها ولا تكف .

وخلاصة الموقف الآن أن امريكا تعلم أن السر العلمى فى توليد الطاقة الذرية معروف لروسيا ، وأن السر « الصناعى » ان لم يكن معروفا كله فلا ريب فى الكشف عنه ان عاجلا وان آجلا ، وان صنع القنابل الذرية شىء بطىء لا يتعدى فى أمريكا نفسها على ضخامة صناعتها عددا يسيرا كل شهر . فالذى تجمع عندها منذ سنوات ، لا يمكن اللحاق به بسرعة ، فتدميره مقابل وعد وحسب ، شىء لا ترى الحكومة الأمريكية حكمة فى النزول عليه ، ما لم يعقد اتفاق على الرقابة الدولية يجتاز مراحل معينة تثبت انه اتفاق مجد ، فاذا ثبت ذلك دمرت الولايات المتحدة الأسلحة الذرية التى صنعتها .

وكانت روسيا قد اقترحت بلسان فيشنسكى فى باريس عقد اتفاقين ، أحدهما اتفاق الرقابة ، والآخر اتفاق تحريم الأسلحة الذرية ، على أن يوقعا وينفذا فى وقت واحد . فالأول يحقق ما تطلبه أمريكا فى مبدأ الرقابة ، والثانى يحقق ما تطلبه روسيا ، وهو تدمير ما تجمع عند أمريكا من الأسلحة الذرية .

وقد خذل هذا الاقتراح غير مرة منذ أذيع فى باريس رغم

ما يبدو على ظاهره من لين روسيا ورغبتها فى التفاهم • وسبب خذلانه أن أمريكا وصاحباتها رأت أن اتفاق التحريم متى نفذ — أى متى دمرت الأسلحة الذرية المصنوعة — فلا رجعة فيه ، وأما اتفاق الرقابة ، فخليق بالدولة التى تريد أن تحبطه أن تنتحل لذلك شتى المعاذير ، فان كانت روسيا هى تلك الدولة — وهى المقصودة — فتوقيع الاتفاقين وتنفيذهما فى وقت واحد ينيلها ما تريد من تدمير الأسلحة الذرية التى صنعت وتراكمت ، ثم يدع لها مجالا ، ان شاءت لاحباط الاتفاق الآخر •

بيد أن بحث الطاقة الذرية قد أخذ ينتقل الى ميدان آخر ، وقد بدأ فريق من أهل الرأى يزن نفعها وخطرها بميزان جديد •

وأساس الرأى عند هذه الجماعة ، أولا ، كتاب أصدره عالم بريطانى ممتاز ، وثانيا ، اطراد الثقة بين الباحثين العلميين بدنوهم من الانتفاع بالطاقة الذرية ، فى توليد الطاقة المحركة النافعة •

أما الكتاب فصاحبه الأستاذ بلاكيت الانجليزى • وهو فى آرائه السياسية أقرب الى اليسار المتطرف ، ولكنه عالم ذو قدم راسخة فى العلم ، وقد ظفر بجائزة نوبل فى علم الطبيعة من أجل بحثه فى الأشعة الكونية ، وكان له شأن عظيم فى دراسة الوسائل العلمية فى مكافحة خطر الغواصات • وقد بسط رأيا له فى القنبلة الذرية ، من حيث هى سلاح حربى ، فأقام ما ظنه دليلا كافيا على قلة جدواها ، وعلى عدم تعرض أمريكا لهجوم روسى عليها بالقنابل الذرية ، وأن القنبلة الذرية كالغازات الحربية السامة لن يجرؤ أحد على استعمالها ، واذن فالولايات المتحدة قد أخطأت فى اقامة سياستها فى الطاقة الذرية على القنبلة الذرية وحدها •

ولرأيه تفصيل فنى دقيق لا يتسع له هذا المجال • ولكنه فى مجمله ، ولا سيما فيما يقوله عن جدوى القنبلة الذرية فى الحرب، يخالف الرأى الذى لم يزل يسود الدوائر الحربية فى الغرب • وقد وجه اليه نقد كثير • فهذه الدوائر تنكر دقته أشد انكار ، وتنكر له خاصة لأن النتائج التى يخلص اليها من مقدماته ، هى أقرب الى الرأى الروسى فى مشكلة الأسلحة الذرية منها الى الرأى الأمريكى •

ولن أحاول هنا أن أفاضل بين الرأيين • وحسبى أن أقول ان رأى بلاكيت له أنصار وان كانوا لا يزالون فئة قليلة •

أما الناحية الثانية فى الميزان الجديد ، فهى ازدياد الأدلة على امكان الانتفاع بالطاقة الذرية فى توليد القوة اللازمة للصناعة والنقل وغيرهما •

والذين يعنون بهذه الناحية يقولون ان المادة التى تدخل فى صنع عشرين قنبلة تكفى لتوليد قوة كهربائية تكفى الولايات المتحدة كلها أسبوعا كاملا •• ثم يضيفون ، أن الصين مثلا لا تزال تعتمد على عضلات النــاس والحيوان فى توليد ٧٠ فى المئة من الطاقة التى تستعملها • وطاقة العضلات يولدها الطعام ، والطعام مصدر لعله أغلى مصادر الطاقة وأقلها جدوى ، فاذا أريد للبلاد التى لم تزل متخلفــة فى نموها الاقتصــادى أن تنمو مواردها ، فينبغى أن توفر لها طاقة زاخرة رخيصة ، ومن هذه الموارد الأنهار التى تنشأ عليها محطات توليد الطاقة الكهربائية ، ومناجم الفحم وآبار الزيت ، على أن الطاقة الذرية أهم منها جميعا فى نظر هذه الفئة من المفكرين وأنفع • فكل ما يحتاج اليه العــالم كله من

الطاقة فى السنة يمكن توليده من مليونى رطل من اليورانيوم ، وأقل مقدار من اليورانيوم ثبت وجوده فى مقادير اقتصادية يبلغ مئة مليون رطل ، أى أن المقدار الذى ثبت وجوده يكفى العالم خمسين سنة ، وهناك مقادير أخرى كبيرة معروفة ولكن كلفة استخراجها أعظم ، والبحث عن اليورانيوم مستمر ، وفى رمال ترافنكور فى الهند ، وأرض البرازيل وبعض ولايات أمريكا مقادير من الثوريوم تزيد على مئة مليون رطل ، والثوريوم يصلح لتوليد الطاقة الذرية فى أحوال خاصة .

أى أن موارد الطاقة الذرية كما نعرفها اليوم ، يوجد منها ما يكفى حاجة العالم الى الطاقة قرنا أو أكثر .

واذن ، ينبغى لنا فى رأى هؤلاء ، أن ننصرف عن الغلو فى الحرص على القنبلة الذرية والأسلحة الذرية ، وتقديم شأنها ، عند النظر فى شئون الطاقة الذرية ، وأن تفتح ميادين البحث فى الطاقة الذرية على مصاريعها ، حتى يستطيع العلماء أن يحسنوا وسائل الانتفاع بها ، فيتاح لأقطار العالم مصدر مجد رخيص للطاقة المحركة ، فيفضى ذلك الى الخير العام .

والرأى القديم يزن الطاقة الذرية بميزان القنبلة أولا ، وأما الرأى الجديد فيزنها بميزان الطاقة المحركة المجدية التى تتيحها . ولا يزال الرأى القديم أغلب ، لأن « سوء الظن » و « تضعضع الثقة » و « الخوف » لا تزال غالبة .

هذا مع الأسف هو خلاصة أربع سنوات مريرة من تاريخ المساعى التى دارت حول أعظم قوة وضعت فى أيدى النـاس ، فكأن الطاقة الذرية ، انما جاءت لتمتحن الناس . ورجاء المستقبل

اليوم ليس معقودا بمجرد اتفاق على الطاقة الذرية ترتضيه روسيا وأمريكا ، بل هو معقود بتسوية عامة تدل على تغير النفوس فتتيح للطاقة الذرية أن تتخذ مكانها الحق فى حضارة لا غنى لها عن القوة المحركة ، فان تم ذلك فيومئذ تحل مشكلة الطاقة الذرية من تلقاء نفسها وعلى أوفى وجه وأجداه •

سبب الخيبة

بين المشكلات الكثيرة التى عهد الى هيئة الأمم المتحدة فى علاجها ، مشكلة نزع السلاح أو خفضه أو اخضاع صنع بعضه لرقابة دولية • وهى مشكلة ظلت عصبة الأمم تعالجها سنين كثيرة، دون أن تقضى من علاجها وطرا • فقد تعددت بينها وجوه الخلاف فى الرأى حتى أربت على وجوه الاتفاق • وظل البحث دائرا على غير جدوى حتى كان يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، فخرج ممثل هتلر من مؤتمر نزع السلاح ، فقبر الموضوع وجعلت الأمم تتبارى فى تعزيز سلاحها على تفاوت بينها فى صدق العزم وسعة البذل ودقة التنظيم •

وما عجزت عنه عصبة الأمم ، عهد به الى هيئة الأمم المتحدة ، فكان عجزها حتى الآن ، أتم وأعظم خطرا •

وهو أعظم خطرا لأن بين أسلحة اليوم سلاحا لم يكن عند الأمم مثله فى أيام العصبة — سلاح الطاقة الذرية • فهو سلاح مدمر مهلك يستمد قوته من القوة التى تحرك الشموس وتضيئها. وقد أجمع أهل العلم والحرب معا على أن العقل البشرى لا يستطيع اليوم أن يتصور وسيلة ترد هذا الهلاك كما يفعل المدفع المضاد

للدبابات أو السلك المكهرب الذى يمنع تفجر اللغم المغنطيسى •

وقد أنشأت الجمعية العمومية للأمم المتحدة لجنتين ، احداهما لجنة الطاقة الذرية وثانيتهما لجنة الأسلحة المألوفة ، ولكن اللجنتين كلتيهما كفتا عن العمل أو فى حكم من كفَّ ، فالأولى ظلت توالى الاجتماع والبحث خلال سنتين ، ولكنها بلغت فى العهد الأخير مأزقا لم تر مخرجا منه ، فرأت أن مواصلة البحث الآن عمل لا جدوى منه • والثانية لم تكد تصنع شيئا ، بل عجز أعضاؤها عن الاتفاق على قواعد العمل وسيره •

وسبب الخيبة فى الحالين هو فقدان الثقة بين الدول • فمن البين أن الخلاف بين الدول قد يبلغ مبلغا يقتضى أن يحسم بالقوة، سواء أكان السلاح عصيا ونبابيت أم كان دبابات وبوارج وقاذفات وقنابل ذرية • وليس ثمة ريب فى أن دول الكتلتين لم توفق الى الاتفاق على شىء وان هان — كمثل تعيين حاكم على منطقة تريسته ، فكيف بها فى المسائل الخطيرة الكبيرة مثل مستقبل ألمانيا واليابان • واذا أردت الدليل فانظر الى أمريكا كيف سرحت قوتها الحربية ، تسريحا يكاد يكون كاملا ، ثم لما اشتدت الأزمة الدولية منذ ثلاثة أشهر ، عمدت الى شىء لم تفعل مثله من قبل ، فى أيام السلام ، فأرصدت الوف الملايين من الدولارات لتعزيز قوتها الحربية ، وفرض التجنيد الالزامى •

فالبحث فى خفض السلاح ، والجفاء بين الدول الكبيرة هو ما هو ، لا يمكن أن يسفر عن اتفاق يرضى الطرفين • فجل اعتماد روسيا على قوتها البرية ، وجل اعتماد أمريكا على أسطولها وسلاحها الجوى • ومن ذا الذى يستطيع والريب تساور النفوس ،

أن يضع خطة لخفض السلاح ، ولا ترى فيها كل دولة من الدولتين مزية لخصمها عليها •

وربما كان استئثار الولايات المتحدة بالقنبلة الذرية ، باعثا يضاف الى جميع البواعث المعروفة التى جعلت الاتفاق على خفض السلاح شيئا مستحيلا •

وفى طليعة البواعث المعروفة نجد الخلاف على مسألة الرقابة • فكل معاهدة تعقد لخفض السلاح ، تثير هذه المشكلة ، أتخفض الدول التى وقعت الاتفاق أسلحتها وفقا للعهود التى قطعتها ؟ أم هى تصنع بعض السلاح وتكدسه فى الخفاء ؟ وقد لا تبلغ مسألة الرقابة مبلغا عظيما من الخطر ، اذا نظرت اليها من ناحية الأسلحة المألوفة • فبضع مئات من الطائرات أو الدبابات أو المدافع ، تضاف الى الأعداد المتفق عليها ، لا تكون حاسمة فى حرب تلتهم العدد التهاما ، وتقتضى من رجال الصناعة أن يصنعوا منها الوفا وعشرات الالوف • ولكن الرقابة على الأسلحة الذرية ، شىء لا غنى عنه فاذا اتفقت الدول على الامتناع عن صنع القنابل الذرية ، ثم لم تلتزم احداهن الاتفاق وصنعت فى الخفاء بضع قنابل وحسب ، فهذه القنابل كفيلة بأن تكون القوة الفاصلة فى الحرب •

فالرقابة على الأسلحة الذرية هى الصخرة التى تحطمت عليها جميع المساعى التى بذلت لانشاء نظام دولى للطاقة الذرية ، يتيح مواصلة البحث فى منافعها ، دون التعرض لخطر الأسلحة التى تصنع منها • وأكبر التبعة فى هذا الاخفاق واقع على روسيا • فهى التى امتنعت أولا عن قبول مبدأ الرقابة والتفتيش الذى قبلته الدول الأخرى ، ثم قبلته ولكنها أبت أن تمنح الهيئة المشرفة

السلطة الوافية التى تكفل لها القدرة على القيـام بمهمتها ، ثم أبت أن تنزل عن حق « الفيتو » فى عقاب الدولة المخالفة .

ومن أعسر الامور أن نعرف اليوم أى الدول — عدا الولايات المتحدة — وقد ملكت ناصية المعرفة العلمية والقدرة الصناعية التى لابد منها لصنع القنابل الذرية . وقد كان الرأى منذ ثلاث سنوات أن روسيا خليقة أن تصبح قادرة على صنع القنبلة الذرية فى حدود سنة ١٩٥١ — أى بعد انقضـاء خمس سنوات على هيروشيما .

وأما الولايات المتحدة فلم تخف انها ماضية فى صنعها ، وانها جربت ضروبا جديدة منها منذ عهد قريب ، وان التجربة أسفرت عما يرضى .

بيد أن رجال الحرب يقولون : اذا اجتاحت روسيا أوربا الى سواحلهـا الغربية — وهـذا فى وسـعها الآن ، فلن يستطيع الأمريكيون أن يلقوا قنـابلهم الذرية على مدائن أوربا ، وغاية ما فى الأمر ، أن يرسلوا قاذفات بعيدة المدى الى مراكز الصناعة الحربية الروسية ، ومنطقة موسكو لم تزل أعظمها شأنا .

والرأى عندهم ، ان القنابل الذرية لا تجدى كثيرا ضـد الجيوش فى الميدان ، فلا بد للدول من أن تستعين بمقادير كبيرة من الأسلحة المألوفة ، مراعية التقدم الذى طرأ عليها منذ وضعت الحرب أوزارها ، كما تفعل روسيا وأمريكا . وأما الدول الأوربية الغربية المنهمكة فى اصلاح حالها الاقتصادى ، فتطلب العون فى السلاح من أمريكا ، وقد تلفى نفسها مضطرة أن تحول جانبا غير يسير من مواردها ونشاطها الى التسلح ، فيتعثر انتعاشها تعثرا .

وهذا التعثر كفيل بأن يديم الأحوال الاجتماعية التى تجعل الناس عرضة للتأثر بوعود الشيوعيين وان كانت وعودهم برقا خلبا .

طورها الجديد

بين اليوم السادس من شهر أغسطس ١٩٤٥ واليوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٤٩ أربع سنوات وأسبوعان وثلاثة أيام ، ففى أول اليومين أعلن ترومان أن قنبلة ذرية قد ألقيت على هيروشيما ، وفى ثانيهما أعلن أن لدى أمريكا دليلا على أن انفجارا ذريا قد حدث فى روسيا ، وقد اتفق وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى اليومين كليهما ، فعنيت فى الحالين بالاطلاع على ما كتبته الصحف الأمريكية فى الموضوع ، وما أكثر ما كتبت، وبالاتصال ببعض الذين يعرفون شيئا من دخيلة الموضوع فخيل الى أن اليوم الأول بدا عهدا فى تاريخ الطاقة الذرية ، يصح أن نصفه بعهدها الثالث ، وان اليوم الثانى كان خاتمة ذلك العهد وبداية عهد جديد .

بدأ العهد الأول فى سنة ١٩٠٥ يوم أذاع اينشتاين نظريته فى النسبية وضمنها معادلته المشهورة ان الطاقة تعدل مربع الكتلة مضروبة بسرعة الضوء ومعنى هذا القول ان تلاشى قدر قليل من المادة يولد قدرا عظيما من الطاقة . ودأب العلماء على السعى الى اقامة الدليل المادى على صحة هذه المعادلة ، الى أن وفق رذرفورد الى شيء منه فى سنة ١٩١٩ وتلاه علماء آخرون حتى تم شطر ذرة اليورانيوم فى يناير سنة ١٩٣٩ ، فاتصل البحث من يومها لاستطلاع الوسائل التى تمهد للانتفاع بهذه الطاقة فى الحرب ، ان كان

الانتفاع بها ممكنا على الاطلاق ، وفى ٢ ديسمبر ١٩٤٢ تم صنع فرن ذرى فى جامعة شيكاغو جرى فيه تفاعل متسلسل فى نوى ذرات اليورانيوم ٢٣٥ ، وانطلقت طاقة كبيرة وكان الفعل كله خاضعا لسيطرة العلمــاء فكان ذلك اليوم خاتمة الطور الأول ، واقترح بعضهم أن يجعــل يوم ٢ ديســمبر ١٩٤٢ أول يوم فى تقويم العصر الذرى .

ومن ثم دأب علماء الحلفاء الذين ظفروا باطلاق الطاقة الذرية على وجه خاضع لسيطرتهم ، على حل جميع المشكلات العلمية والصناعية المعقدة التى تتيح لهم أن يصنعوا قنبلة ذرية ، فصنعوها وجربوها فى ١٦ يوليو ١٩٤٥ ثم ألقيت اختها على هيروشيما ، وكان ما كان .

كان الرأى منذ أن ألقيت قنبلة هيروشــيما ، ان سر القنبلة الذرية لا يمكن أن يظل محصورا فى الذين صنعوها الى أبد الدهر ، فالحقائق العلمية الأصيلة معروفة ، والحقائق التى تفرعت عليها نشر معظمها فى التقرير الرسمى الذى وضعه سمايذ الأستاذ فى جامعة برنستون ثم أضيفت اليهـا حقائق نشرت فى محاضرات وكتب أو جمعها الجواسيس ، وكل دولة صناعية كبيرة تستطيع ، ان عاجلا أو آجلا ، أن تحــل المشكلات الصناعيــة التى لا غنى عن حلها لصنع القنبلة الذرية ، واختلف تقدير الزمن الذى ينقضى قبل أن تصنعها روسيا ، بين ثلاث سنوات وعشر سنوات ، وغلب الرأى بأن سنة ١٩٥٢ هى الســنة التى يحتمل أن تتوصل فيها روسيا الى صنع القنبلة ، وقد كان هذا التقدير خاطئا لأنه قام على فرض أن روسيا لم تعرف شيئا عن احتمال صنع قنبلة ذرية ،

الى أن أذيع نبأ قنبلة هيروشيما ، فجاء نبأ صنع القنبلة الذرية فى روسيا ثلاث سنوات قبل الموعد المقدر .

فالتصريح الذى أذيع باسم الرئيس ترومان فى صباح ٢٣ سبتمبر ، يدل على أن روسيا قد أدركت على الأقل ما أدركته جماعة العلماء الأمريكيين فى ١٦ يوليو ١٩٤٥ . فتاريخ التصريح يعد ، بشىء من التحفظ ، نهاية الفترة التى بدأت فى يوليو وأغسطس ١٩٤٥ ، وكانت القنبلة الذرية فى خلالها احتكارا أمريكيا .

وأقول مع « التحفظ » قصدا ، لأن مولوتوف أعلن فى نوفمبر ١٩٤٧ أن سر القنبلة الذرية لم يعد سرا منذ زمن ولأن فيشينسكى صرح فى أول أكتوبر ١٩٤٨ فى باريس بأنه من الخطر أن تفرض أمريكا أنها محتكرة للقنبلة الذرية . والتاريخ وحده كفيل بأن يبين متى وفقت روسيا أول مرة الى صنع قنبلة ذرية .

بل لسنا نعلم اليوم أكان « الانفجار الذرى » الذى أشار اليه ترومان فى بيانه انفجار قنبلة ذرية تامة التكوين ، أم كان انفجار كتلة من اليورانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم ، بلغت الحد الأدنى الذى لاغنى عن بلوغه لكتلة من أحد العنصرين حتى تنفجر ، ولكن أغلب الرأى العلمى ، أن الرئيس ترومان لم يستعمل لفظى « انفجار ذرى » الا بعد استشارة العلماء ، وان اللفظين فى هذه الحال لا يمكن أن يعنيا شيئا ما سوى تفجر قنبلة ذرية . وسبب هذا القول ، أن علماء نواة الذرة يعرفون نوعين من التفاعل المتسلسل الذى يولد الطاقة الذرية من نوى ذرات يورانيوم ٢٣٥ وذرات البلوتونيوم ، أحدهما التفاعل المتسلسل الخاضع لسيطرة العلماء

وهو يتم بنترونات بطيئة لا تزيد سرعتها على ميل فى الثانيـة ، والثانى تفاعل متسلسل بنترونات سريعة تفوق سرعتها ١٠ آلاف ميل فى الثانية ، ولا يخضع لسيطرة أحـد متى بدأ • فالتفاعل الأول لا يحدث انفجارا ذريا كالذى يحدث فى القنبلة الذرية ، وأما الثانى فيفعل • نعم من الجائز أن ينفجر فرن ذرى فيه مقدار كبير من المادة المتفجرة ، نتيجة لاهمـال أو خطأ فى التصميم ، فيولد حرارة عظيمة ان لم تنصرف بطريقة ما ، أحدثت انفجارا فى المصنع ، ولكن هذا الانفجار لا يجوز أن يسمى « انفجارا ذريا » بالمعنى العلمى المقصود ، ولا يحتمل أن يظهـر أثر المواد المشعة التى تنسف فى الانفجار ، فى مدى واسع ، وعلى مسافات بعيدة •

ولا نعرف كيف استطاع أعوان ترومان وعيونه أن يتبينوا حدوث انفجار ذرى ولكنهم تبينوه على الأغلب بأجهزة دقيقة تتبين زيادة المواد المشعة فى الهواء • وقد قال لى رجل على اتصال وثيق بهذه الموضوعات ، فى دار الأمم المتحدة : تستطيع أن تقول هذا ، ولا تخطىء خطأ كبيرا •

ذلك بأنه اذا حدث انفجار ذرى ، تكونت غيمة ضخمة حافلة بدقائق المواد المشعة التى يولدها الانفجار ، وترتفع هذه الغيمة الى ٥٠ ألف قدم أو ٦٠ ألف قدم ثم تأخذ فى الانتشار • وقد ثبت بعد أن فجرت القنبلة الذرية الأولى ، فى ولاية نيومكسيكو فى ١٦ يوليو ١٩٤٥ ان آثارها الاشعاعية ظهرت بعد أيام فى ولاية ايلينوى ، وهى على مئات الأميـال الى الشـمال من ولاية نيو مكسيكو • ويوم فجرت القنبلة الذرية فى بيكينى فى صيف سنة ١٩٤٦ ظهرت آثارها الاشعاعية فى بحر عشرة أيام على ساحل

أمريكا الغربى الذى يبعد نحو ٤٠٠٠ ميل عن بيكينى •

ويغلب على الرأى أن دراسة التأثير الاشعاعى فى هذه الأجهزة الدقيقة ، حين يكون الجو خاليا من آثار غيمة ذرية ، وحين يكون حافلا بها قد سارت على وتيرة علمية منظمة خلال السنوات الأربع الأخيرة ، حتى صار فى وسع العلماء أن يتبينوا بها زيادة الاشعاع الذى يرتد الى انفجار ذرى •

وقد يضم الى هذه الأجهزة التى تعرف باسم «عدادات جيجر» آثار تسجل على أجهزة تتأثر بارتجاج الأرض وأنباء واشتات أنباء يلتقطها الجواسيس والمخبرون فى كل أرض •

وخليق بالذكر أن الرئيس ترومان قال فى بيانه ان الانفجار الذرى فى روسيا تم فى بحر الأسابيع الأخيرة • فتذكرت أن صحيفة فرنسية كانت قد نشرت فى يوليو الماضى ، يوم كنت فى القاهرة ، أن انفجارا ذريا قد حدث فى روسيا ، وكان الرئيس ترومان قد عقد فى تلك الفترة اجتماعا خطيرا فى « دار بلير » ، مسكنه اليوم حتى يتم ترميم البيت الأبيض ، وقيل انه اجتماع خاص بالطاقة الذرية ، فلم يكن بعيدا أن يعتقد الناس أن للاجتماع صلة بما روته الصحيفة الفرنسية ونقلته مجلة المصور عنها ، فسألت صاحبى فى الأمم المتحدة فى هذا ، فقال ان اجتماع « دار بلير » كان خاصا بما طلبته بريطانيا وكندا من تبادل معلومات القنبلة الذرية مع أمريكا ، وان الانفجار الذى أشار اليه ترومان ، تم بعد يوليو • وقد ذكرت احدى الصحف هنا ، انه تم فى النصف الأول من شهر سبتمبر •

روسيا بين المعرفة والقدرة

ألح على اليوم سؤال ، مؤداه : ما حقيقة ما يزعمه الروس عن ادراكهم سر القنبلة الذرية فى سنة ١٩٤٧ يوم أعلن مولوتوف ذلك فى موسكو فى عيد من أعيادهم القومية ؟ فرحت أسأل هنا وهناك وحرصت على مطالعة كل قصاصة أقع عليها مما تنشره الصحف التى يصح الاعتماد عليها • والرجال الذين نسألهم فى دار الأمم المتحدة ، يتكتمون ويهمسون ، فان بدا لأحدهم أن يقول شيئا قال بعضه ولم ينجز ، ثم يرجوك أن لا تسند القول اليه ، فتلفى نفسك أمام لغز كاللغز الذى تستفتى فيه •

وقد تبينت من المحادثة ومن المطالعة أن السؤال الذى طلبت عنه جوابا ، يفضى الى أسئلة كثيرة ، بعضها تجد عنه الجواب ، وبعضها لا جواب له • حتى لقد قال لى أحدهم ان الرئيس ترومان لم يضمن بيانه شيئا شافيا عن أخطر هذه الأسئلة لأنه على الأغلب لا يعرف شيئا شافيا •

فقد استغرق صنع القنبلة الذرية أربع مراحل من البحث العلمى والصناعة الدقيقة • أما المرحلة الأولى فهى التى استقصى فيها العلماء نواحى طبيعة الذرة ، حتى أدركوا أن عنصر اليورانيوم ٢٣٥ يتفجر فى أحوال معينة ، وكان ذلك فى يناير ١٩٣٩ يوم تم للعالمين هان وشتراسمان الألمانيين شطر اليورانيوم فى ألمانيا ، وقد جرى العلماء فى هذه المرحلة ، على سنة العلماء من نشر المعارف التى يستكشفونها رويدا رويدا ، فعرفها الروس كما عرفها غيرهم من علماء البلاد الأخرى •

أما المرحلة الثانية ، فكانت كشف المعارف العلمية التى تتيح التقدم فى طريق اطلاق الطاقة الذرية ، على وجه خاضع لسيطرة العلماء ، فحاولوا أن يعرفوا كيف السبيل الى تحضير قدر نقى من العنصر المتفجر ، وكيف يمكن صنع البلوتونيوم وفصله عما يخالطه ، وما هو الحد الأدنى للكتلة التى يحدث فيها التفجر . هذه الأسئلة وعشرات غيرها ، أكب العلماء على الاجابة عنها فى كل بلد . وقد حلت فى الولايات المتحدة على أيدى طائفة من العلماء الأمريكيين والبريطانيين والكنديين والايطاليين وغيرهم ، فى السنوات الواقعة بين ١٩٤٠ و ١٩٤٢ على الأكثر ، ونشرت طائفة من الحلول فى تقرير سمايذ الرسمى ، الذى لا يزال من أهم المراجع فى هذا الباب وقد ظهر فى أواخر سنة ١٩٤٥ ، فاذا كانت روسيا تعنى بقولها « أنها كشفت سر القنبلة فى سنة ١٩٤٧ » ، أنها توصلت الى حل هذه المسائل جميعا أو معظمها ، فلن تجد فى قولها شيئا يدهش أحدا من المطلعين على تقدم العلم فى فهم طبيعة نواة الذرة فى السنوات الأخيرة ، وان كان العمل نفسه يعد عملا علميا من الطبقة الأولى .

وأما المرحلة الثالثة ، فهى مرحلة العمل فى المصانع التى تستخرج يورانيوم ٢٣٥ وتصنع البلوتونيوم وتنقى المادتين من الشوائب التى تخالطهما ، وهذا عمل هندسى ضخم كان الفضل الأول فيه ، فى الولايات المتحدة ، لمهندسى الشركات الصناعية والكيميائية والكهربائية الكبيرة ، وهذه المصانع هى التى أعدت ، ولا تزال تعد ، مقادير كبيرة من المادة القابلة للتفجر الذرى .

وتلتها المرحلة الرابعة والأخيرة ، وهى تركيب هذه المادة على

وجه يجعلها تنفجر انفجارا خاضعا فى توقيته لسيطرة الانسان ، وأن يمكن انجاز ذلك فى طائرة محلقة فى الفضاء ، وفى الموعد المضروب •

فروسيا من ناحية ، والولايات المتحدة وحلفاؤها من ناحية أخرى ، بدأتا المرحلة الأولى على حد سواء ، ويغلب على الظن أن أمريكا سبقت روسيا فى تخطى المرحلة الثانية ، ولكن روسيا عبرتها الآن أو ذللت أكبر وعرها • وأما المرحلتان الثانية والثالثة ، أى عمل المصانع التى تعد المادة المتفجرة وصنع الجهاز الذى لا غنى عنه لاعداد القنبلة ، فليس فى بيان ترومان ما يعين الحد الذى بلغته روسيا فيهما • ولا تكاد تفكر فيهما حتى تتوالى الأسئلة على ذهنك : أكان الانفجار الذرى انفجار قنبلة ، أم كان تجربة ذرية فى فرن ذرى ، خرجت عن الطوق ؟ أتصنع روسيا الآن مقادير صغيرة أم مقادير كبيرة من المواد التى تتفجر تفجرا ذريا ؟ واذا كان الانفجار الذى ذكره ترومان هو انفجار قنبلة ، أفتكون قنبلة تامة البنيان تستطيع أن تنقل أجزاءها فى طائرة ، وأن تركبها فى الموعد الذى تضربه لتفجيرها ، وعلى الارتفاع الذى تريد ؟ وهل كانت قنبلة ذات كفاية ، أى تولد أكبر قدر ممكن من الطاقة الذرية ، من المادة التى تتفجر تفجرا ذريا ؟

وكل سؤال من هذه الأسئلة ذو شأن ، فاذا كان التفجر الذرى قد تم فى فرن ذرى ، أو فى مصنع يستخرج فيه العنصر المتفجر فالانفجار الذرى الذى روى خبره ، قد سبب نكوصا فى البحوث الذرية الروسية • ولكن هذا التقدير بعيد الاحتمال • ومعرفة المقادير التى تصنعها روسيا من مواد القنبلة الذرية ، لا غنى عنها

لكل تقدير صحيح . فصنع الفرن الذرى ليس شيئا مستحيلا ، بل ليس شيئا شاقا ، وكل فرن ذرى يصنع شيئا من البلوتونيوم ، واستخلاص البلوتونيوم مما يخالطه صعب ولكنه ليس متعذرا ، بيد أن أخطر الأسئلة فى هذا الباب ، هو مقدار ما تصنعه مصانع روسيا من المادة التى تنفجر تفجرا ذريا . ففى شاتيون بفرنسا فرن ذرى مضى عليه تسعة أشهر صنع فى خلالها قدرا يسيرا وحسب من البلوتونيوم النقى . واذن فمعرفة المقدار الذى تصنعه روسيا من هذا العنصر شيء ضرورى . فثمة فارق كبير بين أن تولد منه فى السنة أو السنتين قدرا يكفى لصنع قنبلة ذرية واحدة ، وبين أن تولد منه ما يكفى لصنع قنبلة ذرية كل أسبوع . فالأول شيء يحسب له حساب كبير .

وكذلك السؤال عن صنع قنبلة تخضع فى تركيبها وتفجيرها لسيطرتك . فكل كتلة من يورانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم تنفجر اذا بلغت حدا أدنى ، فهى بهذا المعنى قنبلة تستطيع أن تضعها فى طائرة ، وأن تطير بها آلافا من الأميال ، ثم تلقيها فوق هدف معين فى موعد مضروب وعلى ارتفاع مطلوب ، فتنفجر كما قدرت لها أن تنفجر .

وأخيرا ، لا يخفى عليك أن جزءا يسيرا وحسب من المادة المتفجرة ، يتلاشى فيولد الطاقة المشعة ، وأما بقية الكتلة فتطير هباء منثورا فى الفضاء . واعداد كتلة من المادة المتفجرة ليس بالعمل السهل ، فضياعها فى الفضاء دون أن تولد أكبر قدر ممكن من الطاقة ، فيه تبذير للمواد التى تصنع منها الكتلة ، والمجهود الذى يبذل فى توليدها أو استخلاصها من الركاز الطبيعى .

وموارد اليورانيوم والثوريوم وهما العنصران اللذان تولد منهما الكتلة المتفجرة ليست وافرة ، ومن هنا كثر الزحام عليها . فالنسبة بين الطاقة التى تولد والكتلة التى تبذر ، هى ما يطلقون عليه « كفاية القنبلة » ، ولم ألق أحدا يزعم أنه يعرف كفاية القنبلة الروسية .

وكذلك ترى أن الاجابة عن السؤال الذى طلبت الاجابة عنه ، ليست ممكنة الآن ، وان كانت الاجابة عن أجزاء قليلة منه ممكنة ، فاذا ألح عليك الاستطلاع ، كما ألح على ، فاقنع الآن كما قنعت ، انك على الأرجح لن تجد أحدا يعرف الاجابة الكاملة غير الروس أنفسهم .

التوازن العالمى الجديد

أفى وسع هذه السلالة من الناس أن تنقذ نفسها من الهلاك الذرى ؟ قل ما تشاء ، وناقش ما تستطيع المناقشة عشرات المسائل التى تطرح للبحث فى الأمم المتحدة وهيئاتها ولجانها المختلفة فلا يسعك بعد أن تفرغ من القول والنقاش ، الا أن تعترف ، بأن الطاقة الذرية ماثلة كالشبح المخوف من وراء كل قول وكل دليل ، وفى قدرة الناس — أو اخفاقهم — على ترويض الطاقة الذرية ، تنطوى جميع المسائل التى تطرح للبحث .

بين اليوم السادس عشر من شهر يوليو ١٩٤٥ واليوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٤٩ توالت أحداث الطاقة الذرية فى ناحيتها الحربية ، آخذا بعضها بأعناق بعض : القنابل التى فجرت فوق مدينتين يابانيتين ثم فى بعض جهات نائية فى المحيط الهادىء ،

للتجربة ، والمقترحات التى أخذ بها فى الولايات المتحدة لاقامة لجنة من المدنيين وصية على الطاقة الذرية فى جميع مراحلها ، ثم المقترحات التى عرضتها الولايات المتحدة على الأمم المتحدة ، لاقامة لجنة دولية ، وصية على الطاقة الذرية فى العالم الأوسع . وقد مضى على هذه المقترحات الأخيرة ، ثلاث سنوات ونصف سنة منذ أن عرضت أول مرة ، ثبت فى خلالها أن روسيا لا ترضى بها ، وأن أمريكا ومن يجاريها لا ترضى بما اقترحته روسيا نفسها ، فكان المأزق .

ولكن سير العلم يحيل كل شىء الى القدم .

فالمقترحات الأمريكية ، وضعت يوم كانت أمريكا محتكرة للقنبلة الذرية ، وما كانت لترضى أن تنزل عن احتكارها حتى تضمن أن النظام الذى اقترحته قد أخذ به بحذافيره ، وهو نظام يؤتيها مزيتين ، أما الأولى ، فان الدول الأخرى لا تملك القنبلة ، وأما الثانية فانها هى لا تدمر قنابلها الا بعد أن يستوى هذا النظام على أسس ثابتة مكفولة ، فكأنها تحتفظ باحتكارها فترة ما ، وتكفل امتناع الدول الأخرى عن مجاراتها فى بحر تلك الفترة . وأما روسيا فلم تكن تملك القنبلة ، وكان يهمها أن تجارى الولايات المتحدة فى ميدانها وأن تسبقها ان كان ذلك مستطاعا فكان لباب مقترحاتها ، أن تدمّر أمريكا جميع قنابلها ، ثم يدور البحث على الوسائل الدولية للرقابة والتفتيش وما أشبه .

ولكن سير العلم فى روسيا ، قد عفى على المقترحين جميعا .

فروسيا اليوم ليست دولة لا تملك القنبلة ، وأمريكا ليست اليوم الدولة التى تملكها دون غيرها من الدول ، واذن فليس لأمريكا

اليوم أن تخشى أن تفقد احتكارا ، دار عليه الزمن ، وليس لروسيا أن تخشى الموافقة على شيء يمنعها من الوصول الى منع القنبلة ، التى كان يؤلمها ويخيفها أن تملكها أمريكا وأن تكون هى صفر اليدين منها .

نعم ان روسيا كانت عرضة لخطر أو لمخاطرة ، يوم أبت أن تقبل المقترحات الأمريكية فى سنة ١٩٤٦ وبعدها ، فقد كانت روسيا يومئذ لا تملك القنبلة ، وكانت أمريكا تملك طائفة منها ، فالخطر الذى كانت روسيا عرضة له يومئذ كان أن تعمد أمريكا الى استعمال قنابلها ، قبل أن تتاح لروسيا فرصة تمهد لها أن تظفر بالقنبلة ، ولذلك عرض جروميكو يومئذ المفاوضة لعقد معاهدة لتحريم القنبلة الذرية ، على أن تدمر أمريكا أولا ما عندها من قنابل مصنوعة . ولكن الرأى الغالب أن جروميكو كان يرى فى صميم نفسه أن أمريكا لن ترضى أن تدمر شيئا يعطيها مزية لامزية مثلها ، وان أمريكا على أكبر التقدير لا تعمد الى المبادرة الى استعمال القنابل الذرية فى حرب تبادىء روسيا بها ، من أجل الاحتفاظ باحتكارها للقنبلة الذرية .

واذن يصح أن يقال أن أمريكا عجزت فى الفترة التى كانت فيها القنبلة احتكارا أمريكيا عن اقناع روسيا بقبول مقترحاتها ، وامتنعت بطبيعة نظامها السياسى ونظرتها الى السياسة العالمية ، عن فرض المقترحات بالقوة .

ولذلك أخفقت جميع المساعى التى بذلت فى لجنة الطاقة الذرية ومجلس الأمن ، لوضع نظام دولى للرقابة ترتضيه الدولتان ومن ينهج نهجهما وانتهت روسيا الى صنع القنبلة وتحطيم الاحتكار الأمريكى .

ومن الواضح الآن ، أن المقترحات التى أبت روسيا أن تقبلها يوم كانت أمريكا محتكرة لصنع القنبلة الذرية ، لن تقبلها اليوم بعد أن حطم الاحتكار . فقد زالت اليوم حالة نادرة فى تاريخ الصراع الدولى ، كانت فيها احدى الدول الكبيرة ، وحدها ، تملك سلاحا ماضيا ، وان لم يكن وحده سلاحا حاسما ، وتبدد الرجاء الذى عقد على الانتفاع بهذه الحالة الفذة ، للوصول الى تسوية قائمة على مبدأ جديد هو فرض سيطرة دولية تشمل أسلحة تستمد قوتها من الطاقة التى تحرك الشموس . فالاتفاق بعد اليوم على تحريم هذا السلاح ، لن يكون اتفاقا بين دولة — أو دول — تملكه ، وأخرى لا تملكه ، بل لابد أن يكون اتفاقا — ان كان الاتفاق ممكنا — بين كتلتين من الدول تملك كلتاهما نفس السلاح المهلك .

نعم ان مجال القول واسع ، فى تعديد ما لأمريكا اليوم من المزايا فى هذا الباب — فقد سبقت الى صنع القنبلة وعندها منها بضع مئات على أقل تقدير ، وقدرتها الصناعية أعظم ، وتجربة علمائها ورجال الصناعة فيها أوسع ، وقاذفاتها الضخمة أضخم وأبعد مدى ، ورجال القاذفات قد تدربوا على الوسائل الفنية التى يقتضيها حمل أجزاء هذه القنابل المهلكة ، ثم ضمها بعضها الى بعض فى الموعد المضروب ، حتى تنفجر حيث يريدونها أن تنفجر . ولكن هذا القول لا يغنى ، لأنه اذا كانت روسيا لا تملك اليوم من القنابل والوسائل ما تملكه أمريكا ، ففى وسعها ، وقد صنعت القنبلة ، أن تملك بعضه فى بحر سنتين ، وبضع قنابل ذرية ، تكفى لاحداث تدمير هائل وهلاك عظيم !

يخامر الناس هنا ، فى ليك سكسيس ريب شـديد فى امكان الوصول الى اتفـاق ولكنهم جميعـا يقولون ، ان المخاوف التى تساور الناس ، فى كل أمة ، تقتضى من أمريكا وروسيا وسائر الدول أن لا تستسلم لليأس من الاتفاق ، وأن تسعى حقا اليه ، وان كان تاريخ السنوات الأخيرة دليلا متصلا على مشقة الاتفاق مع روسيا ، على مسائل أقل خطرا من القنبلة الذرية . ولذلك نجـد كثيرين يحبذون الأخذ بالاقتراح الهندى ، ومؤداه أن ينقل موضوع الطاقة الذرية ، من لجنة الطاقة الذرية ، الى لجنة القانون الدولى . فقد ثبت أن المأزق فى لجنة الطاقة الذرية قد بات مستحكما ، والحالة الجديدة تستدعى الاقبال بنظرة جديدة على المشكلة ، وعسى أن تكون لجنة القانون الدولى ، أدنى الى النظرة الجديدة ، من لجنة الطاقة الذرية ، ولعل هذه اللجنة تضع مبدأ عاما فى القانون الدولى ، تقبله جميع الدول بغير استثناء ، فيفضى ، مقترنا بضغط الرأى العام الدولى ، الى الامتناع عن استعمال القنابل الذرية ، كما امتنع المتحاربون ، فى الحرب العالمية الثانية ، عن استعمال الغازات الحربية .

القنبـلة فى عـام

أشرفت سنة ١٩٤٩ على ختامهـا ، ومأزق الرقابة الدولية على الطاقة الذرية لا يزال هو المأزق الذى ألفناه منـذ ثلاث سنوات أو تزيد .

أو لعله صار أعصى على الحل . فروسيا لم ترض عن مشروع الرقابة الدولية ، منذ أن اقترح فى سنة ١٩٤٦ وكانت يومئذ لا تملك قنبلة ذرية ولا تعرف أسرار صناعتها ، فهى اليوم وقد صنعت القنبلة

أبعد عن قبوله مما كانت .

كنت فى الأمم المتحدة ، يوم ٢٣ سبتمبر ، حين سرت فى دوائرها أنباء البيان الذى أذاعه ترومان — وجاراه فيه أتلى فى لندن وسان لوران فى أوتاوى — عن حدوث انفجار ذرى فى روسيا ، خلال الأسابيع السابقة ، فاذا البيان يحفز كل ذى رأى للاعراب عن رأيه . واذا العلماء الذين يضيقون ذرعا بالقيود المفروضة على بعض البحوث الذرية يقولون : أما وقد ظفرت روسيا بالسر ، وقد كان ذلك منتظرا وان تقدم على الموعد المقدر ، فالحاجة أشد ما تكون الى اطلاق البحث العلمى الذرى من القيود ، فهو عماد السلامة القومية ، واذا دعاة الحكومة العالمية يقولون : ان الحاجة اليوم أشد ما تكون الى اندماج السيادات القومية فى حكومة عالمية ، واذا المترددون فى ارصاد المال المطلوب لتسليح دول الميثاق الأطلسى ، يقولون : ان الحاجة اليوم أشد ما تكون الى اقرار المبلغ المطلوب كله ، فالمعونة التى تبذل على ضن لا تكفى . واذا الرئيس ترومان يقول : ان الحاجة اليوم أشد ما تكون الى رقابة دولية تامة نافذة .

فنبأ الانفجار الذرى فى روسيا ، لم يحمل أحدا يومئذ على تغيير رأيه السابق ، ولا حفز أحدا الى التقدم برأى جديد ، قد يكون فيه مخرج من هذا المأزق المستحكم .

وضع المشروع الأمريكى ، يوم كان صنع القنبلة الذرية وقفا على الولايات المتحدة الأمريكية . وكانت أركانه قيام هيئة دولية تملك جميع موارد الطاقة الذرية وأسباب صنعها ، على أن يكون لها حق التفتيش أين شاءت ومتى شاءت ، وأن لا تخضع لحق

« الفيتو » ، فاذا قبلت هذه المبادىء وثبتت جدوى تطبيقها أباحت الولايات المتحدة للهيئة أسرار الطاقة الذرية على مراحل ثم تدمر جميع ما عندها من قنابل ذرية . وهذا المشروع لا يزال بعد شيء من التعديل ، هو المشروع الذى تؤثره الكثرة من أعضاء اللجنة الذرية فى الأمم المتحدة .

ولكن روسيا أبت قبوله منذ الساعة الأولى ، ولا تزال . فهى تأبى مبدأ التفتيش المطلق ، لأنها جعلت تقييد تجول الأجانب فى بلادها مبدأ من مبادئها ولأنها تعتقد أن خير دفاع تملكه ضد القنبلة الذرية ، هو تفريق قواعدها الصناعية ، فاذا فتحت أبواب بلادها للجان التفتيش دون قيد أو شرط ، فانها تخشى أن تعرف مواقع هذه القواعد وأن تباح لقواد سلاح الطيران الأمريكى ، وهذه المعرفة هى غاية مناهم . ثم هى تأبى الغاء حق « الفيتو » لأنه ركن أصيل من أركان مجلس الأمن ، ولأنها هى لا تستطيع أن تسلم زمامها فى هذا الأمر الخطير « لكثرة معادية » كما تقول . وهذا فى أغلب الرأى سر الصيحة التى ندت عن فيشنسكى فى الأمم المتحدة بباريس ، قال : « يستحيل أن نقبله . يستحيل . يستحيل » .

وقد اقترحت روسيا فى مقابل ذلك أن يعقد اتفاقان ، احدهما يحرم استعمال الطاقة الذرية فى الحرب ، ويقضى بتدمير القنابل الذرية التى صنعت ، والثانى يضع نظاما دوليا للتفتيش الدورى فى حدود معينة ، وأن يوقع الاتفاقان معا . ومن خصائص المشروع الروسى ، أن الحكومات القومية — لا هيئة دولية — هى التى تملك موارد الطاقة الذرية ومصانعها وتديرها . ولكن الدول الغربية تعترض عليه ، وتزعم أن اعتراضها فنى فى المقام الأول ، لأن

التفتيش الدورى لن يكفى لمعرفة مقدار المواد الذرية التى تصنع ، ولا الوجوه التى تستعمل فيها ، وأن التفتيش الدورى ، بغير رقابة تامة على الموارد يجعل المخالفة والاخفاء شيئا هينا • وهو اعتراض صحيح من الناحية الفنية ولكنه يخفى وراءه عدم الطمأنينة والثقة فتدمير القنابل المصنوعة — روسية وأمريكية — مزية لروسيا لأن قنابل أمريكا أكثر كثيرا ، فاذا تم التدمير فمن يضمن للدول الغربية ، وقد فقدت مزيتها بعد تدمير القنابل المصنوعة ، أن روسيا لا تمضى قدما فى صنع القنابل أو تهيئة المواد المتفجرة لها ، على وجه وفى أماكن لا يستطيع رجال التفتيش الدورى أن يكشفوا عنها •

فالأزمة من الناحيتين هى أزمة ثقة وهذا هو سر المشكلة — كان ولا يزال •

بيد أن ظفر روسيا فى صنع القنبلة حقيقة جديدة طرأت ، ولا مفر من أن يكون لها أثر فى التفكير الحربى •

وقد كان أكثر التفكير الحربى فى الغرب ، مبنيا على تقدير ثبت أنه قد أخطأ • نعم لم يكن أحد يتوهم ، أن احتكار أمريكا للقنبلة الذرية سوف يظل قائما الى ما شاء الله ، ولكنهم اتفقوا على أن يتخذوا سنة ١٩٥٢ حدا يتم عنده لروسيا صنع القنبلة الذرية ، وأن استئثار الغرب — أى أمريكا — بالقنبلة الذرية فى خلال هذه المدة رادع كاف لروسيا عن الاقدام على الاعتداء فتتاح مدة لتعزيز الدفاع الغربى • فاذا أقدمت روسيا على الاعتداء ، دمرت قواعدها الصناعية الكبرى بقنابل ذرية ، تحملها اليها وتلقيها عليها هذه القاذفات الضخمة من طراز ب ٣٦ •

ولكن روسيا تقدمت الموعد المقدر بثلاث سنوات على الأقل ،

فصار يتعين على قواد الكتلة الغربية أن يعيدوا النظر فى خططهم ، فبدلا من أن يجعلوا هدفهم استكمال قدرة أوربا على الدفاع حوالى ١٩٥٥ ، يتعين عليهم الآن ، أن يستعجلوا ذلك على أساس انشاء قوة برية جوية بحرية متزنة تستطيع أن تصد الهجوم الروسى البرى الجوى عليها ، لأنه اذا تعذر ذلك عليها ، وسقطت أوربا الغربية فى أيدى الروس كان استردادها منهم عملا حربيا فادحا وصار لا مفر من مواصلة القتال بين القارات ، وهو قتال طويل مرير مهلك ينتهى الى تدمير جانب كبير من العالم .

أما استعمال القنابل الذرية ، اذا نشب القتال ، فقد أضحى بعد نبأ الانفجار الذرى فى روسيا رهنا بعوامل شتى . نعم ان قنابل أمريكا أكثر عددا الآن ، وقد تظل كذلك . ولسنا نعلم المقدار المتاح لروسيا من المواد التى تصلح للقنابل الذرية ، ولا الوسائل التى عندها لحمل هذه القنابل والقائها على المراكز الصناعية الكبرى فى أمريكا ، ولكن ليس ثمة ريب فى أن عشرات من هذه القنابل سوف تكون متاحة لروسيا فى بضع السنوات المقبلة ، وانها تملك من القاذفات ما يمكنها من نقل هذه القنابل والقائها على كبريات المدن والقواعد الصناعية فى غرب أوربا وبريطانيا . فلا مفر للغرب من أن يدخل هذا فى حسابه كلما فكر فى استعمال القنابل الذرية ضد روسيا .

ولذلك اتجه الرأى — على الرغم من استحكام الخلاف على مشروعات الرقابة الذرية بين الكتلتين — الى أن صنع القنابل الذرية فى روسيا ، وان كان عددها أقل بالقياس الى أمريكا ، قد أخذ يفضى منذ الآن الى محاذرة الفريقين استعمال هذا السلاح

المخيف ، وبخاصة لأن الرأى الحربى كاد ينعقد على أنه ليس السلاح المطلق ، مهما تكن قدرته على التدمير • ورجال الأمم المتحدة يميلون الى القول ، بأن روسيا تؤثر الامتناع عن استعمال القنبلة ما دام مخزون الولايات المتحدة منها أكبر ، وأن الولايات المتحدة قد تؤثر الامتناع أيضا ، لما يتعرض له حلفاؤها فى أوربا من دمار القنابل الروسية ، ولما قد تتعرض له مراكزها الصناعية المحتشدة من هذا الدمار فى آخر الأمر •

فاذا صح هذا التقدير ، كان الأمر شبيها بما كان من أمر الغازات الحربية قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها • فقد هيأ كل من الفريقين مقادير وافرة منها ، ليستعملها ان بادر خصمه الى استعمالها ولكن أحدا من الفريقين لم يستعملها لأن أحدا منهما لم يقدر أن استعمالها يؤتيه الظفر قبل أن يرد عليه خصمه كيلا بكيل •

ولذلك يصح ان يقال أن الرجاء معلق اليوم بحقيقتين ، فأما الأولى فهى أن الرادع الوحيد عن استعمال القنبلة الذرية ، هو خوف الجانبين من استعمالها وأما الثانية ، وهى أهم فهى ازدياد ادراك الناس أن الحرب ، فى هذا العصر الذى يتخذ فيه المتحاربون أحدث الأسلحة وأشدها فتكا بالناس ، ليست شيئا مخوفا وحسب ، بل هى شىء لا جدوى منه ولا نفع فيه لغالب •

قنبلة ذرية أخرى

ظل حديث القنبلة الأيدروجينية ، قرابة شهرين ، كذكر سيف الدولة يملأ الدنيا ويشغل الناس • ولكن الرأى مال الآن الى وضعها فى موضعها الصحيح • فالنظرية العلمية التى تعد أساسا

للقنبلة الأيدروجينية ، وضعت قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، لتفسير الحرارة العاليـة فى الشمس والنجوم . وقد وصفتها من ناحيتها العلمية فى « المقتطف » (١٩٣٩) وكتابى « الفتح مستمر » (١٩٤٣) ثم أشرت الى احتمال الانتفاع بها فى صنع قنبلة ذرية تختلف فى مبـدأها عن قنبلة اليورانيوم والبلوتونيوم فى كتابى « النار الخالدة » (١٩٤٧) .

ولن أعمد اليوم الى تفصيل هذه الناحية ، فقد عنى أفاضل الكتاب بوصف المبدأ العلمى ، والفرق بين طبيعة القنبلتين . ولكن الأمر الذى لا مفر من التنبيه اليـه ، هو أن أمر ترومان الخاص بالقنبلة الايدروجينية لا يعنى حتما أن صنع قنبلة قد تم تمامها ، هو شيء وراء البـاب . وليس فى وسع أحد أن يقدر الآن مدى الزمن الذى يستغرقه التمهيد لصنعها . فقد وفق علماء الحلفاء الى احـداث أول تفـاعل متسلسل فى اليورانيوم خاضع لسلطانهم فى ٢ ديسمبر ١٩٤٢ ، وظلوا بعد ذلك سنتين ونصف سنة ، يسعون بما أوتوا من علم وتجربة ومال ، الى حـل المشكلات العلميـة والصناعية التى لا مفر من حلها قبل صنع القنبلة الذرية الأولى — أى ظلوا سنتين ونصف سنة يمهدون لصنعها ، وهم لا يدرون ، أتنفجر القنبلة الأولى التى صنعوها أم لا تنفجر .

وليس ثمة ريب ، فى أنهم كسبوا خلال ذلك الزمن ، ومنذ أن وضعت الحرب أوزارها ، علما وتجربة ، يجديان عليهم فى التمهيد لصنع القنبلة الأيدروجينية . ولكن القليل الذى ذكر عن هـذه القنبلة ، يدل على أن المشكلة التى يواجهونها أعظم وأعقد . فالنظرية تقتضى أن تندمج ذرات من الأيدروجين بعضها فى بعض (باستعمال

صنف خاص نادر منه) حتى تتكون ذرة هليوم ، وينطلق فى أثناء تكوينها مقدار عظيم من الطاقة يعدل ما فقد من كتلة الذرات المندمجة مضروبا فى مربع سرعة الضوء • والعلماء لم يوفقوا الى توليد حرارة تدانى الحرارة اللازمة لذلك سوى فى ذلك الجزء من الثانية ، حين تفجرت القنبلة الذرية المعهودة •

وقد صرح العالم هانز بيث صاحب النظرية التى تقوم عليها القنبلة الأيدروجينية : لم تصنع القنبلة بعد ، ولن تصنع فى خلال بضعة أشهر ، ولا نزال فى حاجة الى بحث كثير •

فالمشكلة كما تبدو الآن ، هى كشف الوسائل المحكمة ، للانتفاع بالحرارة المتولدة من انفجار قنبلة ذرية معهودة ، فى ادماج ذرات الأيدروجين بعضها فى بعض ، حتى تنطلق من فعل الاندماج طاقة عظيمة • وهذا ينبغى أن يتم على وجه خاضع لتحكم الانسان ، فى لحظة من الزمان وفى جوف طائرة تحمل هذا الجهاز الجهنمى ، وفى موعد محدد بجزء من الثانية ، وعلى ارتفاع مقرر فوق مكان بعينه قد يبعد مئات أو بضع ألوف من الأميال •

ولذلك يمهد الكتاب الحربيون الذين يقدرون تبعة ما يكتبون ، لكل مقال ينشرونه فى عواقب القنبلة الأيدروجينية ، بقولهم : « اذا صنعت » •

نعم ، قد يتوسل العلماء ، فى الغرب أو فى الشرق أو فى كليهما ، بوسائل ليست فى الحسبان اليوم ، فتيسر لهم صنع القنبلة الأيدروجينية ونقلها مسافات بعيدة ، وتفجيرها على هواهم ، ولكن ذلك كله لا يزال فى رحم المستقبل • وقد قالت التايمز اللندنية فى ذلك : « لن تصنع القنبلة الأيدروجينية فى يوم وليلة ، وربما لن تصنع » •

وقد يختلف الرأى فى استعمال القنبلة الأيدروجينية ، من ناحيته الأدبية ، وهل هو شر من استعمال القنبلة الذرية المعهودة وأشنع ، أو من استعمال القنابل الضخمة الناسفة التى استعملت فى معظم أيام الحرب العالميـــة الثانية • وليس الجواب الفاصـــل بالشىء اليسير • ولكن فى وسع الباحث أن يقيم الحجة ، على أن الفرق فى درجة التدمير ، بين قنبلة وأخرى ، قد يبلغ مبلغا خطـيرا حتى يصبح فرقا أصيلا ، ولعـــل هـــذا الفرق بين القنبلة الأيدروجينية والقنبلة الناسفة أو بينها وبين القنبلة الذرية المعهودة ، قد بلغ هذا الحد •

فقد مال الرأى فى أول الأمر الى المبالغة فى قدرة القنبلة الذرية المعهودة على التدمير الشامل ، ثم اعتدل فصارت تعد قنبلة مهلكة ولكنها ليست حاسمة • بيـــد أن الحساب الأول لقـــدرة القنبلة الأيدروجينية يجعلها ، حتى اذا جردته من التهويل ، أشد تدميرا من القنبلة الذرية المعهودة أضـــعافا كثيرة • فكل حرب تشن بأسلحة منها القنابل الأيدروجينية ، تحدث دمارا فظيعا ، لا تقوى دولة ما على تحمله حتى الدول المترامية الأطراف • ومع ذلك فقد يتراءى لاحداها أنهـــا تستطيع أن تقضى على خصمها قبل أن ينشط للرد على فعلتها بمثلها ، فليس فى تاريخ الانسان على الأرض ما يقوم دليلا على أن الانسان أحكم حاكم وأعرف حاكم بمصلحته الصحيحة •

ولكن الاعتماد على تحكيم العقل وحسب ، لصرف الناس عن استعمال القنبلة الأيدروجينية ، لا يكفى • فالقرار الذى اتخذه ترومان كان من الوجهة السياسية ، شيئا لا مفر منه ، لأن الامتناع عنه ، قد يعرض أمريكا وصاحباتها ، لخطر روسيا ان هى تزودت

بهذه القنبلة . ولو لم يفعل ، لكان ضغط الرأى العام خليقا بأن يفرض عليه هذا القرار .

فالمسألة الملحة اليوم هى هذه : ما هو مبلغ الأمل فى الوصول الى تفاهم على وضع حد لهـذا التنافس الرهيب فى صنع الأسلحة ، ولاسيما الذرى منهـا ، بعـد أن اتفق الرأى على أن التفجير الأيدروجينى لا يرجى منه نفع مدنى ؟

من الخير ، أن القنبلة الأيدروجينية ، لا يحتمل أن تصنع ، كما تقول التايمز اللندنية ، فى يوم وليلة وربما لن تصنع . فالعقل والمصلحة يقضيان بأن تغتنم هذه الفرصة ، لتجديد السعى الصادق للاتفاق مع روسيا على الرقابة الذرية ، مهما يبد الأمل فى الوصول الى اتفاق معها ، شيئا بعيدا . فقد أبت روسيا حتى الآن أن تقبل مشروع الرقابة الذى اقترحته أمريكا أولا وارتضته كثرة الأعضاء فى لجنة الطاقة الذرية . وقد أبى هؤلاء الأعضاء أن يقبلوا المشروع الروسى . ولكن اهتمام روسيا بوضع مشروع ، يعنى ضمنا أنها ترى ضرورة الرقابة . بيد أن المشروع الروسى ليس من العقم بحيث لا يدع مجالا للبحث ، والمشروع الأمريكى ليس من الكمال بحيث لا يحتمل اعادة النظر فيه . وقد قرأنا لعدد من أهل الرأى فى أمريكا ما يدل على أنهم يتلمسون مدخـلا جديدا لحل هـذه المشكلة . فالقنبلة الأيدروجينية لا تغير شيئا من طبيعة المشكلة ولكنها تجعل الوصول الى حل لها شيئا ملحا . وقد لا يكون الاتفاق على الرقابة كافيا ولكنه حتما عنصر لا غنى عنه فى كل اتفاق عام .

قيمة الاتفاق

بعد العاصفة التى أثارها حديث القنبلة الأيدروجينية تعالت الأصوات على جانبى المحيط الأطلسى ، بضرورة الاتفاق على « رقابة الطاقة الذرية » حتى يبعد شبح الهول والقلق الجاثم على نفوس الناس • فاذا أريد هذا الاتفاق قاصرا على خطر الانتفاع بالطاقة الذرية فى الأغراض الحربية ، واذا ذهب الظن الى أنه وحده كاف لانقاذ الناس مما يساورهم ، فهو وهم خطره بين ، لأن التنافس فى صنع القنابل الذرية ليس سوى مظهر للخلاف بين الكتلتين •

وجدوى الاتفاق مع روسيا بينة ، فالسياسة الغربية ليس غرضها أن تقهر الروس فى حرب أخرى لا ينجو من هولها غالب ولا مغلوب ، بل غرضها الوصول الى قدر من التفاهم يتيح قسطا من الأمن والطمأنينة لعالم يقلقه الخوف • بيد أن جدوى الاتفاق لا تعنى أن الاتفاق على القنبلة ، هو كل ما يطلب • واذا أريد لأى اتفاق مع روسيا أن يحقق الغرض منه ، فينبغى أن يعالج أصل المشكلة ، وهى برغم مهالك السلاح الذرى ، ليست مشكلة هذه القنبلة أو تلك ، بل هى خطر نشوب حرب بين الكتلتين • فالذى يجب أن تتجه اليه المساعى فى المقام الأول ، هو ازالة خطر الحرب ، لا ازالة القنبلة الذرية من الحساب الحربى وحسب ، وكل اتفاق على القنبلة الذرية تقاس قيمته بمقدار ما له من أثر فى تقليل خطر الحرب أو زيادته •

فالقنبلة الأيدروجينية ، لا تغير شيئا من عناصر الموقف الدولى ، سوى أن تجعل القضاء على خطر الحرب ، شيئا ألح مما كان ، لأن خطر التدمير صار أفدح كثيرا مما كان •

لنفرض أن اتفاقا على رقابة الطاقة الذرية قد عقد ، وأن أمريكا دمرت ما عنـدها من القنابل المصنوعة وتعهـدت بأن لا تمضى فى التمهيد لصنع القنبلة الأيدروجينية ، وأن روسيا رضيت بالرقابة الدولية على الطاقة الذرية التى تتولاها الدولة فى مصانعها ، وأن تحيل الى لجنة دولية بعض وجوه النشاط الذرى خلال مدة محددة بقصد التجربة ، أفيقلل ذلك من خطر الحرب أم يزيده ؟.

انه لا يقلل خطر الحرب الا اذا جاراه تحسن عام فى العلاقات بين الشرق والغرب ، يخفف من حـدة الجفاء بينهما . أما اذا ظل أحدهما يخشى اعتداء الآخر ، فلن يجدى أى اتفاق على الطاقة الذرية مهما أحكمت نصوصه فى القضاء على التنافس فى التسلح الذرى ، ما دامت المعارف الذرية متاحة والوسائل الصناعية اللازمة للتسلح الذرى لم يعتورها نقصان .

بل فى الوسع أن تقيم الحجة على أن الخطر خليق أن يزداد ، لأن اتفاقا من هذا القبيل قد يكون كالمخدر ، يؤثر فى ادراك الشعوب الغربية وارادتها فتظنه واقيا من الحرب ، فتتراخى وتنصرف على عادتهـا الى ما يهمها من شئون الحيـاة ، فيكون فى ضعفها اغراء للفريق الآخر بأن يقدم على مغامرة ما .

واذن أيقف رجال السياسة جامدين لا يحركون ساكنا فى سبيل التفـاهم بين الشرق والغرب ؟ كلا ! أو ليس حـديث القنبـلة الأيدروجينية فرصة جديدة خليقة أن تفتح كوة على الأقل فى الستار الحديدى ، ان لم تفتح بابا على مصراعيه ؟ نعم ، ولكن ينبغى أن لا ينحصر البحث فى نطاق القنبلة ، بل أن يتحداها الى نطاق أعم ، يشمل جميع مسائل السياسة التى تثـير القلق ، وتحرك الريب .

ويومئذ يكون الاتفاق على القنبلة ، جزءا من اتفاق عام فان كان فثمة شعاعة من رجاء .

هذا هو المبدأ ، فهل الطريق ممهد الآن لتطبيقه ؟

تتحدر سياسة روسيا حيـال الغرب من مبدأين ، أما الأول فهو الايمان بأن الاتحاد السوفيتى عرضة لخطر هجوم يبيته العالم الرأسمالى ، وأنه مادام العالم الرأسمالى قائما فهذا الخطر قائم . وأما الثـانى فهو أن فى قدرة العالمين الرأسمالى والشيوعى ، أن يعيشا جنبا الى جنب زمنا ما بغير حرب ، على مابينهما من فروق فى المذهب والنظام الاقتصادى . أول المبدأين أقدم ويرتد الى لنين ، والثانى يسند الى ستالين فقد قال فى مذكرة سرية لتشرشل فى أثناء الحرب : « ان الفرق العظيم فى تنظيم الدولة ينبغى أن لا يعوقنا عن الوصول الى حل موفق لجميع المسائل الخاصة بأمننا جميعا ومصالحنا المشروعة » وقد تواترت الدلائل فى الأشهر الأخيرة على أن هذا الرأى لا يزال رأيه .

والعالم الغربى يرى هو أيضا أنه ما دامت هناك دولة شيوعية ضخمة تستهدف القضاء على العالم الرأسمالى فهذا العالم عرضة لخطرها . فكأن المبدأ الشيوعى الأول قد صار مبدأ تأخذ به الدول الغربية بعد أن عكست آيته . والعالم الغربى يرى أيضا ما يراه ستالين من أن العالمين يستطيعان أن يعيشا جنبا الى جنب بغير حرب على أن يفسر لفظ الحرب تفسيرا لا يقتصر على القتـال وحسب بل يشمل الدعاية والتوسل بالأحزاب الشيوعية لبث الاضطراب والتفتيت الداخلى ، فى الدول غير الشيوعية .

فالوصول الى تسوية بين العالمين يقتضى أن يقوم الدليل للعالم

الشيوعى على أن العالم الغربى لا ينوى أن يشن هجوما عليه ، وأن يقوم الدليل للعالم الغربى على أن العالم الشيوعى قد كف عن شن حرب التفتيت الداخلى بشتى وسائلها .

فهل هذا مستطاع ؟

لسنا نعلم ان كان فى قدرة الكرملين أن يكف عن هذه الوسيلة فهى سلاحه الأمضى فى الحرب الباردة أو ان كان فى قدرة الغرب أن يقنع روسيا السوفيتية بأنه لا يبيّت حربا عليها ، فهذا الظن جزء من مذهبها ، ولكن الذى يبدو هو أن العالم الغربى لا يرى أن عقد مؤتمر الآن يكفل الوصول الى تسوية مجدية ، لأن كل اتفاق مع روسيا — فى رأيه — لا يجدى الا على قدر مطابقته لحقائق الحالة الدولية . فالمسألة ليست مسألة عقد مؤتمر أو عدم عقده بل هى ما تستطيع الدول الغربية أن تعرضه أو أن تقبله حتى ينجح المؤتمر ، وما يسعها أن تتوقعه من جانب روسيا فيه وما يكون موقفها ان أخفق . وليس فى صحائف المؤتمرات التى عقدت بعد الحرب ما يشجعها على الاقبال . فقوة روسيا مندفعة بنزعتها التوسعية القديمة ودعوتها الشيوعية العالمية الى كل موطن ضعف تجده ، واذن فلا بد للدول الغربية من أن تسعى لتقلل مواطن الضعف وتوسع رقعة القوة وهذا هو غرض مشروع انعاش أوربا وميثاق الدفاع الأطلسى وخطة النقطة الرابعة وغيرها .

فيلوح اذن أن الحرب الباردة ماضية فى سبيلها حتى تتوازن الكفتان فيتسنى عقد اتفاق مطابق لحقيقة الواقع أو حتى يندلع الشرر .

الحرب الباردة

الحرب الباردة

فى كفتى الميزان

يذهب غير واحد من أهل الرأى فى شئون الدول ، الى أن النزاع بين الكتلتين الشرقية والغربية الذى يطلقون عليه وصف « الحرب البـاردة » ، قد ارتفعت حرارته بعض الشيء وأن الذى حـدث فى تشيكوسلوفاكيا وفنلندة وبرلين ، لا ينبغى أن يعد حربا وسائلها الدعاية والتغلغل والضغط الاقتصادى والحربى وحسب ، بل هى فى رأى هؤلاء النفر ، أعمال دبر خطتها وحققها رجال الحرب ، لأغراض حربية ، مهما تكن بعيدة • ويقيمون الدليل على ذلك ، بأن فنلندا وتشيكوسلوفاكيا كانتا فى نطاق روسيا السياسى ، ولكنهما لم تكونا من الناحية الحربية فى نطاق روسيا الحربى ، ولو نشبت حرب لما كان فى وسع الكرملين أن يطمئن الى الاعتماد عليهما اعتمادا كاملا • فأهل تشيكوسلوفاكيا على الرغم من عطفهم على روسيا ، حريصون على قوميتهم وديمقراطيتهم ، وعلى صلاتهم الاقتصادية والثقافيـة بدول الغرب • أما الفنلنديون فيجمعون بين نزعتهم الديمقراطية الغربية وفطرة الخوف من الروس ، وهى فطرة ولدها تاريخ علاقتهم الطويل بروسيا • واذن ، فهذان بلدان لا تستطيع روسيا أن تطمئن اليهما — اذا وقعت الواقعة •

ولكنهما بلدان لهما شأن حربى خطير • ففنلندة مفتاح لبحر

البلطيق ، والدول السكندناوية وجميع مشارف روسيا فى الشمال • وتشيكوسلوفاكيا ، فى موقع جغرافى ، ينيلها قدرة على السيطرة على وادى الدانوب ، والطرق المفضية الى جنوب ألمانيا والبحر الادرياتيك • فاذا أضفت اليهما تركيا ، فقد ذكرت المواقع الثلاثة ذات الشأن الحربى ، التى لا غنى عنها فى الدفاع عن روسيا ، ثم لا غنى عنها فى كل خطة تضعها روسيا للتوسع الحربى ، فى أوربا الى الغرب والجنوب ، وفى الشرق الأوسط •

فحدوث ما حدث فى تشيكوسلوفاكيا ، وعقد اتفاق حربى مع فنلندة ، يصح أن يكون دليلا ، على أن أذهان حكام روسيا ، قد اتجهت الى الاعتبارات الحربية ، فقدمتها على غيرها •

وهذا لا يعنى أن نشوب الحرب شيء وشيك ولا مفر منه ، بل يعنى أن التقدير الغالب فى تطور الحوادث ، انما هو تقدير العوامل التى لها قيمة حربية — ان لم يكن بد من وقوع الصدام

ومن هنا الشأن الخطير الذى يعلقه رجال السياسة ومراسلو الصحف على النتيجة التى أسفرت عنها الانتخابات الايطالية أمس — والتى لم تذع بعد • فكل نتيجة تفضى الى اشتراك الشيوعيين فى حكم ايطاليا ، أو الى انفرادهم بحكمها تعزز موقف روسيا الحربى فى أوربا والبحر المتوسط والشرق الأوسط ، وتضعف موقف الدول الغربية •

وحتى اذا فرضنا جدلا ، أن الشيوعيين استأثروا بحكم ايطاليا ، دون أن يتاح لهم أن يستأثروا ببسط سلطانهم على غرب أوربا ، فان ذلك وحده يعد مزية حربية من المقام الأول • فذلك يعنى أنه يصير لطائرات روسيا وغواصاتها قدرة — كما كان لطائرات المحور

وغواصاته فى الحرب العالمية الثانية — على عرقلة المواصلات البحرية للدول الغربية فى البحر الأبيض المتوسط ، فتحول دون وصولها على حريتها الى بعض البلاد التى تحف بسواحله ، لتتخذ منها قواعد تشن منها الهجوم على روسيا — اذا وقعت الواقعة .

فكيفما قلبت النظر فى الأمر ، من ناحيــة الكتلتين الشرقية والغربية ، ألفيت المغزى الحربى منطويا فى كثـير من الحوادث المتوالية بين سمع الناس وبصرهم ، وحق لك ان تقول ان الحرب الباردة قد دخلت الآن مرحلة هى مرحلة السباق فى سبيل الفوز بالمزايا الحربية .

ثم ان الانتخابات الايطالية التى تمت أمس ، خليقة أن تسفر عن معنى لن يضيع أثره فى دول غرب أوربا . ففى أواخر الحرب العالمية الأولى وأعقابها ، قامت الدولة الشيوعية فى روسيا ، ثم قامت حكومات شيوعية فى بعض بلاد أوربا ولكن سرعان ما غلبتها على أمرها الجماعات القومية فى تلك البــلاد برغم تفككها وضعفها . فلما بلغت الحرب العالمية الثانية مراحلها الأخيرة فى أوربا ، اكتسح الجيش الروسى شرق أوربا واحتل دولها ، فاذا الحكومات الشيوعية قد قبضت على زمام الأمر فيهـا — بولندة رومانيـا بلغـاريا تشيكوسلوفاكيا ، أو اضطرت أن تقف موقفا مواليا للروس — فنلندة . أما سائر دول أوربا التى لم تحتلها الجيوش الروسية ، فلم تخضع للسلطان الشيوعى ، والفرق بين الطائفتين ، هو وجود الجيوش الروسية محتلة أو محدقة بالطائفــة الأولى من الدول ، وعدم وجودها فى الثانية . فايطاليا سوف تبين أفى وسع القوات الشيوعية الداخلية فى دولة ما أن تظفر بالقبض على زمام الحكم ،

بغير أن تستمد سطوة من الجيوش الروسية تضاف الى سطوتها ؟

والجواب على هـذا السؤال لا يقتصر خطره على ايطاليـا وحسب ، بل يشمل سائر دول أوربا الغربية ، ولاسيما البلاد التى فيها أحزاب شيوعية قوية . فان كان الجواب بالنفى ، عزز ذلك أيدى الأحزاب المناهضة للشيوعية فى البـلاد الأخرى ، لأن ماتم فى ايطاليـا يقنعها ، أو يشجعها على الأقل ، بأن ذلك فى طاقتها هى أيضا ، ثم يلى ذلك فترة تتاح فيها الفرصة لهذه الدول أن تجنى ثمـار مشروع مارشال وثمار تعاونهـا الاقتصادى والسـياسى على انجاحه .

ومع ذلك يظل السؤال الذى يدور على الألسن هو هذا : أتريد روسيا الحرب ؟ والجواب فى أغلب الرأى هو أنها لا تريدها ، ولكنها لن تنفك عن السير على خطة من شأنها أن تثير نفوس الذين بأيديهم مقاليد الأمر فى الدولة الغربية ، وأن تلقى بضغطها القوى حيث تجد موقعا ضعيفا ، ففى هذه الحالة لن يستطيع سياسى مسئول أن يغفل خطر الحرب . فالخطر قائم ، وهذا كل مافى الأمر الآن ، ولابد من التأهب له .

فلذلك جاءت حوادث تشيكوسلوفاكيا وفنلندة وبرلين ، كالمنبه لأولى الحل والربط فى الدول الغربية ، فطلب ترومان من الكونجرس تعزيز قوة أمريكا الحربية ، وعقد ميثاق بروكسل ، واستعجلت الموافقـة على مشروع مارشال ، وتم الاتفاق بين الدول الأوربية الست عشرة على أصول تنفيذه . وقيل ان الهيئة المشتركة البريطانية الأمريكية ، لأركان الحرب ، قـد وضعت خطة للطوارىء ودار الحديث على خطط أخرى بعيـدة المدى لتأييد الاتحاد الأوربى

الغربى ، تأييدا حربيا • فاذا لم تنزلق الأقدام انزلاقا الى ما لا تحمد عقباه ، فربما نشأ عن كل ذلك ضرب جديد من توازن القوى ، يصون السلام زمنا غير قصير كما كان فى القرن التاسع عشر •

أمل يتحدى العزيمة

خف الجفاء شيئا قليلا فى أوربا بعد أن ظهرت نتيجة الانتخابات الايطالية وقد كان الشيوعيين فى شمال ايطاليا يتأهبون ليضربوا ضربة قوية غداة الانتخاب ، فى منطقة صناعية لهم فيها أتباع كثر ، فصدر الأمر اليهم بأن لا يفعلوا • ولكن الحالة فى برلين لا تزال تبعث على شىء من القلق • فالروس فيها يهددون بفرض قيود على الحلفاء الثلاثة فى استعمال الطريق الجوى بين غرب ألمانيا وبرلين ، فكان رد الجنرال كلاى الأمريكى ، أن الاتفاق بين الدول الأربع يأذن له فى استعمال هذا الطريق ، وأنه ينوى أن يفعل ، فاذا انتهك الروس هذا الاتفاق ، فلن ينثنى عن استعماله فاذا اقتضاه الأمر أن يسير طائرات مطاردة لحراسة طائرات النقل ، فعل ذلك • فلما سئل الجنرال أليس تسيير هذه الطائرات المطاردة ، مناقضا للاتفاق الذى يمنع الطيران فى أسراب منظمة كأسراب القتال ، كان رده : اذا بلغت الحال هذا المبلغ ، فمن ذا الذى يبالى بنصوص من هذا القبيل •

وحقيقة الأمر أن الروس لا يزالون يسيرون فى برلين على سياسة « وخز الابر » كما يقولون • ولكنهم فيما يتصل بقواعد سياستهم العامة حيال غرب أوربا ، تراهم يعترفون — وان لم يقولوا — ان مدهم نحو الغرب قد وقف عند حده الآن ، لأنهم

أدركوا فيما يلوح أن التمادى فى دفعه غربا ربما أفضى الى حادثة أو أكثر قد تكون عاقبتها انزلاقا الى حرب لا يريدونها — الآن على الأقل • وهــذا فى أغلب الرأى هو مغزى مبادرتهم الى ثنى الشيوعيين الايطاليين عن القيام بعمل كمثل العمل الحربى فى شمال ايطاليا غداة الخذلان فى الانتخاب • ولعلهم وقد أخذوا يجنحون الى خطة الاستكنان حيال غرب أوربا ، يتأهبون لامتحان مواقع أخرى كاليونان أو تركيا أو ايران أو الشرق الأقصى ، عسى أن يعنو لهم واحد منها أو أكثر ، دون خطر الانسياق الى حرب عامة •

وخطر الانسياق الآن الى حرب عامة ، هو فى نظر الذين عرفوا شيئا من دخائل الحيــاة السياسية الروسية ، خطر يريد رجال الكرملين أن يتجنبوه الآن ، لسببين أصيلين : أولهما أن الأجيال الجديدة فى روسيا ، تؤمن ايمانا راسخا بأن موارد روسيا التى لا تكاد تحد فى الرجال وذخائر الأرض ، كفيلة بأن تهيىء لهم أن يبنوا أقوى أمة ظهرت على الأرض • وثانيهما أن روسيا من الناحية الصناعية لا تزال متخلفة سنين كثيرة عن المستوى الصناعى الذى أدركته أمريكا • وليس بين قادة الروس وزعمائهم من يستطيع أن ينسى اليوم ، ان صناعة الولايات المتحدة أعدت فى بضع سنوات جميع وسائل الحرب الحديثة ، فى البر والبحر والهواء ، لجيوشها فى أوربا والمحيط الهــادىء ، ولبعض جيوش حلفائها — ومنهم روسيا — أيضا •

وقد سئل قائد بريطانى محنك : متى تظن أن روسيا تجنح الى الحرب ، فقال انه يراهن بكل ما يملك على أن روسيا لن تحارب خلال السنوات الخمس المقبلة — ان لم يعتد أحــد عليها • وأنه

يراهن بنصف ما يملك على أنها لن تفعل فى بحر السنوات العشر المقبلة ، وانه لا يراهن بشىء على أنها لن تكون فى غمار حرب بعد خمس عشرة سنة .

فاذا صح تقدير هذا القائد ، فان عزوف روسيا عن الرغبة فى الحرب ، فى السنوات الخمس أو العشر المقبلة ، لن يعنى أن النغمة الحربية الغالبة على أقوالها وأفعالها ، سوف تخف ، ولا أنها ستكف عن امتحان كل موقع حتى اذا ألفته ضعيفا نفذت منه ، ولا أنها ستنثنى عن التوسل بكل برم وسخط وشكوى فى شتى بلاد الناس ، لتعزيز الجماعات الشيوعية فيها . وهذا التقدير هو الذى يرسم الطريق الذى ينبغى أن يتبع فى كل مكان ، لازالة الأسباب الاجتماعية التى تجعل أية طائفة من الناس مرتعا خصبا للمبادىء الشيوعية . بيد أن التحسين الاجتماعى وحده ، لا يكفل انحسار ذلك المد ، ان قام على زيادة الأجور ، وتوزيع الأملاك ، وتوفير أسباب الرخاء التى خلقتها الحضارة الصناعية ، دون أن يصحبه تجديد للمعانى الروحية التى انبعثت من الشرق الأدنى ، فاحتضنتها الحضارة الأوربية ، فانطلق بها الذهن الانسانى يستكشف ويخترع ويصنع ، والتفت من حولها الجماعات الغربية تسعى لانشاء مجتمع تكفل فيه أسباب الحرية والتعاون .

فهذا المثل العالى ، لا يزال يتحدى الخيال والعزيمة .

ولعله من الخير ، أن ينتحى المرء ، فى الحين بعد الحين ، قمة عالية يستشرف منها الحوادث التى تمر به سراعا آخذا بعضها برقاب بعض . ولعل اليوم ، وهو عيد الربيع فى مصر ، خير يوم لمثل هذا الاستشراف . فنحن المقيمون على السفح خليقون أن نستغرق

فى تفاصيل الحوادث التى لم تفتأ تتوالى منذ شهرين : انقلاب تشيكوسلوفاكيا ، وخضوع فنلندة ، بعض الشىء لسلطان موسكو ، وحوادث النزاع التى تستفز الأعصاب فى برلين وفينا ، والانتخابات فى ايطاليا ، والمرحلة الأولى فى قيام الاتحاد الأوربى ، والشحنات الأولى من ثغور أمريكا الى ثغور أوربا ، بحكم مشروع مارشال ، والقتال الدامى فى فلسطين ، وسيول الكلام عن فلسطين فى هيئة الأمم المتحدة ، وخيبة لجنة الطاقة الذرية ، وهكذا .

وقد ننظر الى كل حادث من هذه الحوادث على أنه مثل من أمثلة الصراع القائم بين رأيين ، أو مذهبين من مذاهب السياسة والاجتماع ، أو بين القوتين اللتين من ورائهما . بيد أننا نستطيع أن ننظر اليها أيضا على أنها تململ يدل على أن الجسم المريض يحاول أن ينفض عنه بلاء المرض ليسترد عافيته . فالذى جعل هتلر قويا كان ضعف المجتمع الغربى الذى نصفه بالمجتمع الديمقراطى — أخذا بما يرجى أن يكون . وخطر الشيوعية على غرب أوربا انما مرده الى ضعفه المادى والروحى ، أكثر منه الى قوة الشيوعية نفسها . أفنحن نشهد سورة العودة الى الصحة ، أم حشرجة المشفى ؟

وقد أثبتت الديمقراطية فى أثناء الحرب ، أنها تستطيع أن تستمد القوة من دخيلة نفسها لتدفع عن نفسها الخطر الذى ألم بها . غير أن الدفاع لا يمكن أن يقتصر على المادة يجعلها طائرات ودبابات وقنابل أفتستطيع الحضارة الديمقراطية ، التى أشرقت أنوارها أولا فى الشرق الأدنى ، أن تجدد ايمانها بالمعانى الروحية التى ولدتها ، فتنظر الى المستقبل نظرة الرجل القوى الذى قبل التحدى ؟

ان أنفاس الربيع التى سرت فى الأرض والمخلوقات ، تغرى بالأمل .

الوسيلة والغاية

ليست أزمة برلين فى عرف أقطاب الكرملين سوى وسيلة لغاية أبعد وأخطر شأنا . فما هى الغاية ؟ وكيف يتوسل أقطاب الكرملين بأزمة برلين لتحقيقها ؟

ان الغاية البعيدة التى يرنو الروس الى تحقيقها فى ألمانيا بينة لا يكتنفها غموض ، وفى وسعك أن تصفها فى كلمات قليلة : يريد القادة الروس أن يظفروا بالسلطان السياسى على شعب زاخر القوة ، بلغ أعلى شأو فى القدرة الصناعية ، وأن يقبضوا على زمام موارده الطبيعية فيكفل ذلك لهم تحقيق الأمنية التى خامرت نفس لينين فوصفها بقوله : « ان ألمانيا خليقة أن تصير أقوى الحلقات فى سلسلة الثورات الشيوعية ... » .

هذا هو الغرض البعيد . بيد أنه ينبغى لكل من يحاول أن يتبين سير السياسة الروسية ، أن يفرق بين هذا الغرض ، والأغراض القريبة المباشرة التى يطلبونها ، اذ يجدون أنفسهم يواجهون الدول الغربية الثلاث فى برلين ، وفى الشطر الغربى من ألمانيا .

فقد أقدم الحلفاء الغربيون بعد زمن من التردد والمماطلة ، على أعمال هزت السياسة الروسية هزا عنيفا ، يوم وافقوا على قرارات مؤتمر لندن التى تلخص فى انشاء حكومة ألمانية فى الغرب ، متصلة بالدول الثلاث ،وواقعة تحت نفوذهم ، وعلى المضى فى انهاض مستوى الانتاج فى الرور دون أن يكون للروس شأن فيه أو نصيب منه ، وأن يستعينوا بكل ذلك على انعاش ألمانيا الغربية نفسها ،

وعلى مشاركتها فى نجاح مشروع الانعاش الأوروبى المشهور بمشروع مارشال .

وقد قلق الروس حيال ما رأوا ، حتى لتراهم قد أقدموا على محاصرة برلين ، مع ما تنطوى عليه هذه المحاصرة من خطر لا يزال يتفاقم .

ولكن الروس يرون أن الخطة الغربية ، ان نجحت ، فهى كفيلة بأن تؤدى الى تفويت الغرض البعيد الذى يتوخونه فى ألمانيا . فلصناعة الرور شأن عظيم فى انجاح مشروع مارشال الذى حزموا أمرهم على احباطه ، وهذا بدوره مفض الى ضعف الحزبين الشيوعيين فى فرنسا وايطاليا ، بعد أن انحسر مدهما بعض الشىء . وقد يكون فيه اغراء للدول الأوروبية الشرقية التى تسير فى فلك الشمس الروسية . فلذلك عمدوا الى وسيلة جريئة — وسيلة محاصرة برلين ، عسى أن يظفروا من الدول الغربية المتلكئة بالموافقة على العودة الى بحث مسألة ألمانيا كلها فى مجلس وزراء الخارجية الأربعة .

فاكراه الدول الغربية الثلاث على الخروج من برلين غرض من الأغراض القريبة التى يتوخاها الروس ، ولكنه ليس الغرض العام البعيد . وهو ليس الا بعض الوسيلة التى يتوسلون بها لجعل ألمانيا كلها جزءا من رقعة الدول الشرقية الأوروبية الخاضعة لسلطانهم . وهم يريدون أن يحرجوا الدول الغربية فى برلين حتى تضطر الى الخروج منها ، لأن بقاءها فيها قد يحول دون تنفيذ سياستهم فى الشطر الشرقى من ألمانيا الذى يحتلونه . وتنفيذ هذه السياسة هو الخطوة الأولى نحو انشاء دولة شيوعية فى ألمانيا كلها .

غير أن انشاء هذه الدولة يكاد يكون مستحيلا عليهم ،

ان لم يكن لهم باب يمدون منه يدهم الى سائر ألمانيا • نعم ان زعماء الشيوعية الألمانية فى شرق ألمانيا المحتل ، يكثرون من الحديث عن انشاء فردوس ألمانى ، فى الشطر الشرقى ، فيصير كالمغنطيس القوى يجتذب اليه نفوس سائر الألمان ولكن الروس يدركون أن هذا قول أجوف ، لأن الشطر الغربى أغنى وأدنى الى حسن الحال • فلذلك تراهم يعتقدون أن الوسيلة الوحيدة لنشر الشيوعية فى غرب ألمانيا ، هى ضغط سياسى قوامه : قيـام حكومة ألمانية شيوعية فى برلين ، وانفساح الطريق أمامهم لبث دعوتهم بين عمال الغرب ، ولاسيما عمال منطقة الرور •

وهذا يعلل رغبة أرباب الكرملين فى العودة الى بحث المشكلة الألمانية كلها فى مجلس الوزراء الأربعة • والبيان الذى صدر بعد اجتماع وارسو ، لا يحتمل تأويلا فى صدق هذه الرغبة • فاذا تم لهم ذلك ، وأسفر البحث فى مجلس الوزراء الأربعة ، عن اشتراك الدول الأربع فى تدبير أمر ألمانيا ، أدرك الروس من وراء ذلك ثلاثة أغراض : أولا — فتح الباب الذى يمدون يدهم منه الى غرب ألمانيا • ثانيا — احباط مشروع مارشال بتحريك عمال الرور وخفض الانتاج • ثالثا — معاملة ألمانيا على أنها وحدة ، فهذا يجعلها هدفا أيسر لسلطانها ، أما بقاؤها مشطورة شطرين ، بينهما حاجز فاصل ، فكفيل بأن يبقى الشطر الغربى بعيدا عن منالهم •

وموقف روسيا فى ألمانيا بالقياس الى موقف الدول الغربية ، أضعف اليوم مما كان فى أية فترة سبقت منذ نهاية الحرب • فقد بدأت الولايات المتحدة تتسلح ، وخسرت الشيوعية شيئا من مقامها فى فرنسا وايطاليا ، وهذا مشروع مارشال ماض قدما ، وهو خليق

أن يؤتى ثمره بأسرع مما كان يظن ، وقد عقد ميثاق بروكسل ووعدت أمريكا بالتعاون مع دوله ، وأما الرور فقد جعل حرما على الشيوعيين ، وأما يوغوسلافيا ففى حكم من شق عصا الطاعة على الكرملين ، وربما وجدت جماعات فى سائر دول شرق أوروبا تؤيد يوغوسلافيا وان خشيت أن تفصح عما ترى • فهذه الأحوال مجتمعة لا تتيح لروسيا فرصة تيسر لها أن تدرك الغرض البعيد الذى تتوخاه فى ألمانيا كلها •

ولكنها مع ذلك لا تزال تملك من الوسائل ما يواتيها على احراج الدول الغربية • وفى طليعتها محاصرة برلين فاستمرار المحاصرة حتى بغير التعرض لطائرات النقل الحليفة يحمل الدول الثلاث عبئا يؤودهم ، وقد يعجزون عنه فى الخريف والشتاء • وقد لا يكون دون المحاصرة شأنا ، أن تعرض روسيا فى أى مؤتمر يعقد أن تتراجع بعض التراجع عن المطالب التى حرصت عليها فى مؤتمرى موسكو ولندن فى السنة الماضية — مبلغ التعويضات الفاحش ، وضرورة اقامة حكومة مركزية ألمانية فى برلين • بل قد تقترح أن تجلو جميع جيوش الحلفاء عن ألمانيا ، فاذا أبت الدول الغربية ذلك ظهر الروس فى مظهر المناصر لحرية الألمان ، واذا وافقت ظلت القوة الحربية الروسية دون الأمريكية أقرب الى ألمانيا والى التأثير فى مصيرها — كما فعلت فى تشيكوسلوفاكيا •

وبين الوسيلة والغاية ، يصبح الناس ويمسون ، وهم يشاهدون لعبة القمار دائرة على مصير شعب ، بل على مصير قارة •

بين سياستين متناقضتين

لا يزال ستار الكتمان مسدلا على المباحثات الدائرة فى موسكو[1] ، وكل ما يقال عن تفاؤل بسيرها أو تشاؤم من مصيرها ، هو كالرجم بالغيب . وليس غريبا أن تطول المحادثات ، ولا أن تكتم ، فهى تدور على موضوعات خطيرة ، يرتبط بعواقب بحثها مصير أمة أوربية عظيمة ، أو ربما مصير السلم فى العالم .

فلندعها وشأنها اليوم . ولنحاول أن نستشف ما وراءها من تيارات سياسية تمليها حقائق التاريخ والاقتصاد والجغرافية ، فنسأل : ما سر اهتمام روسيا بألمانيا هذا الاهتمام العظيم ؟ والرد عليه منتزع من التاريخ : كل من يسيطر على ألمانيا ووسط أوربا يصبح سيد القارة . كذلك كان فى عهد نابليون ثم فى عهد هتلر . وفى العهدين كليهما ، مال سيد القارة الى غزو روسيا . فألمانيا فى نظر روسيا ، مصدر الخطر الذى هددها مرتين على الأقل منذ مستهل القرن التاسع عشر . ولروسيا كدولة عالمية ، مصالح عالمية فى الشرق الأقصى ، والشرق الأوسط ، وأوربا . ولكنها لا تخشى أن يأتيها الغزاة الا من قلب أوربا — أو هكذا علمها التاريخ حتى اليوم . فالقوة الوحيدة التى تخشاها هى القوة التى تسيطر على ألمانيا ، سواء أقوة ألمانية كانت أم غير ألمانية . فالقضاء على مصدر هذا الخوف ، مبدأ أساسى فى سياسة روسيا حيال ألمانيا .

فلذلك يحرص الروس على أن يحولوا دون أية قوة تسيطر على ألمانيا ، وليس فى المستقبل المنظور سوى قوتين اثنتين فى وسعهما

---

(1) حول حصار برلين .

أن تسيطرا عليها • أما الأولى فالقوة الألمانية بعد أن تهب ، كما فعلت بعد الحرب العالمية الأولى فى خلال ١٥ سنة وحسب • وأما الثانية فالقوة الأمريكية طليعة الدول الغربية •

وقد اختطت روسيا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى خطة اضعاف ألمانيا وجرت عليها خلال سنتين أو أكثر قليلا • وقد بدا لها أنها خطة تكفل لها ما تريد على الزمن • ففى كل بلد أوربى حرر من الاحتلال النازى جماعات شيوعية تشارك فى الحكم ، وتدبر تدبيرها للاستئثار به • وألمانيا القوية بلد قهر فى الحرب ، فبدأت روسيا تجرد شرقه من وسائل القدرة الحربية ، فنقلت الى روسيا المصانع والخبراء ، وضمت الى بولندة مناجم الفحم فى سيليزيا ، وتقاضت تعويضات كبيرة من الانتاج السائر ، وأنشأت حكومة تصانعها وجعلت مقاليدها للشيوعيين ، وأقامت جيش الاحتلال من ورائها •

وقد صادفت هذه السياسة هوى فى نفوس الدول الأوربية الشرقية التى تدور فى الفلك الروسى •

فتشيكوسلوفاكيا وبولندا تخشيان ألمانيا ، وترغبان فى أن تخضد شوكتها ، وقد ظفرتا بنصيب من غنائم النصر ، فتشيكوسلوفاكيا استردت بلاد السوديت وصارت تتطلع الى أن تصير مركزا صناعيا يحل محل ألمانيا ، فيمون الشرق الأوربى بمنتجاته ، ونالت بولندا ولاية بروسيا الشرقية وتقدمت حدودها الغربية الى نهر الأودر والنيس فهاتان الدولتان يرضيهما أن يتحقق ما تسعى روسيا الى تحقيقه — القضاء على الصناعة الألمانية واطفاء شعلة القومية الألمانية •

ولم تحنق فرنسا فى ذات نفسها على هذه السياسة ، فهى قد ذاقت طعم الغزو الألمانى ثلاث مرات فى سبعين سنة •

ولكن •• ما مصير هذه السياسة لو نهض غرب ألمانيا سواء كانت النهضة ألمانية خالصة ، أو بمعاونة قوة أخرى ؟ فغرب ألمانيا هو الأصل فى قدرة ألمانيا الصناعية الحربية ونهوضه يثير فى شرق ألمانيا شوقا الى الانضمام اليه ، فيميل الى الخروج على روسيا وأتباعها ، وقد يصير قاعدة للهجوم على روسيا •

ولا تسأل لم تتوقع روسيا هجوما من الغرب ؟ فهى تخشاه بحكم العبرة المستخرجة من تاريخها وبحكم المبادىء التى وضعها ماركس يوم قال ان أزمة الانتاج فى العالم الرأسمالى ستفضى حتما الى مثل هذا الهجوم • ويعزز هذا الخوف ادراك الروس أنهم لا يجارون أمريكا قدرة على الانتاج الصناعى العظيم •

فلذلك يصح أن تقول أن بداية مشروع مارشال بعد اخفاق مؤتمر لندن فى ديسمبر ١٩٤٦ كان فاتحة عهد جديد فيما اتخذته روسيا من سياسة فى ألمانيا ، فقد رأت ذلك المشروع قائما على انهاض غرب ألمانيا انهاضا صناعيا وسياسيا ، وشاهدت اخراج الشيوعيين من شتى الحكومات الأوربية وخذلانهم بعض الخذلان فى فرنسا و ايطاليا بل فى فنلندة ، فقررت أن خطتها الأولى فى ألمانيا القائمة على اضعافهـا ، لا تجديها فى هـذا الطور الجديد وتبينت أنها لا تستطيع أن تنافس الدول الغربية فيما يعرضونه على ألمانيا من انهاض غربها الا أن تبزهم فيما تعرضه هى ، فنادت بوحدة ألمانيا وتقويتها وبقيام حكومة ألمانية مركزها فى برلين التى يخفق لذكرها كل قلب ألمانى وفى نفسها أن تجعل ذلك تحت اشرافها •

وقد وافق البولنديون والتشيكوسلوفاكيون على خطة روسيا الأولى ، لأنها تؤمنهم من نهوض دولة ألمانية قوية ، ولأنهم رضوا بالغنائم التى نالوها . ولكن الخطة الثانية لا تغريهم بل تخيفهم فهم لا يريدون أن يكونوا مرة أخرى موطئا للصراع بين قوتين عالميتين وهم لا يكرهون الغرب بل يريدون الانتفاع بالاشتراك الاقتصادى معه ولكنهم يكرهون ألمانيا وهذه الخطة الجديدة مسددة ضد الغرب ، وقائمة على تعزيز ألمانيا . فهم يستريبون عواقبها من الناحيتين ، واذا استيقظت القومية الألمانية واتحدت ألمانيا الشرقية والغربية فكيف تغفل ألمانيا الموحدة الناهضة تلك الولايات التى ضمت الى هذه أو تلك من دول شرق أوربا ؟

واذا اشتدت شوكة ألمانيا المتجددة فكيف تحذر قوتها مستقلة أو تابعة لروسيا ؟

وقد روى أن مولوتوف دعا وزراء خارجية الدول الشرقية الى وارسو فى يونيو الماضى لينال الموافقة على هذه الخطة الجديدة ، ويقال انهم أبوا .

كذلك تجد روسيا واقفة بين سياستين احداهما تناقض الأخرى ، وكل منهما تثير مشكلات خاصة بها . فالأولى لا تكفل لها الحيلولة دون نهوض ألمانيا الغربية والثانية تثير عليها اتباعها فى شرق أوربا وأغلب الظن أن تشددها فى المساومة غرضه أن تنال بعض ما تريده فى غرب ألمانيا ، بغير أن تفلت من أيديها مزايا الخطة الأولى وانها لمساومة !

هدنة فى الحرب الباردة

أيقبل الحلفاء الغربيون أن ينصرفوا عن الخطة التى وضعوها لانشاء حكومة ألمانية فى غرب ألمانيا ، مقابل موافقة الروس على رفع الحصار عن برلين ؟ أمن مصلحتهم أن يرضوا بذلك ؟

ليس السؤال عن هذين الأمرين ، سؤالا فلسفيا مجردا لا صلة له بحقائق الحالة الدولية المضطربة . فمنذ ثلاثة أشهر عقد ممثلو دول الاتحاد الغربى والولايات المتحدة مؤتمرا فى لندن ، أقروا فيه بعد بحث وجدل ، مشروعا لانشاء حكومة ألمانية غربية ، ونظاما للاشراف على منطقة الرور الصناعية . وتلا ذلك مؤتمر وارسو الذى حضره مولوتوف وممثلو الدول الأوربية الشرقية ، فلما انفض جاء فى بيانه ما مؤداه أن الاتحاد السوفيتى يستنكر : قيام حكومة ألمانيا الغربية ، وانفراد دول الغرب فى الاشراف على الرور .

فما سر موقف روسيا من مشروع ألمانيا الغربية ؟

من البين الآن أن موقف روسيا فى مؤتمرات وزراء الخارجية الأربعة التى عقدت فى باريس ثم فى موسكو فلندن ان حكام روسيا كان يغلب على رأيهم أن مناطق الاحتلال الغربية فى ألمانيا مشرفة على الانهيار الاقتصادى . فكانت خططهم فى المؤتمرات الثلاثة قائمة على هذا الفرض ، الذى كان عندهم فى منزلة اليقين ، واذا هم يأبون أن يبحثوا موضوع ألمانيا ورد وحدتها الاقتصادية عليها (مؤتمر باريس) ، أو يبالغون فى النقاش والجدل ، ليحولوا دون الاتفاق (مؤتمرا موسكو ولندن) .

فلما مالت الدول الغربية بعد ذلك الى الاستقلال بالعمل فى مناطق احتلالها ، اشتد اعتراض الروس عليها ، واتهموها بتمزيق أوصال ألمانيا ، بل أشاروا من طرف خفى الى احتمال قيام أزمة دولية •

فقد رأوا أنهم اذا منعوا الاتفاق بين الدول الأربع على ألمانيا ، وحالوا دون استقلال الدول الغربية الثلاث بالعمل ، فالانهيار الاقتصادى فى غرب ألمانيا أمر لا مفر منه ، فتقوم فى ألمانيا حالة كالثورة تعجز الدول الغربية عن علاجها ، ويومئذ يتولى الشيوعيون زعامة الجماهير الألمانية الثائرة ، ويتسلمون مقاليد الأمور فتقوم فى ألمانيا كلها ، دولة شيوعية •

ولكن الحلفاء الغربيين فوتوا على الروس هذا الغرض ، فبعد انفضاض مؤتمر لندن على خلاف ، بدأت الدول الغربية تتدبر أمر غرب ألمانيا ، على وجه يفضى الى انتعاشه ، فلما عرض مارشال مبدأ مشروعه ، كان لغرب ألمانيا مكان فيه لا غنى عنه لنجاحه ، ثم أقر المشروع وبدأ تنفيذه وأنت تنظر اليوم فترى غرب ألمانيا سائرا فى طريق النهوض ، ومشروع حكومته الذى وضعته الدول الغربية الست ، وقبلته فرنسا على تردد ، ثم وافق عليه الألمان بعد شىء من التعديل ، يوشك أن يحقق • فصار هم الروس أن يمنعوا ذلك ان استطاعوا ، أو أن يرجئوه ، أو أن يكون لهم نصيب فيه • واذا الشدائد التى تتعرض لها الدول الغربية فى برلين هى وسيلتهم لهذا الغرض •

والحلفاء الغربيون يرون أن بقاءهم فى برلين حق لهم ، بحسب اتفاق بوتسدام ، وأن رضوخهم للضغط الروسى يسىء الى سمعتهم والى الثقة بهم فى غرب أوربا ، ويعرض ألمان برلين الذين يوالونهم

للخطر ، فدأبوا على التصريح بأنهم باقون . ولكن بقاءهم فيها ليس بالأمر اليسير ، اذا مضى الروس فى حصارهم .

ولذلك اقترح أحدهم أن تعد قافلة تموين فى غرب ألمانيا ، وأن تسير الى برلين خلال منطقة الاحتلال الروسية ، فاذا اعترضها الروس فلتشق طريقها بالقوة ، فيسفر ذلك عن أحد اثنين . اما أن تنشب الحرب ، واما أن يرضى الروس بالأمر الواقع . ولكن ساسة الدول الغربية رفضوا هذا الرأى ، لأنه ينطوى على مخاطرة كبيرة ، وكلهم يأبى أن يحمل تبعة العواقب التى قد تنجلى عنها ، فقال الوزير مارشال ، « لن نرضخ للقوة ، لكننا لن ندخر وسيلة من وسائل السياسة للوصول الى اتفاق » . وعلى أثر ذلك بدأت محادثات موسكو .

أى أن الحكمة قضت بالانتهاء الى رأى يمكن أن تلتقى عنده روسيا والدول الغربية ، واذا لباب الموقف الغربى فى محادثات موسكو رضاء الدول الغربية بالمفاوضة على المسألة الألمانية ، مقابل أن يرفع الروس الحصار عن برلين توطئة للمفاوضة .

ويرى فريق من أهل الرأى أنه اذا أصر الروس على الغاء مشروع ألمانيا الغربية (وأثر ذلك فى احباط مشروع مارشال ونهوض دول أوربا الغربية لا ينكر) قبل رفع الحصار فخروج الحلفاء من برلين أهون شرا من قبول هذا الشرط الروسى ، وقبوله يعد هزيمة سياسية أنكر وأفدح أثرا من الخروج من برلين .

والاتفاق على عقد مؤتمر لبحث المشكلة الألمانية برمتها شىء ، وعقد مؤتمر خليق أن ينتهى الى اتفاق شىء آخر . فقد قتلت أصول المشكلة الألمانية بحثا ونقاشا من قبل دون بارقة أمل

فى اتفاق • فهل غير الروس رأيهم ؟ لسنا ندرى ، ولكن الشيء الذى لا ريب فيه ، هو أن جميع هذه المتاعب مردها الى انقسام أوربا — أو العالم — الى معسكرين يستريب أحدهما الآخر • ولن تجد على المدى البعيد سوى حلين للمشكلات القائمة بينهما : اما أن تنال روسيا كل ما تريد ، واما أن تغير خططها •

فاذا سلمت الدول الغربية لروسيا فنالت كل ما تريد ، فقل العفاء على الغرب ونهجه فى الحياة • والدول الغربية لن تسلم طائعة عن يد بكل هذا • فان لم تغير روسيا خططها ، فهى الحرب عاجلا أو آجلا • وأغلب الرأى عند الخبراء أن روسيا قد تغير خططها القريبة ولكنها لن تعدل عن أهدافها البعيدة • واذن فالأمل اليوم هو أن تسوى بعض الأمور بحيث يكون قيام هذين المعسكرين ، أحدهما قبالة الآخر ، شيئا مستطاعا زمنا ما ، وأن تمضى الدول الغربية تصلح من نفسها وتسير يدا واحدة ، الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا •

بيد أن رجال السياسة الغربية يفرضون أن الروس يطلبون السلام والتعاون ، ويفاوضونهم على هذا الأساس • ومن ذوى الرأى من يرى أن الزمن قد يقنع الروس بأن التعاون أجدى • وهذا فيما نظن هو الدور الجديد فى علاقة أحدهما بالآخر — دور السعى الى قيام ضرب من « هدنة عالمية » • فقد كان هم فئة من ساسة الغرب الى عهد قريب أن يحسموا ما أطلقوا عليه « الحرب الباردة » ، أما اليوم فيلوح أن هذا الرأى جعلهم ينصرفون الى أن يمدوا أمدها ، لأنها اذا ما حسمت والحال هى هذه الحال ، فيغلب أن حسمها لن يكون الا بنشوب « حرب حامية » •

لا حرب ولا سلام

خلال أربعة أسابيع قضيتها بين نيويورك ووشنطن لم أقرأ صحيفة ، ولم ألتق بأحد من أهل الرأى ، ألا وجدت السؤال عن مصير الأزمة العالمية بين الشرق والغرب مكتوبا فى السطور أو بينها أو موضوعا للحديث ، حتى لقد روى لى أن وزارة الخارجية الأمريكية أشارت على كبار الكتاب الصحفيين بأنه من الخير أن يتندوا ، وأن تخفف الصحف لهجتها فى معالجة الأزمة والاشارة الى الحرب •

وقد كنت فى وشنطن أتعشى مع جماعة من الأصدقاء ، وكان بينهم رجل يحسن الاستماع اليه ، فقال وهو ينكر أنه على علم غير العلم المبذول فى الصحف للناس : كنا نظن هنا حتى اليوم أن روسيا لا تنوى أن تقدم على حرب مدمرة ككل حرب كبيرة تنشب فى هذا العصر الذرى ، ولكننى غدوت اليوم غير واثق من صدق هذا الظن ، ولا أنا مطمئن اليه •

وكان ذلك اليوم هو اليوم الذى ألقى بيفن فى صبيحته خطبته فى الجمعية العمومية فى باريس • وقد كانت خطبة ترددت أصداؤها فى جنبات الأرض وهى التى قال فيها مخاطبا فيشنسكى ، « أصحيح برغم كل ما يقال على هذا المنبر أن فكرة ماركس ولنين تحتم أنه لا يمكن أن يتم اتفاق نهائى بين روسيا والدول غير الشيوعية • ان اعادة الثقة الى العالم تقتضى عملا لا قولا • فأرونا العمل — هاتوا الدليل على حسن النية » • وقد روت الصحف أنه لم يكد يفرغ منها حتى هب الحاضرون وقوفا وهم يهتفون ، واذا فيشنسكى

يقف أيضا ، ووجهه عابس جهم وفكاه مطبقان ، ولكنه لم يقف ليشارك الناس ، بل ليخرج من بهو الاجتماع • فظن الناس أن الدقيقة الحاسمة قد دنت وأن روسـيا سوف تترك هيئة الأمم المتحدة تنعى من بناها •

فلما كنت فى لندن بعد ذلك بأيام ، رأيت شيئا لم أكن أتوقعه • فقد كانت الصحافة البريطانية تنعى على الأمريكيين شدة تفزعهم من خطر الحرب ودنو شبحها ، فاذا هم أيضا فى تلك الأيام الأخيرة من سبتمبر ، والأيام الأولى من أكتوبر ، يساورهم غير قليل من القلق — دون أن يلم الذعر بنفوسهم • فقد قرأت أمرا فى الصحف بالكف عن ازالة المخابىء التى كانت قد صنعت فى الحرب العالمية الثانية ليلجأ اليها الناس حين تنذر الصفارات الناعبة بغارة جوية ، وأسر الى أحدهم ، وأنا غير واثق من صحة علمـه ، أن القنابل الذرية قد وزعت فى المواقع المختارة ، وكتبت صحيفة الديلى ميرور تقول ، أن الأمة البريطانية محيرة ولكنها هادئة ، وقلقة ولكنها رزينة ، وهذا وصف يصدق • ولكن لم أجد أحدا ممن يعنون بالمسائل الدولية ، لا فى أمريكا ولا فى بريطانيا ، ولا فى باريس حيث اجتمعت الدنيا ، الا وعلى شفتيه سؤال : أوقوع الضربة وشيك ؟ أم يرجأ سنة أو أكثر ؟

من يدرى ؟

على أن استقصاء ما تكتبه الصحف الرزينـة ، والصحفيون الذين يقدرون التبعات الواقعـة على كواهلهم ، وما يقوله أهل المعرفـة والسياسة أو يروى معزوا اليهم ، يسفر عن حقيقتين • أما الأولى فان الدول الغربية ليس عندها دليل قائم على أن روسيا

تتأهب لأعمال حربية وشيكة ، نعم ان الجيش الأحمر فى شرق ألمانيا أقوى كثيرا من القوات الغربية فى غرب ألمانيا ، ولكن ليس ثمة ما يدل على أن روسيا تعزز ذلك الجيش تأهبا لقتال قريب ، وفى وسعك أن تعلل ما يعرف عن بعض الحركات الحربية فى غرب روسيا الجنوبى بما يساور روسيا من بعض القلق حيال الدول التابعة لها ، دون أن تنفى نفيا قاطعا انه تأهب للحرب .

وما قاله صاحبى عن فرضه أن روسيا لا تنوى أن تحارب ، قائم فى أغلب الرأى على ما تراه مفصلا فى الصحف والمجلات الأمريكية من الاعتقاد الذى فى منزلة اليقين ، فى أن روسيا لا تملك القنبلة الذرية الآن ، وان قدرتها الصناعية لا تزال متخلفة عن مقتضيات حرب عالمية النطاق .

غير أن الذين يصفون لك هذه الحقيقة العامة ، لا ينكرون مطلقا أن قدرة روسيا على الدفاع هى قدرة هائلة ، وانها اذا كانت هدفا لاعتداء وهجوم ففى وسعها أن تدافع دفاعا عنيدا .

وأما الحقيقة الثانية فهى أن الدول الغربية أيضا لا تفكر ولا تنوى أن تعدّ هجوما على روسيا . ومن الشائع الذى طالعتنا به الصحف منذ أن بدأت أزمة برلين تستحكم فى أوائل الصيف ، ان سلاح الطيران الأمريكى قد حشد فى بعض مطارات بريطانيا قوة لا بأس بها من القاذفات الضخمة وأن فى قدرتها أن تضرب ضربات قوية ، اذا عن لروسيا أن تهجم فى أوربا ، وأنه لا يستبعد فى هذه الحالة أن تعمد الدول الغربية الى استعمال القنابل الذرية . وهذا من قبيل الاحتياط للطوارىء .

وقد قضيت سهرة ممتعة مع أمريكى وزوجته وكلاهما من

أذكى من عرفت من الأمريكيين وأقومهم خلقا وأبعدهم عن الرغبة فى الاعتداء على أحد من الناس أو من الأمم • فرددا كلاهما قولا يقال فى أمريكا : اذا كان التفاهم مع روسيا مستحيلا ، واذا كانت روسيا بطبيعة الفلسفة الماركسية التى يأخذ بها القوامون على أمورها لن تنثنى عن بلشفة العالم — كما صرح بيفن — فلماذا ونحن نملك القنبلة الذرية الآن وهى لا تملكها لا نعمد الى « الحرب المانعة » قبل أن تملكها هى ويصير فى وسعها أن تستعملها دون وازع •

والروس يذيعون على الناس أن فى أمريكا فئة من رجال المادة ودعاة الحرب الذين يسيطرون على سياسة أمريكا ، يريدون هذا ، وولاس يردده فى أقوال تسوقه اليها شهوته السياسية • والناس تقرأ ما يقوله الروس وما يردده ولاس فيتناقلونه ، ولكن أوثق الناس علما يؤكدون أنك لن تجد بين رجال الحكومة الأمريكية المسئولين ولا بين مستشارى ديوى الذين سيتولون دفة السياسة الأمريكية بعد ٢٠ يناير اذا ظفر بالرياسة ، رجلا واحدا يرى هذا الرأى وهذا يصدق على بريطانيا أيضا بل ربما كان عليها أصدق •

وخلاصة الأمر كما وصفته مجلة تايم أن الغرب لا ينوى أن يكون المبادر الى حرب مانعة أو غيرها ، وأن الغرب ليس عنده دليل يصح الاعتماد عليه أو أية اشارة قوية الى أن روسيا توشك أن تهجم ، وأن كلا الفريقين لن ينثنى عن رد الهجوم بمثله اذا وقع •

هذا تقدير مبنى على حقائق ان لم تعرفها جمهرة الناس ، فهى غير خافية عن أولى الأمر • ولكن الحالة التى تفضى الى الحرب ليست شيئا يقاس بالأرقام بل تطرأ عليه عوامل نفسية

وعقلية لعلها تكون أعمق أثرا فى أخذ القرار أو الامتناع عن أخذه من حشد الطائرات والدبابات والقنابل •

واذا كان الفيصل الحاسم فى حرب عالمية هو القدرة الحربية الجامعة الحقيقية فان قرار خوض الحرب يقوم فى أغلب الرأى على تقدير قوتك وقوة خصمك ، فاذا قدرت أن قوتك أعظم رجحت كفة الحرب فى نظرك ، واذا قدرت أنها أقل أحجمت ، ولكن التقدير عرضة للخطأ فى الحالين •

وليس ثمة من يعرف ما هو تقدير الرجال الذين يديرون دفة السياسة السوفيتية • فاذا كان رأيهم أن قدرة أمريكا هى أكبر الآن ولكنها أميل الى الانحدار فى المستقبل ، وان قدرتهم أميل الى الصعود ، مالوا عن طريق الحرب • واذا كان العكس مالوا الى الحرب الآن • وقد يكون بين الذين يرون الرأى الأول والذين يرون الرأى الثانى ، فريق يرى أن القوتين متعادلتان الآن ، أو كالمتعادلتين ، فهو يستطلع ليرى الأدلة التى تقنعه بأن قوة الغرب فى انحدار فينحاز الى الفريق الأول ، أو فى ازدياد فينحاز الى الثانى •

والفرض المقبول فى أمريكا ، وربما فى دول الغرب ، هو أن روسيا تقف الموقف الأول لاعتقادها أن النظام الغربى ينطوى على بذور اضمحلاله ، وانها تستطيع عن طريق الأحزاب الشيوعية أن تعجل ذلك الاضمحلال ، وليس بين الوسائل المتاحة لروسيا لتحقيق هذا الفرض وسيلة أبعث على الخطر وتفويت الغاية من الحرب نفسها ، فهى لذلك تتخذ الآن من احباط مشروع مارشال فى أوربا أول غرض لها فى سياستها الأوربية ، وتستعين على ذلك بأزمة برلين التى صارت مستعصية ، وباضراب العمال فى فرنسا ، الذى يكلف

فرنسا كل يوم من الدخل القومى أو الانتاج قدر ما تناله من نصيبها فى مشروع مارشال أو ربما أكثر منه ، وبوسائل أخرى على هذا الغرار •

واذا كانت الحرب غير مستحيلة فى هذه السنة ، فانها غير محتملة ، ولكن الشيء الذى يكاد يكون كالثابت المؤكد ، هو دوام اضطراب السلام ، والعجز عن الاستقرار • وقد عزى الى رجل كبير من رجال الحكومة الأمريكية قول يلخص هذا المعنى فى قالب يسترعى النظر قال : « الأزمة دائمة ، فينبغى للشعب الأمريكى أن يألفها » •

وقد يضاف الى هذا المعنى أن النزاع على ما كان يسمى المسألة الشرقية ، كان كالصفة الدائمة الغالبة على السياسة الأوربية فى القرن التاسع عشر ، أو كالأزمة الدائمة التى يشير اليها السياسى الأمريكى • وقد كان أصلها رغبة روسيا الملحة فى التوسع جنوبا والاستيلاء على الآستانة ، فلم يثنها عن ذلك سوى علمها أن المحاولة تفضى الى حرب مع بريطانيا وقد ظل التوتر قائما بعد حرب القرم ، سبعين سنة فلم تنشب حرب ، فكأن الدولتين ألفتا هذه الأزمة ، ثم كانتا حليفتين فى الحرب العالمية الأولى الى سنة ١٩١٧ •

ففى هذا ما يغرى بعض أصحاب الأمل بأن يقولوا انه اذا دخل فى روع الروس أنهم لن يلقوا مقاومة من الغرب ، مهما فعلوا ، فقد يغلب عليهم اغراء الميل الى التوسع • فالأمل الوحيد الذى يستطيع الغرب أن يتعلق بأهدابه اليوم ، هو أن يوضح لروسيا الحد الذى اذا تخطته كان تخطيه ايذانا بقيام الحرب • فاذا صدق التقدير فربما أفضت السنون الى تلطيف المخاوف وتيسير التفاهم والتعاون •

أما اليوم فالأغلب أن لا حرب ولا سلام والأزمة دائمة — الى حين .

أوروبا تتلفت

على الرغم من جو « الأزمة الدائمة » الذى يخيم على قصر شايو فى باريس ، لن يعوزك الدليل بعد أن تزور بريطانيا وفرنسا ، وبعد أن تتحدث الى المندوبين الأوربيين والصحفيين العالميين فى باريس ، على أن أوربا الغربية كانت فى الصيف وأوائل الخريف ، أدنى الى حسن الحال من كل يوم سبق منذ أن حررت فى سنة ١٩٤٤ وأوائل ١٩٤٥ ، فهى كالمريض ألحت عليه العلة زمنا فنهكت قواه ، ولكنه أخذ يحس بطلائع العافية تنساب فى عروقه ، فهو ميال الى التفاؤل ، وان كان لا يزال ضعيفا .

ادخل أى مطعم تشاء فى باريس تجد الطعام وافرا أو جيدا كعادته ، وان كان اللبن لا يزال نادرا والسكر قليلا ، والثمن — الا اذا بعت الدولارات بالفرنكات السود — غاليا . أما فى انجلترا فلا يزال الطعام تافها وان كان كافيا ، ولكنك تصيب أكلا جيدا فى بعض المطاعم التى يدلك عليها أهل المعرفة من أبناء لندن ، أو زوارها ذوو التجربة . وقد ذهبت ذات ليلة الى مطعم فندق سافوى ، فكان الأكل لا بأس به ، أما الظفر بالزبد فقد استعصى علينا ، ولعلنا لم نحسن غمز رئيس الندل — والله أعلم . أما الملابس فى فرنسا فكثيرة ، وكذلك الأحذية وأثمانها تتفاوت تفاوتا كبيرا وفقا للمصدر الذى تنال منه الفرنكات . ولكنها فى بريطانيا لا تزال ممتنعة الا على صاحب البطاقات . وقد أطلقوا الأحذية

من عقال البطاقة ، بيد أنها غالية • ولا يزال الازدحام الناشيء عن قلة الدور ، شديدا ، ولكن الدور تبنى وان كانت سرعة بنائها لا ترضى كثيرين من النقاد •

ويقول أهل العلم فى فرنسا ان فرنسا قد يتم انتعاشها الاقتصادى فى سنة ١٩٥٢ ، ولكنهم يتحفظون فيشترطون أن لا تقع كارثة دولية كبيرة ، وأن لا تحدث فى فرنسا نفسها حوادث خطيرة تحد من نفع مشروع مارشال أو تبطل نفعه • أما أهل البلجيك فأدنى الى التفاؤل من أهل فرنسا ويعتقدون أنهم بالغون حدود الرخاء فى بحر سنتين • وأما البريطانيون فيغالون فى الحذر ، ويأخذون أنفسهم بأشد القيود حتى تردم الهوة بين مدفوعات صادرهم ووارده ، فلذلك يأبون أن يظنوا أنهم يبلغون الرخاء الذى عرفوه قبل الحرب ، حتى سنة ١٩٥٥ مهما واتتهم الأحوال •

وسبب هذا الشعور هو اقتصادى فى المقام الأول • ومن هنا ما تراه من رضى عن أمريكا ، فمشروع مارشال — اذا صرفت النظر عن ملابساته السياسية — يتيح لأوربا الغربية عونا ماديا ، عظيم النفع ، خلال فترة تعد كافية لانتعاش دول أوربا على أساس من اصلاح أمرها وتوثيق التعاون الاقتصادى بينها • وقد تجد من يأخذ على أمريكا بعض المآخذ ، كقول من يقول : لقد أثرت أمريكا خلال حربين عالميتين ، فلا ترسل لنا اليوم سوى الفتات الساقط عن مائدتها • ولكن قلما تجد رجلا يقول هذا القول ، أو قولا آخر على غراره ، دون أن يجد من ينبرى له فيقول : ماذا تطلب أكثر من هذا ، ترى ماذا كنا نصنع نحن لهم لو انقلبت الآية •

على أن الريبة التى تساور بعض النفوس فى مشروع مارشال ،

هى ريبة تمتد الى البواعث السياسية التى تعزى الى سياسة أمريكا الخارجية ، والى التقديرات الحربية التى يقال أن خطة أمريكا الحربية تنطوى عليها •

أما الريبة فى البواعث السياسية فمرد أكثرها الى ما يحاول ألسنة الروس أن يذيعوه ، فيشيرون الى نزعة أمريكا الاستعمارية ورغبتها فى التوسع وميلها اليه • بيد أنك ترى من الأوربيين جماعة من أهل الذكاء والحصافة ، لا ينساقون مع تيار الدعاية الروسية ؛ ولكنهم مع ذلك يرون أنه أمر طبيعى أن تميل أقوى دولة على الأرض الى التوسع ، ويظنون أن مستعمرات الدول الأوربية سوف تكون فى طليعة الأراضى التى تدخل فى نطاق هذا الجبار الجديد ، ويعتقد غيرهم أن شدة النزاع بين أمريكا وروسيا ، سوف تقضى بطبيعتها الى حمل أمريكا على بسط سيطرتها على بلاد ليست بلادها ، وانها قد تفعل ذلك مباشرة أو بالمداورة ، ولكنها مضطرة اليه على كل حال • ويخشى آخرون أن يفضى توسع أمريكا الاقتصادى عن طريق العون ، الى استيلائها على الأسواق العالمية ، فيفضى ذلك فى آخر الأمر الى أن تصاب بلاد أوربا الغربية الصناعية بفاقة دائمة • وقد نضيف الى ذلك كله شكهم فى نية أمريكا اذ يرونها تؤيد طائفة من الحكومات لا يمكن أن تعدها من الطراز الديمقراطى ، فهؤلاء يغفلون أن أمريكا انما تفعل ذلك من قبيل الضرورة فى حرب ، هى حرب حقيقية وان وصفوها بالحرب الباردة •

على أن أوربا الغربية ترى بوجه عام أن أمريكا لا تبيت غرضا استعماريا تطويه فى ثنايا مشروع الانعاش ، وتعتقد أن العون الاقتصادى والعون الحربى المرجى ، هما تعبير عن صدق حسها

فى ترابط العالم الاقتصادى ، وصدق عزمها فى الكفاح دون تغلغل النظام الشيوعى •

وأخشى ما يخشاه الأوربيون ، هو نشوب الحرب ، بين أمريكا وروسيا ، فتكون أوربا ضحيتها الأولى ، وأكثرهم يعتقد أنه اذا نشبت هذه الحرب فى فترة قريبة ، فان قوة أمريكا ومن ينضم اليها كفيلة بالظفر فى آخر الأمر ، ولكنهم لا يغفلون أن الخطة الحربية فى المرحلة الأولى قد تقتضى ترك أوربا الغربية للاحتلال الروسى ، فالخوف من أن يكون هذا هو مصير أوربا فى الصراع المستحر القائم الآن ، هو الذى يلون رأى أوربا الغربية فى كل عمل نافع مجـد تسديه أمريكا اليهم • وقد قال أحدهم فى وصف ذلك : « جميع أخبار الخير وجميع أخبار السوء تأتينا من أمريكا » •

واذا كان هذا هو موقف أوربا الغربية من أمريكا ، فما هو موقفها من روسيا ؟

لقد طرأ على هذا الموقف تبدل كبير خلال السنوات الثلاث أو الأربع منذ انتهت الحرب فى أوربا أو أشرفت على نهايتها •

فقد كان الاعجاب يملأ صدور الأوربيين ببسالة الجيش الأحمر وقوة شكيمته فى مرحلة الدفاع ، ثم قدرته على الهجوم ، وثبات النظام الروسى الذى لم يتزلزل فى مرحلة الظفر الألمانى ، وقوة حركات المقاومة الخفيـة فى روسيا والبـلاد المحتلة ، وقد كان الشيوعيون سندها وعمودها الفقرى • وقد توقع أهل أوربا بعد الحرب أن تقتسم أمريكا وروسيا زعامة العالم ، ولم يستنكروا أن يكون لروسيا هذا الشأن الخطير ، بل كان منهم من لا يستنكر أن يكون لها الشأن الأول •

ولو أحسنت روسيا العمل يومئذ لكان لها أكبر الأثر فى توجيه أوربا الخارجية من أتون الحرب، ولكنها على ما يلوح أغرتها القوة التى انقادت لها ، فأقامت سياستها حيال أمم أوربا على أساس من التعاون الوثيق مع الأحزاب الشيوعية المحلية دون سائر الجماعات الكبيرة والصغيرة غير الشيوعية • ويرى الأوربيون أن موسكو أساءت التقدير فظنت أن قوة هذه الجماعات أقل من قوتها الحقيقية ، وأن رغبتها فى المشاركة فى تسيير دفة أوربا وفقا لبرنامج تضعه موسكو وتوحى به ، هى أقوى من رغبتها الصحيحة ، ثم أخطأت تقدير قوة الأحزاب الشيوعية وقدرتها على أن تتسلم زمام الأمر فحسبتها أعظم مما هى ، فأقدمت على العمل معها وحدها ، دون برنامج طويل الأمد غرضه توجيه الأحزاب غير الشيوعية توجيها رفيقا حتى تصير راضية فى التعاون مع الشيوعيين الذين ينقادون الى رغبات المكتب السياسى فى موسكو • وكذلك شدت موسكو الى مركبتها السياسية جياد الأحزاب الشيوعية المحلية ، فلما ضعفت منزلة هذه الأحزاب ، ضعف نفوذ روسيا • وليس سبب هذا الضعف سياسيا كله ، بل بعضه اقتصادى صناعى أيضا ، فقد كانت روسيا عاجزة فى ساعة الحاجة عن أن تمد بلاد أوربا بكثير من الأشياء التى لم تزل الحاجة اليها شديدة ، أو لا غنى عنها للنهوض من هوة الضعف الصناعى والزراعى التى تردت فيها •

وكذلك فقدت روسيا بعض المنزلة التى كانت تستمتع بها فى الفترة الأولى التى تلت ختام الحرب العالمية الثانية فى أوربا • ولم يبق من ذلك كله اليوم — فى الدوائر غير الشيوعية — سوى أن روسيا دولة قوية حقا تحاذر سطوتها ، وانها سائرة فى طريق

قومى قح تنال ما تستطيع بغير أن تبدى رغبة صادقة يؤيدها العمل فى اسداء يد للنهوض الاقتصادى فى أوربا واستقرار الطمأنينة والسلام .

والأوربيون يخشون نشوب الحرب لأنهم يعتقدون أن فى قدرة الجيش الروسى ، أن يكتسح غرب أوربا ، وأنهم اذا فعلوا وجدوا غير قليل من العطف والعون بين طوائف العمال ، وأن اجلاءهم بعد ذلك عن أوربا الغربية يقتضى حربا طويلة طاحنة ، قد تدمر أوربا نفسها ، فلذلك تجدهم يرغبون أكثر مما يرغب الأمريكيون ، فى التوسل بكل وسيلة ممكنة متاحة لتحقيق التبادل والتعاون الاقتصادى مع روسيا . ولولا حادث تشيكوسلوفاكيا لكانوا اليوم أشد ميلا الى الذهاب كل مذهب لتحقيق هذا التعاون .

ولو قنعت روسيا اليوم بالوقوف فى غزو أوربا عند الحد الممتد من البلطيق الى تريسته لما رأيت أحدا من الأوربيين فى الغرب يرضى بأن يناوئها ، أو يستفزها ، ومن هنا ما كان من ميل سياسة فرنسا الى شيء من الاعتدال أو الى الحد من اندفاع الأمريكيين ، فى بحر الأشهر التى جرت فيها مفاوضات موسكو على مسألة برلين ثم بعد عرضها على مجلس الأمن .

وأنت اذا نظرت الى الرقعة الأوربية الواقعة غرب الستار الحديدى ، وجدت بلادا يقطنها ٣٠٠ مليون من الناس ، بلغوا أبعد شأو من التثقيف والحذق فى الصناعة والزراعة ، ولهم من الموارد الطبيعية والقدرة على الانتاج ما يكفل لهم ، لو كانوا يدا واحدة فيما يملكون ويصنعون ، أن يكونوا قوة عالمية ثالثة تضارع أمريكا على الأقل ، وتفوق روسيا الآن ، وتستطيع أن تقبض بيديها على

زمام التوازن بين القوتين • فالمشكلة التى تواجهها أوربا الغربية اليوم هى تحد يتحدى عزيمة شعوبها ، وذكاءها ، وغريزة حفظ الكيان التى تتحفز فى نفوسها • وقد استطاعت الشعوب الأوربية ، أن ترد الغزاة الوافدين عليها من الشرق ، على أثر انهيار الدولة الرومانية ، وقد فعلت ذلك يومئذ اما منفردة واما مجتمعة فى محالفات صغيرة عابرة ، أما اليوم فلا يسعها أن تفعل الا اذا صارت يدا واحدة ، وهذا هو النداء الذى يوجهه التاريخ اليها اليوم ، وتفرضه عليها غريزة البقاء •

المنخدر والهوة

فى أوائل شهر أكتوبر أذيع فى عواصم الاتحاد الأوربى ، أسماء الضباط العظام الذين عهد اليهم فى تولى المسائل الحربية المشتركة ، بالبحث والتدبير ، وكان على رأسهم الفيلد مارشال مونتجمرى •

وقد قابلت فى مساء ذلك اليوم صحفيا كبيرا فى لندن ، فسألته فيما تم ، فقال ان الروس فى عنتهم ، وايثارهم الجدل العنيف على العمل ، وحرصهم على احباط كل شىء لا يتفق ورأيهم ، قد أيقظوا جبارا كان مغفيا — أيقظوا غرب أوربا ! قابل ما تراه اليوم بما كان منذ سنة وحسب •

منذ سنة كان مارشال قد عرض المبدأ الذى قام عليه مشروعه ، وقد عرضه على أوربا كلها ، ولكن روسيا أبت أن تقبل ، وأرغمت الدول التابعة لها أن تأبى أيضا • وكان موقف الكونجرس الأمريكى حيال هذا المشروع لا يزال مجهولا ، وأما دول أوربا الغربية فكانت

لا تزال تبحث فى انشاء هيئة التعاون الاقتصادى الأوربى ، وكانت فكرة الاتحـاد الغربى وميثاق بروكسل لا تزال كالحلم يطوف فى نوم النائم الى أن أفرغه بيفن فى يناير الماضى ، فى قالب عليه سمة من الواقع ، وسوف يعود المؤرخون فى المستقبل الى هذه الفترة القصيرة التى لا تكاد تتجاوز سنة وبعض سنة ، فيدهشهم التطور الذى تم ، وان كان بطيئا لا يجارى آمال الغرب الأوربى ولا مخاوفه . وها هو ذا الاتحاد الأوربى الغربى ، يمد يده الآن الى منتصف المحيط الأطلسى ، فتلتقى هناك بيد أخرى مدتها أمريكا الشمالية — كندا والولايات المتحدة — فاذا شدت احداهما على الأخرى فهو ميثاق الدفاع الأطلسى .

وفى أثناء اقامتى فى أمريكا أتيح لى أن أتحدث مع غير واحد من رجال السياسة والحرب والأعمال ، فتبينت أنه يندر أن تجد فى الولايات المتحدة رجلا من أهل الرأى ، ينكر أن الدفاع عن غرب أوربا هو شىء لا غنى عنه للولايات المتحدة أو هو كما يقولون « مصلحة حيوية » أما الوسائل لتحقيق هذا المبدأ ففى بحثها مجال للخلاف فى الرأى والتقدير ، وان كان تحقيقها شيئا لا يصح أن تعده مستحيلا .

وحقيقة المشكلة هى هذه : « ان موارد أوربا الغربية فى الرجال والصناعة هى موارد عظيمة ، وأوربا الغربية تزداد ، عن طريق التعاون الدولى ، قوة يوما بعد يوم ، وقدرة على الدفاع عن نفسها . ولكن بلادها تعانى اليوم من المشكلة الداخلية ، ما يجعل قدرتها الحربية فى الحضيض أو تكاد . وبنيان قوتهـا الحربية يستغرق زمنا ، لا يقـل عن سنتين فى أقل التقـدير . فاذا فرضنا أن الكونجرس

الأمريكي الجديد دعى الى عقد دورة استثنائية فى ديسمبر ، لكى يبرم وثيقة التحالف ، ويوافق على مبدأ الاعارة والتأجير الحربى ، ويرصد المال اللازم لذلك ، ويفرض القيود الصناعية التى لا غنى عنها لصنع المقادير الوافية من العتاد ، فلا بد أن تمر فترة من الزمن ، تكون فيها القوات الأوربية القائمة ، غير قادرة على صد الجيوش الروسية (اذا أمرت بالزحف) دون الراين أو حتى وراءه » •

فهذه الفترة هى الفترة الخطرة • وقد وصفها أحدهم بقوله : « ان العالم واقف اليوم على منحدر مشرف على هوة • وهو يحاول أن يرتقى المنحدر الى منبسط السلام والتعاون ، ولكن هوة الحرب من ورائه سحيقة فاغرة فاها » • والدفاع عن أوربا الغربيـة اليوم ليس رهنا بالقدرة على صد الجيش الروسى — لأن ذلك فى أكبر الرأى متعذر ، بل هو رهن بثنى الكرملين عن اصدار الأمر له بالزحف • واذن فالسؤال الخطير هو هذا : أتكفى القوة الجوية والبحرية الآن ، أو التى يمكن تعبئتها فى فترة قصـيرة ، لتثنى روسيا ، عن الزحف اذا أدركت حقا أن أوربا الغربية ماضية قدما فى تسليح جيوشها وتعزيز قوتها الحربية مستعينة على ذلك بأمريكا ؟

ولا تستهينن بالتوتر الدولى الشديد الذى يخلقه هذا السعى • فالحبل مشدود اليوم حتى ليكاد ينقطع • وقدرة الغرب — ولاسيما القوات الأمريكية — على تدمير مدن روسيا الكبيرة ومراكزها الصناعية ، تقابلها قدرة الجيوش الروسية على اكتساح مدائن غرب أوربا ، فاذا بذلت مساع صادقة لتعزيز قوة أوربا الغربيـة ظلت مدائن روسيا ومراكزها الصناعية عرضة لقنابل الغرب ، وصارت مدائن أوربا ممتنعة أو كالممتنعة على جيوش الروس —

أى أن الميزان ينقلب فتشيل كفة الروس وترجح كفة الغرب •
والروس لن ينظروا طبعا الى انقلاب من هذا القبيل بعين الرضى
ولن يقبلوه صاغرين عن يد •

واذن فالفترة بين المرحلة التى يجوزها العالم اليوم ، وتعزيز قوة أوربا هى فترة الخطر • ولن ينسى أحد كيف سخط الروس يوم أعلن مبدأ مشروع مارشال ، ويوم قبل ، ويوم بعث سياسة عملية مجدية ، وكيف ناصبوه العداء وجعلوا احباطه فى طليعة أغراضهم • فلا بد أن يكون سخطهم على مشروع حربى ، كمشروع مارشال الاقتصادى ، أشد وأقوى ، ولاسيما اذا أفضى قيام حكومة ألمانيا الغربية الى تجديد الجيش الألمانى — كما يقترح بعضهم •

فأهم مشكلة فى هذه الفترة الخطرة هى هذه : « كيف يمكن الدفاع عن أوربا الغربية ، فى الوقت الذى تستعد فيه لتصير قادرة على أن تدافع عن نفسها ؟ » واذا فرضنا أن انذارا وجه الى روسيا بتدمير مدائنها ، ومراكزها الصناعية اذا تخطت جيوشها نهر الألب الى الغرب ، فربما كان هذا الانذار غير كاف لتحقيق الغرض • والأوربيون فى الغرب لا يعتقدون أنه كاف على كل حال • فلا بد من التوسل بوسائل أخرى دون ارجاء ، وأن يكون قوامها أقصى ما يمكن تعبئته من القوة المتاحة الآن •

وهذه الوسائل عرضة للاختلاف فى التقدير • ولسنا نعلم أوصل الخبراء الحربيون الى رأى واحد فيها أم لا • ومنهم من يرى أن التقهقر من الألب الى الراين ضرورى • وأن الاحتفاظ بخط الراين يقتضى أربعين أو خمسين فرقة ، حسنة السلاح ، سريعة التحرك ، قوية الدروع ، يؤيدها سلاح حربى متفوق تفوقا

حاسما ، وأن القوات المتاحة الآن لا تدانى هذه القوة . فالاتحاد الأوربى الغربى لا يستطيع اليوم ، على ما يقال ، أن يعبىء أكثر من خمس عشرة فرقة ، وهى مفتقرة الى السلاح والعتاد الحديث ، ولاسيما الدبابات . والمسألة التى ينبغى أن تفصل ليست هى اقناع الروس بأن اقدامهم على الزحف غربا ، يلقى مقاومة قوية تجعل الزحف مغامرة تنطوى على خطر بالغ ، بل هى أيضا اقناع أهل أوربا الغربية ، بأن الروس قد اقتنعوا ولن يقدموا .

أفتستطيع السياسة أن تجد حلا لهذه المشكلة : مشكلة الدفاع عن أوربا الغربية فى فترة تأهبها للدفاع عن نفسها ؟

وقد يكون الحل من ناحيتين تجتمعان على غرض واحد : أن يقتنع الكرملين بأن مغامرة الزحف غربا تنطوى حقا على خطر كبير ، وبأن تسلح أوربة الغربيـة انما يطلب لغرض الدفاع وحسب . أما الأولى ، فلا حاجة الى الانتظار زمنا يستغرقه النظر فى معاهدة تحالف بين أمريكا والاتحاد الغربى الأوربى ومناقشتها ثم التصديق عليها . وحسب أمريكا اليوم ، وقد وافق الحزبان الكبيران على التعاون مع الاتحاد الأوربى الغربى وعلى مبدأ ميثاق الدفاع الأطلسى ، أن تصرح أنه اذا تخطى الروس الحدود التى عينت فى وثيقة الهدنة لتفصل بين مناطق ألمانيا ، عدت أمريكا ذلك عملا حربيا ضدها . وتصريح من هذا القبيل يمكن أن يفرغ فى قالب معاهدة بعدئذ ، ولكن ينبغى أن يصدر اليوم ، فى رأى والتر ليبمان وغيره من كبار الكتاب السياسيين .

أما الناحية الثانية فربما كانت الوسيلة اليها ، أن تقرن أمريكا عرض برنامج العون الحربى للاتحاد الأوربى الغربى بعرض

المفاوضة مع روسيا على الجلاء عن ألمانيا ، على أن يكون أساس الجلاء معاهدة تترك ألمانيا مجردة من السلاح ، شبيهة بالمعاهدة التى عرضها بيرنز وفاندنبرج منذ ثلاث سنوات أو نحوها •
والجلاء لا مفر منه ان عاجلا أو آجلا ، فالجيوش المحتلة لا يسعها أن تقيم فى ألمانيا الى ما شاء الله •

والقول متواتر بأن الروس يهمون أن يقترحوا هذا الاقتراح ، فان فعلوا كانوا أسبق الى جنى نفعه ، اذ لا يرتاب أحد فى أن القول بالجلاء يحرك وترا حساسا فى صميم النفس الألمانية •

وعرض من هذا القبيل لا يقتضى جلاء القوات الأمريكية عن أوربا كلها ، بل يعنى جلاء أمريكا عن ألمانيا الى غرب أوربا فى الوقت الذى يجلو فيه الروس عن ألمانيا الى شرق أوربا • فاذا تم هذا كانت القوة الأمريكية الغربية أدنى الى منطقة الرور الصناعية من الروس ، حتى اذا حدثت الروس نفسهم بالعودة كان فى وسع القوات الغربية أن تعود أيضا •

فاذا أبوا ذلك ، فموقف أمريكا ودول الغرب ، لن يكون يومئذ أضعف مما هو الآن • ولكن اذا فعلت أمريكا هذا ، أبانت لروسيا وللأوربيين أن الغرض دفاعى محض ، وأنها لا تقصد أن تجدد قوة ألمانيا العسكرية • واذا قبل الغرض ، كانت فترة المفاوضات فترة تهدأ فيها الأعصاب وتنبرى العقول •

حقا ان الجبار الغربى قد أفاق من غفوته ، ولكنه لا يزال هيكلا بغير عظم وعضل وقوة • وكل مشروع للدفاع بغير جيوش ، مزلزل ضعيف ككل جيش بغير سلاح وعتاد • وليس ثمة من ينكر أن الصعاب كثيرة ، ففرنسا كأنها فى مخاض ، ومشكلة برلين

لا تزال مستعصية ، فالذى تم شىء لا بأس به ، ولكنه ليس سوى خطوة ، على الطريق القويم ، فى أغلب الرأى •

العيدان المجتمعة والمتفرقة

أليس ثمة طريق يسلكه العالم لتسوية النزاع بين الكتلتين الغربية والشرقية ، أو لوقف روسيا عند حدها ، حتى يقر الناس وينصرفوا الى اصلاح صناعتهم وزراعتهم وزيادة رخائهم والاستمتاع بقسط من الطمأنينة ؟

سؤال يتردد على أكثر الألسن فى أكثر المجالس فى أمريكا وأوربا • وليست الاجابة عنه بالشىء الميسر • ولكن الاجابة التى وقعت من نفسى أحسن موقع ، هى ما ألخصه فى السطور التالية •

توالت فى سنة ١٩٤٨ أحداث دولية لا ريب فى مغزاها — فقد كانت سنة الكومنفورم ، والانقلاب التشيكوسلوفاكى ، والاضطراب الشيوعى فى جنوب آسيا الشرقى ، والانشقاق اليوغوسلافى ، وارتفاع المد الشيوعى فى الصين ، وأزمة برلين • وكانت أيضا سنة الانتخاب الايطالى ، وتنفيذ مشروع مارشال ، وانشاء الاتحاد الأوربى الغربى ، وطلائع الحلف الأطلسى وغيرها • وكل طائفة منهما تدل على مغزى يكاد يكون بينا كوجه الشمس • أما الأولى ، ففيها دلالة قاطعة على عداء روسيا للعالم الغربى ، وسعيها الجاهد لتقويض دعائم ذلك العالم ونظمه ونهجه فى الحياة • وأما الطائفة الثانية فعلى ما ينبغى أن يصنعه العالم الغربى ، لمواجهة ذلك العداء ، ورد السعى على أعقابه كالسيف المفلول•

وقد توسلت روسيا فيما تسعى اليه بوسيلتين ، القوة ،

والدعاية . أما القوة فقد عمدت اليها ، حيث كان العمل بمأمن من الخطر – خطر نشوب حرب مع الغرب . فوراء ستار الجيش الأحمر فى أوربا الشرقية مثلا ، فرضت النظام الشيوعى على دولها بأساليب شتى ، وعلى غرار ذلك ما نراه حادثا فى الصين . بيد أن روسيا كانت اذا بدا لها أن التوسل بالقوة محفوف بالخطر ، عمدت الى سلاح الدعاية ، واستثارة النفوس ، والتغلغل الرفيق فى النقابات والجماعات القومية ، وترى اتباعها اينما وجدوا برما بالحالة الاقتصادية ، أو ظلما واقعا على فئة ، أو نعرة جنسية – وهى أشياء قلما يخلو منها مجتمع بشرى – يؤججون نار الحقد والضغينة . وحسبك أن تلقى نظرة على فرنسا وايطاليا فترى أن نفوذ الشيوعية فى اتحادات العمال ، لم يزل باعثا من بواعث القلق والاضطراب فيهما .

بيد أن مساعى روسيا ، ليست قاصرة على رقعة ضيقة من الأرض ، كأوربا مثلا ، بل هى عالمية النطاق ، ففى وقت واحد فى أواخر الشتاء الماضى ، كانت الجيوش الشيوعية تزحف فى منشوريا ، والعناصر الشيوعية تحدث الانقلاب فى تشيكوسلوفاكيا . فالعالم الغربى لا يواجه التحدى الروسى فى غرب أوربا وحسب ، بل فى العالم قاطبة .

وليس فى هذه الحقائق شىء جديد ، ولكنك حين تضمها وما كان على غرارها بعضها الى بعض ، تخلص الى نتائج يثقل على الغربى أن يعترف بها . فاذا اعترف بها ، كان ميله الأول الى ثورة النفس فيقول ، كما قال صاحبى الأمريكى : اذا كانت هذه هى أصول الموقف الروسى حيال ما نسميه انشاء السلام ،

فلم لا نلقى القنبلة الذرية ، وكفى ؟ ولكنه نسى أن الحرب الحديثة اذا أطلقتها من عقالها ، كانت كالأعصار المجتاح المدمر ، مهلكة للجميع ، فينبغى لساسة الدول الغربيـة أن يحزموا أمرهم على أن التوسل بالقنبلة الذرية لن يكون الا للدفاع حقا عن النفس ، وأن يبحثوا عن هدى آخر يهتدون به •

وهم لو تدبروا الوسيلتين اللتين تتوسل بهما روسيا ، لتبينوا أن لكل وسيلة حدودها ، وأن فى الوسع مقاومة الوسيلتين جميعا ، وليس نشوب الحرب هو المخرج الوحيد من المأزق — الآن ، على أقل تقدير •

أما الوسيلة الأولى ، فهى وسيلة القوة أو العنف أو التهديد بها • ولو راجعت الحوادث التى اعتمد فيها الروس على القوة ، والحوادث التى امتنعوا عن استعمالها فيها ، لتبينت أنهم يمتنعون عن اللجوء اليهـا فى كل حادث خليق أن ينتهى الى صراع دولى مع دول كبيرة • فقد كان فى وسع الروس فى سنة ١٩٤٦ أن يستولوا على ايران ، ولكنهم أدركوا أنهم ان فعلوا فذلك خليق أن يجرهم الى حرب مع بريطانيا وأمريكا • وعلى ذلك موقفهم من ماركوس فى اليونان ، ومن مطامعهم فى المضايق التركية • وفى وسع الروس اليوم ، أن يسدوا منافذ الجو على الطائرات الأمريكية والبريطانية التى تمون برلين ، ولكنهم لا يفعلون لأن ذلك خليق أن يفضى الى نشوب حرب عالمية •

فالدول الغربيـة اذا كانت حازمة فى عدالة ، ومتأهبة لتأييد حزمها بقوتها ، فهى قادرة أن تعين المواقع التى ينثنى فيها الروس عن التوسل بالقوة •

وسلاح الدعاية أيضا له حدوده . وقد جهد الروس فى تأصيل الشيوعية فى بريطانيا والولايات المتحدة والدول السكندناوية ، فلم يجدهم الجهد ، لأن ما تستمتع به هـذه الأمم من قسط من الاستقرار والرخاء والرجاء المعقود على المستقبل ، ثلم سلاح دعايتهم ، فلم يمل اليهم سوى فئة قليلة . وقد حاولوا مثل ذلك فى فرنسا وايطاليا ، وأدركوا شأوا من النجاح ، ولكن فكرة مشروع مارشال ، كانت حتى قبل تنفيذها كافية لوقف تقدم الشيوعية بعض الشيء ، فهم لذلك يدأبون على احباطه ، فاذا استطاعت حكومة فرنسا أن توفق فى كفاح غلاء المعيشة وفى زيادة الانتاج ، واذا مضت حكومة دى جاسبيرى الايطالية فى الاصلاح الزراعى والقروى ، فتحسن الحال فى البلدين كفيل برد القلق الذى أخذ الشيوعيون يثيرونه من جديد . وليس نجاح الدعاية الشيوعية ، سوى نتيجة لخيبة بعض الدول الغربية فى تحقيق برامج الاصلاح ، وازالة بواعث القلق التى تستبد بحياة جماعات كبيرة من الناس .

واذن فان نجاح الوسيلتين أو اخفاقهما هو مرتبط فى آخر الأمر بما تصنعه دول العالم الغربى نفسها ، فليس من المنطق أن تلوذ بالذعر مما يصنعه الروس ، فيفيء بعضها الى القول بضرورة الحرب الذرية المانعة ، أو ضرورة التسليم بنجاح الشيوعية .

فالذى يحتاج اليه العالم الغربى اليوم ، على نطاق عالمى ، منسق ، هو حشد قوته للدفاع وعقد عزمه على منع روسيا من استعمال القوة ، أو العنف ، فلا تلجأ اليهما ، ثم يحتاج الى برامج واسعة النطاق من الاصلاح الزراعى والاقتصادى الذى يفضى الى حسن حال الأمم الحرة ، وأن لا يقتصر ذلك على غرب أوربا .

فكذلك ينثلم سلاحا روسيا فى يديها • واذن يصح أن يقال ، بعد انقضاء سنة أو بعض سنة على مشروع مارشال ، أن هذا المشروع أصبح وحده لا يكفى ، وكذلك يصح أن يقال بعد انقضاء سنة أو بعض سنة على الاتحاد الأوربى الغربى ، ان هذا الاتحاد أصبح وحده لا يكفى •

ان السر فى مشروع مارشال ، هو انه نزع الزمام من اليد الروسية ، بما بثه فى نفوس طائفة من الشعوب من رجاء الظفر بقسط وافر من المأكل والملبس والمأوى والعمل والاستقرار • فينبغى أن تعم هذه الفكرة أرجاء العالم غير السوفيتى ، عن طريق أعمال ومشروعات أخرى على غراره • والسر فى الاتحاد الأوربى ، هو أنه ضم أمما فى نطاق واحد للدفاع ولكنه نطاق يكاد يكون منحصرا فى رقعة واحدة صغيرة من غرب أوربا • ولكن التحدى الذى يتعين على العالم غير السوفيتى أن يواجهه هو تحد عالمى • وفى ميثاق سان فرنسيسكو ، نص خاص بالتكتل الاقليمى • فينبغى أن يشجع هذا الميل ، وأن توضع الخطط المنسقة بين الكتل الاقليمية ، وأن توحد الأسلحة ، حتى اذا أطل ستالين من الكرملين على العالم ، لم يجده كتلا مفرقة ، بل كتلا تفرق بينها الجغرافية ويجمع بينها القصد والسعى والخطة المجدية •

وهذان الغرضان — اصلاح اقتصادى يوقد فى النفوس شرارة الأمل ، وتعاون دفاعى وثيق — يذكر بقصة العيدان المجتمعة والمتفرقة ، وكلاهما فى متناول العالم غير السوفيتى — لو أراد •

ماجدوى الاجتماع ؟

كانت الدعوة التى وجهها ستالين الى ترومان عن طريق حديث صحفى شيئا غريبا ، ففى موسكو سفارة أمريكية كبيرة ، وفى وشنطن سفارة سوفيتية كبيرة ، فكان خليقا أن توجه الدعوة عن طريق احدى السفارتين . ولو كان الطريق ممهدا للتوفيق فى اجتماع من هذا القبيل ، لكان فى الوسع الاغضاء عن طريقة توجيه الدعوة ، بل لكان فى الوسع الاتفاق على مكان يعقد فيه الاجتماع . ولكن المؤتمرات التى عقدت بين حلفاء الحرب العالمية الثانية فى بحر السنتين الأخيرتين ، ولاسيما مؤتمرا موسكو ولندن فى ربيع سنة ١٩٤٧ وأواخرها أقنعا طائفة من رجال السياسة الأمريكية بأن اجتماع الرئيسين وحدهما ، دون سائر رجال الحلفاء ، ليس شيئا يرام .

فكيف يعلل عمل ستالين ؟

أغلب الرأى أنه قصد من ورائه الى تخفيف حدة القطيعة السياسية بين الكتلتين الشرقية والغربية ، زمنا ما ، عسى أن يفضى ذلك ، الى الفت فى عضد الوحدة بين الدول الغربية السائرة سيرا رفيقا مطردا الى الأمام .

ان العبرة التى تستخرج من احداث سنة ١٩٤٨ هى أن حوافز التاريخ وبواعث الاقتصاد قد ألجأت الدول الغربية على جانبى المحيط الأطلسى الى الاقتناع بضرورة الوحدة . والوحدة بين أمم متعددة ، تفصل بينها مساحات جغرافية واسعة ، كالمحيط الأطلسى ، وحقائق تاريخية وسياسية ترجع الى قرون ، ليس بالأمر الميسر .

ولكن هذه الوحدة سارت فى سنة ١٩٤٨ سيرا مطردا ، فدلت الدلائل على نجاح مشروع انعاش أوربا ، وعقد ميثاق بروكسل بين بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ولكسمبورج ، واتصل البحث فى أصول ميثاق الدفاع الأطلسى وهكذا .

فكل سعى من شأنه أن ينيم المخاوف التى حفزت هذه الدول الى الاجتماع على ما تقدم، ويضعف العزم على السير فى هذا الطريق ، يسدى للسياسة السوفيتية يدا نافعة ، اذ يتيح لها أن تعكف خلال سنوات تقل أو تكثر على تعزيز قوتها بأن تنمى مواردها الاقتصادية العظيمة وترفع صناعتها المتخلفة اذا قيست بالصناعة الأمريكية ، وتنجز اخضاع الأمم الداخلة فى نطاقها حتى تصير حيال الغرب ، المتفكك ، قوة تطاع رغبتها وتحاذر صولتها .

وستالين يطوى برديه على رجلين ، أحدهما رجل العقيدة الاشتراكية التى وضعها ماركس وفسرها لنين وستالين ، فهو فى صفته هذه ، لا يحول أبدا عن مبدأ النضال بين الطبقات ، وعن الايمان بأن هذا النضال لا يحل بالتسوية والاتفاق ، بل بالثورة العنيفة وأن الثورات لا تقع فرادى فى بلاد شتى ، وأوقات متباعدة ، بل ينبغى أن تثار فى صميم النظام الاقتصادى الرأسمالى على اعتباره وحدة كاملة .

غير أن ستالين ، رجل العقيدة الماركسية ، يعلم أن الثبات على مبدأ عقيدته ، لا يمنعه أن ينوع أساليبه مسايرة للأحوال المتبدلة ، ومن هذه الأساليب أحاديثه الصحفية التى ينكر فيها الثورة العالمية ويعرب عن أمله فى التعاون بين الدول وعن رأيه فى قدرة تلك الدول على التعاون .

فأى الرأيين تقبل ؟ التصريحات التى تسكن الروع ، وتمهد للطمأنينة الخادعة ، أو الكتابات فى أصول المبدأ الشيوعى ، التى تطبع وتنشر منها ألوف الألوف من النسخ ، ويربى عليها جيل بعد جيل من الشباب الشيوعى ؟ أيهما كان هتلر الحقيقى ؟ الرجل الذى يخطب فى الحين بعد الحين فيدعو الى السلام ، أو مؤلف « كفاحى » الذى لم يحد عما فيه حتى يوم مماته بين أنقاض برلين ؟

وقد كتب ستالين نفسه يوم نزاعه مع تروتسكى أن تقديم قيام الاشتراكية فى دولة واحدة على الدعوة الى الثورة العالميـــة ، انما يطلب حتى تكون تلك الدولة قاعدة تستند اليها قوى الثورة العالميـــة ، وهو الذى قال أيضا فى مؤتمر الحزب سنة ١٩٣٤ ، ان أساليب الحزب ليست ثابتة جامدة بل تتبدل وفقا لمقتضى الحال .

على أن هذا النزاع العميق على أصول تنظيم المجتمع لا يعنى أن الحرب شىء لا مفر منه أو أن الوصول الى توازن دولى يضمن لونا من الاستقرار شىء مستحيل — زمنا ما على الأقل .

ذلك بأن الرجل الآخر فى خلق ستالين هو الرجل الذى يدرك حقيقة الأمر الواقع ويحسن تقديرها ولا يتحداها وهذا الادراك لا يعنى خروجه على عقيدته التى لا تحول ، بل يعنى الحذر فى تحدى قوة يعلم أن تحديها قد يكون مزلقة الى خطر . وسيرة ستالين طافحة بأن هذا الحذر من خصائص خلقه ، فهو رجل لا يتوانى ثانية عن استغلال الضعف والفرقة والتردد والمبادرة الى تصديق كل ما يقال ، ولكنـــه يحترم القوة والعزم . فعقيدته لا تسوقه برغمـــه الى مغامرة متى حذره عقله من أن المعارضة خليقـــة أن تكون قوية .

وقد أدرك مارشـال فى أثنـاء مؤتمر موسـكو (فى ربيع سنة ١٩٤٧) هذه الحقيقة ، وخرج منها بالنتائج الصحيحة . أدرك أن سلامة الدول الغربية ينبغى أن تقوم على خطة محكمة التنسيق للدفاع السياسى والاقتصادى والحربى ، على أن تقترن بالحرص على البعد عن الاستفزاز . وليست هذه الخطة بالخطة التى يسهل على دول ديمقراطية متفرقة حريصة على كرامتها وآرائها أن تسير عليها . ولكن تحقيقها مستطاع اذا تحلى رجالها بالصبر واليقظة والعزم وصدق النظر . وهذا الرأى هو أساس مشروع مارشال ، والاتحاد الأوربى الغربى ، والدفاع الأطلسى .

واذا لم يكن بد من التسليم بمبدأ « عالمين » بدلا من « عالم واحد » أو بقسمة العالم شطرين ، أحدهما سوفيتى والآخر غير سوفيتى فالحاجة من ناحية الدول الغربية ليست الآن الى مفاوضة خليقة أن تفرقها وتحبط خططها ، بل الى التعمير حتى لا يكون ضعفها اصبعا تومىء الى القسم السوفيتى بالتغلغل أو الضغط أو فرض القوة . فاذا ارتد القسم غير السوفيتى من العالم الى العافية والقوة ، حتى تغدو كل مغامرة سوفيتية جديدة شيئا محفوفا بالخطر فقد يرضى الكرملين بأن يسلم بالحالة الراهنة ، فيصيب العالم يومئذ لونا من الاستقرار — الى حين على الأقل .

بيد أن الحكمة تقتضى من ساسة الغرب أن يبادروا الى اغتنام الفرصة التى أتاحها ستالين ، باستطلاعها أتم استطلاع ، دون أن يكون استطلاعها موهنـا لعزمهم على السـير فى طريق التعمير والتعـاون الذى لجأوا اليه منـذ أواسط سنة ١٩٤٧ . وخليق بروسيا ان كانت حريصة على ايمان العالم بصدق دعوتهـا ، أن

تطابق بين القول والعمل فى برلين وكوريا والأمم المتحدة واليونان وغيرها ، فالقول المأثور لا يزال صحيحا : ان صوت أعمالك يصم أذنى فلا أسمع ما تقول .

بين برلين ونانكين

أدرك الناس بالتجربة ، خلال ثلث قرن ، منذ قيام الدولة الشيوعية فى روسيا ، أن الشيوعية الدولية تغير وسائلها وغاياتها القريبة ، مسايرة لمقتضى الحال ، ولكنها قلما تبدل خطتها العامة وتأبى أن تبدل أهدافها البعيدة . فأصحابها يؤمنون ، أخذا بالقواعد التى وضعها ماركس وفسرها لنين وستالين ، أن انهيار الدول الرأسمالية أمر لا مفر منه ، فهذا عندهم هو منطق التاريخ وتفسيره الاقتصادى الذى يأخذون به ، فعليهم أن يستعجلوا الانهيار ، بجميع الوسائل ، ومنها الأحزاب الشيوعية فى كل أمة يستطيعون أن ينشئوا فيها حزبا شيوعيا . فيمضى العالم الرأسمالى على سننه من القلق والاضطراب والانشقاق الداخلى ، ويمضون هم فى انشاء الحكومات الشيوعية حيث يتسنى لهم أن يفعلوا ، حتى تتم الثورة العالمية ، ويتوحد العالم فى ظل الشيوعية أى حتى يبسطوا سلطانهم على سطح البسيطة .

ومن الأقوال التى تعزى الى لنين ، قوله : « ان الشرق الأقصى هو الباب الخلفى الى دار الدول الرأسمالية الاستعمارية » . أى أن الشرق الأقصى ، هو موطن الضعف فى العالم الرأسمالى ، وأن فى طاقة الشيوعية أن تنفذ منه الى غرضها البعيد — سقوط الدول الرأسمالية بسط سلطان الشيوعية على العالم قاطبة .

فهذا الباب الخلفى هو الباب الذى تقرعه روسيا اليوم قرعا قويا ، فى الصين خاصة ، وفى سائر جنوب آسيا الشرقى ، عسى أن يمهد لها افتتاحه أو تحطيمه تحقيق غرضها البعيد ، ان عاجلا وان آجلا .

وليس تحول روسيا الى هذا الباب بالشىء الجديد . فقد سبق لها أن نزعت من جسم الصين اشلاء أخضعتها لنفوذها — منغوليا الخارجية ، وسنكيانج . والحزب الشيوعى الصينى من أقدم الأحزاب الشيوعية فى العالم ، كان له فى الكومنترن منزلة عالية ، وقد وصف بأنه « قرة عين روسيا وجميع الشيوعيين فى العالم » .

بيد أن روسيا أدركت فى بحز سنة ١٩٤٨ أنها تواجه فى أوربا خطة محكمة لصدها عن التوسع غربا ، فهذا مشروع مارشال يؤتى ثمره الأول ، وهؤلاء شيوعيو ايطاليا يخذلون فى الانتخاب ، وشيوعيو فرنسا يخفقون فيما سعوا اليه من بلبلة فرنسا بالاضراب ، وافساد انتفاعها بمعونة أمريكا ، وقد رأت روسيا قيام الاتحاد الغربى الأوربى ، وتبينت وراءه ميثاق الدفاع الأطلسى . فلما حاولت أن تمتحن عزيمة الدول الأوربية وصدق حرصها على الحيلولة دون توسع الشيوعية فى الغرب ، عمدت الى برلين ، فاذا « جسر الطائرات » برغم المشقة والنفقة دليل على صدق العزيمة لا يخطىء .

فمالت الى الشرق الأقصى .

فهناك مئات الملايين من الناس ، فى أرض لعلها من أغنى أرض الله فى موارد الطبيعة . أما أهلها فيكثر بينهم الجهل والفاقة ، وأما الموارد فأكثرها لم يستغل ، والقليل الذى استغل قد تم استغلاله على أيدى الأجانب . ففى نفوس هؤلاء الناس شعور

جائح بالقومية ، وثورة كامنة على القديم ، فالتربة الاجتماعية التى يعيشون فيها ، أصلح تربة لتقبل بذور الشيوعية وانباتها •

والدولة السوفيتية تحتل من سطح الأرض موقعا لا ند له ، يتيح لها أن تحطم هذا الباب الخلفى ان لم يتفتح على مصراعيه • وسلطانها يمتد من بورت أرثر وفلاديفستوك على المحيط الهادى ، ويمضى محاذيا لحدود الصين وايران وتركيا ، ولا يفصله عن باكستان والهند وشمال العراق سوى فاصل رقيق • فالهجوم الشيوعى فى الصين ، هو التبديل فى الوسائل والغرض القريب — فى نطاق الخطة العامة والأغراض البعيدة ، والنجاح الذى أصابه نذير بتحول عميق فى ميزان القوة العالميـة بين الكتلة السوفيتية والدول الغربية فى آسيا •

قد لا يتم للشيوعيين الصينيين أن يستولوا الآن أو فى المستقبل القريب ، على الصين كلها ، وقد يستولون عليها فتظل مساحات واسعة منها ضعيفة قلقة سنين تقل أو تكثر ، ولكن التبدل العظيم فى ميزان القوة العالمية فى آسيا ، بل فى العالم ، لا ينبغى أن يقاس بما تكسبه روسيا من فورها بوقوع الصين تحت ظل الشيوعية ، وانما يقاس بمقدار الخسارة التى تمنى بهـا الكتلة الغربيـة ، فى صراعها مع الشيوعية العالمية • فوقوع الصين تحت ظل الشيوعية ، يقضى على آخر أمل فى قيام تعاون وثيق بين الكتلة الغربية والصين التى تستمتع بموقع جغرافى خطير الشأن وتملك من موارد الطبيعة وموارد الرجال قدرا عظيما • ثم ان خضوع الصين ، كلها أو بعض كبير منها ، للشيوعية كفيل بأن يصير قوة دافعة للشيوعية فى جنوب آسيا الشرقى وما يليه من الجزائر ، فالظفر فى الصين يعد فى طليعة

الأغراض التى تتوخاها الشيوعية اليوم .

ومما يدخل فى الروع خطر هذا التحول ، هو سكوت الدعاية الشيوعية عن حوادث الصين . ولعل ذلك مرجعه الى أن موسكو لم تقرر بعد السياسة التى تسير عليها بعد التطور الحربى السريع ، أو هى تترقب السياسة التى يستقر الرأى عليها فى وشنطن ، أو هى تفعل ذلك عن روية وقصد ، حتى تعزز الوهم السائد فى أذهان كثيرين من الغربيين ، بأن الشيوعية الصينية هى شيوعية معتدلة مستقلة لا صلة لها بالاتحاد السوفيتى ، فاذا تعزز ذلك الوهم ، هان على الدول الغربية أن تعتقد أن الصين الشيوعية لن تكون تابعة لموسكو ، فتجنى موسكو ثمرة هذا الاعتقاد .

وقد تنزع الشيوعية الصينية الى الاستقلال عن موسكو متى استتب لها الأمر ، ولكن الدلائل المعروفة الآن تشير الى أن الشيوعيين الصينيين ، مرتبطون ، كأية جماعة شيوعية أخرى بموسكو ، وحسبك دليلا على ذلك ، أن تعلم أن ماوتسى تونج ، زعيم الشيوعيين الصينيين كتب كتابا نشر بالانجليزية منذ سنوات ، فلم ينكر هذه الصلة ، ثم عزز ذلك بمقال نشر فى مجلة الكومنفورم منذ شهرين وبعض شهر قال فيه ان « الشيوعيين الصينيين يد واحدة مع سائر « الديمقراطيات الشعبية » — وهو الاسم الذى يطلق على الحكومات الشيوعية — ضد « المعسكر الاستعمارى » . وقد كان ماوتسى تونج عضوا فى الكومنترن منذ سنة ١٩٣٥ الى يوم حل فى سنة ١٩٤٣ ، ومن أعوانه الكبار فريق تدرب فى موسكو ، وله صلات وثيقة بأقطاب الشيوعية الروسية ، فمن المستغرب أن يخرج هؤلاء على أوامر موسكو أو على « نصحها وارشادها » .

ولسنا نعلم ما تنوى أن تصنعه الكتلة الغربية حيال هذا التبدل الخطير فى ميزان القوى العالمية ، فقد تعمد أمريكا — كما تدل الدلائل — الى تقوية اليابان ، وقد تضيف الى ذلك ميثاقا خاصا بالمحيط الهادى ، على غرار ميثاق الدفاع الأطلسى وان كان ذلك شيئا مرهقا ، وعسى أن يعنى مؤتمر دلهى الجديدة الوشيك ، بهذا الموضوع ، فرقعة الشرق الأوسط ، بأوسع معانيها الجغرافية ، الممتدة من تركيا الى الهند ، قد ازدادت شأنا عالميا بعد الذى تم فى الصين ، أفيكون منطق الحقائق الجغرافية والاقتصادية والحربية كفيلا بأن يفرض نفسه على أولى الأمر فى دلهى الجديدة أو على جانبى المحيط الأطلسى ، أم تمنى السياسة بالعقم والعجز حتى تمضى الفرصة السانحة ؟

سقـــط القنـــاع

فى خلال شهرين أو أقل ، كشف زعماء الشيوعية خارج روسيا ، عن حقيقـــة أمرهم مرتين • أما المرة الأولى ، فيـــوم وقف الزعيم الشيوعى الفرنسى كاشان ، يعلن فى الجمعية القومية الفرنسية : « من الذى يستطيع أن يجزم اليوم بأن دولتين قويتين ، قد قطع ما بينهما الى الأبد • ألا يتحدث الناس عن اجتماع ستالين وترومان؟» ولم تمض أيام حتى قال تولياتى الزعيم الشيوعى الايطالى : « اننى واثق بأنه على الرغم من الفرق الأصيل بين اقتصاد الولايات المتحدة وروسيا ، ونهجهما فى الحياة ، فانه فى وسعهما أن يعيشا معا » • فكان القولان ايذانا ببدء « حملة السلام » التى أرادتها موسكو •

وأما المرة الثانية ، فيوم أعلن توريز الزعيم الشيوعى الفرنسى

(٢٢ فبراير) « اذا اضطر الجيش السوفيتى ، فى دفاعه عن الحرية والاشتراكية ، أن يطارد المعتدين الى أرضنا ، فان عمال فرنسا وشعبها ، لن يقفوا من الجيش السوفيتى موقفا يختلف عن موقف شعوب بولندا ورومانيا ويوغوسلافيا » ولم تكد تنقضى أيام حتى جاراه توليـاتى (٢٦ فبراير) : « اذا شب نزاع ، واضطر الجيش السوفيتى أن يطارد المعتدين الى أرض ايطاليا ، فالشعب الايطالى الذى يكره الاعتداء ينبغى له أن يساعد الجيش السوفيتى بأجدى الوسائل ، حتى يلقن المعتدى الدرس الذى يستحقه » .

وقد ذهب تولياتى الى أبعد مما ذهب اليه توريز ، فهذا يرحب بالجيش السوفيتى ، وذلك يشير بمساعدته بأجدى الوسائل . ثم تعالت أصوات الشيوعيين من كل مكان ، حتى فى الولايات المتحدة (أول مارس) بمثل هذا المعنى . والغرض الأساسى فى جميع هذه الأقوال هو أن « روسيا لن تخطىء » فاذا نشبت حرب ، فالرأى عندهم أن روسيا هى المعتدى عليها واذن فينبغى لهم أن يكونوا معها ضد أمتهم .

ولو لم يكن الأمر خطيرا ، لسأل المرء نفسه ، لم لم يتصد أحد المصورين الهزليين لهـذه الحالة ، فرسـمها كاعلان الجرامفون المشهور باسم (صوت سيده) .

وتوريز الذى قال هذا القول ، هو الرجل الذى ترك فصيلته فى الجيش الفرنسى فى أول الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ وذهب الى موسكو ، يوم كانت موسكو متفقة مع برلين ، وتسبغ على الحرب يومئذ صفة « الحرب الاستعمارية » ولكن « الحرب الاستعمارية » لم تلبث حتى انقلبت فى عرف موسكو نضالا من أجل الحرية بعد

أن نكث هتلر العهد ، وهجم على روسيا . بيد أن توريز ظل بعيدا عن فرنسا ، ولم يشترك فى نضالها الخفى ضد الاحتلال النازى ، وقد حوكم بعد ذلك وحكم عليه ، ولم يعد الى فرنسا الا بعد أن شمله ديجول بالعفو ، وأذن له فى العودة .

أما ما حدث للدول التى استشهد بها توريز ، فى تصريحه ، فلم يكن أبلغ مثال يساق للاقناع . فقد غزا الروس بولندا فى سنة ١٩٣٩ بالاتفاق مع الألمان واستولوا على نصفها الشرقى أو نحو ذلك ، ثم أخرجوا منها حين غزا الألمان روسيا ، وعادوا اليها يوم انحسر مد الألمان ، وأبوا التعاون مع مقاتليها الوطنيين فى وارسو وهم على أبوابها ، فلما تمت هزيمة ألمانيا ، تقلد الشيوعيون زمام الحكم فيها ، مؤتلفين أولا ، ثم منفردين . أما رومانيا ، فقد فرض عليها فيشنسكى فى احدى زياراته حكومة شيوعية ، ولم تكد تنقضى أيام قليلة على توقيع اتفاق يالتا . وأما يوغوسلافيا فقد تحولت الى الشيوعية تحت تيتو ، ولكنها لم تزل على خلاف مع موسكو ، منذ شهور .

وكل من زار فرنسا فى الفترة الأخيرة يعلم ، أن ما عانته الأمة من المتاعب فى أثناء الاحتلال الألمانى ، جعلها تنفر أشد النفور ، من التعرض لاحتلال آخر . وليس ثمة من شبح احتلال تخشاه اليوم أو فى المستقبل القريب ، سوى شبح الاحتلال السوفيتى . فهى لذلك تأبى أن تسلم بخطة حربية مبدؤها أن تتخذ أسبانيا وراء جبال البرانس قاعدة لاسترداد أوربا من روسيا ، لأن ذلك يعنى التسليم مقدما بأن تحتل روسيا أرض فرنسا وأرض جاراتها من دول أوربا الغربية . وهى لذلك تهتم أشد الاهتمام بمشروع مارشال

وبمواثيق الوحدة الأوربية الغربية ، والدفاع الأطلسى وتؤيدها •

ولهذا السبب نفسه ، تتنكر روسيا لهذه المواثيق ، وتسعى كل سعى لاحباطها ، فان أخفقت الاضرابات فى احباط الانتعاش الاقتصادى ، فلتكن حملة السلام ، لتفتير الهمم عن ميثاق الدفاع الأطلسى ، فاذا باءت هذه الحملة بالخيبة ، فليكن التهديد ببذل العون للجيش السوفيتى المبادر الى الدفاع عن الحرية ! فهذا التهديد له غرضان أولهما ، أن يظهر الشيوعيون فى فرنسا وايطاليا ، فى مظهر الجماعة المتعلقة بأهداب السلام ، فيرفع ذلك من شأنهم بين الجماهير التى تخشى الحرب ، وثانيهما أن يؤثر فى الرأى العام الأمريكى عسى أن تنساب الريبة اليه فى حسن ما تصنعه حكومته من تعاقد مع دول فيها عناصر قوية تعلن انشقاقها مقدما على حكوماتها فى حالة نشوب الحرب •

فالعالم أمام أسلوب فى السياسات العالمية ، يجمع بين ضغط جيش قوى هو الجيش السوفيتى ، وأثر طابور خامس يتفاوت قوة بتفاوت الأمم ، ويعلن عن حرصه على معاونة ذلك الجيش اذا وقعت الواقعة ، وهذا الطابور هو الأحزاب الشيوعية ، التى لا تخفى أن ولاءها الأول هو ولاؤها لموسكو • والجيش السوفيتى وحده لم يقدم حتى الآن ، منذ انتهت الحرب ، على غزو بلد ، غزوا يعد فى عرف القانون الدولى اعتداء عاريا • والأحزاب الشيوعية ، فى البلاد التى تبعد عن منال الجيش الأحمر ، لم تظفر وحدها بالاستيلاء على زمام الحكم • أما حيث يكون الجيش قريبا من البلد الذى يوجد فيه الطابور ، فيغلب أن تتم الغلبة له ، يشهد بذلك مصير بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا • ولو كان للجيش

السوفيتى قوة كبيرة على حدود يوغوسلافيا وليس ليوغوسلافيا جيش قوى وحدود مفتوحة الى الغرب ، لكان من المتعذر على تيتو فى أغلب الرأى أن يصمد ، كما تعذر على بنش أن يصمد من قبل . ويذهب فريق من المتتبعين لسير الأمور ، الى أن الحوادث التى حدثت فى المجر ، خلال الأشهر الأخيرة ، انما هى توطئة لتصفية الحساب مع تيتو .

ولكن كيف يصدق هذا على النرويج ، وتركيا ، وايران ؟ والرد على ذلك ، أن ليس فى بلد من هذه البلاد حزب شيوعى قوى ، ولكن هـذا وحـده ليس كافيا . فرومانيا قبل أن فرض عليهـا فيشنسكى الحكم الشيوعى ، لم يكن حزب الشيوعيين فيها يزيد على ٣ فى المئة ، ولكن وجود الجيش السوفيتى فيها وعلى مقربة منها ، وبعدها عن الدول الغربية ، مكن لفيشنسكى أن يفعل ما فعل . وأغلب الرأى أن موسكو تتريث ، ان لم تكن واثقة أو كالواثقة من أن تدخلها لن يفضى الى حرب عالمية . فقرب الجيش السوفيتى من حدود النرويج وايران وتركيا ، ليس كفيلا بما يريد دون نشوب حرب عالمية ، فالدفاع عنها مرتبط ، بما يمكن أن تطلق عليه وصف « توازن القوى الدولية » . والرأى فى دوائر الغرب أن ميثاق الدفاع الأطلسى ، وما يسير فى عنانه ، انما هو سعى لجعل القوى الدولية أدنى الى التوازن .

فترة السلم الباردة

لم نزل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نعيش فى أزمة ، حتى كاد الناس يقنطون من صلاح الحال ، وحتى كاد القنوط يسوقهم

كلما أصبحوا وأمسوا الى توقع البلاء • وكانت الحوادث نفسها ، وعنوانات الصحف التى ترويها ، توقع فى نفوسهم أن ما يخشونه قاب قوسين أو أدنى • وكانت الأسئلة تزحم العقول وتبلبلها : أترى سلما مستتبة فى أيامنا ؟ أمقضى علينا بأن تهلكنا القنبلة الذرية ؟ أيستطيع شطرا العالم أن يعيشا معا جنبا الى جنب ؟ واذا كان ذلك مستحيلا فأى القوتين أرجح ؟

على أن الأيام الأخيرة من شهر ابريل سنة ١٩٤٩ ، والأيام الأولى من شهر مايو ، شهدت سلسلة من الأحداث تكاد تجعل الأسابيع الثلاثة الماضية حدا بين الاضطراب والاستقرار ، أو بين الخصومة السافرة التى أغرت بالتشاؤم وبين السعى الصادق الى اقرار ضرب من التوازن يصح أن نطلق عليه وصف « السلم الباردة » عسى أن يكون مرحلة متوسطة بين « الحرب الباردة » والسلام الحقيقى الذى يرتقبه الناس ، وان كان الى حين وحسب •

فى الأسابيع الثلاثة الماضية ، عبر الشيوعيون الصينيون نهر اليانجستى فاذا انقلاب الصين كلها الى دولة شيوعية قد صار أدنى الى الحقيقة مما كان منذ أشهر قليلة • وفى الفترة نفسها رضيت الهند الجمهورية أن تبقى فى نطاق الكومنولث ، على أن يكون (الملك) رمزا للاشتراك الحر بين دوله ، فاذا فى هذا الرضى من الهند وسائر دول الكومنولث ضمان جديد ، على أن اجتياح الشيوعيين للصين ، وان تم ، لن يعنى حتما ، ان آسيا كلها سوف تسلم زمامها للشيوعية •

أما فى الناحية المقابلة من كرة الأرض فقد وقع ميثاق الدفاع الأطلسى ، ورضى الروس بأن يرفعوا الحصار عن برلين ، فخف

برفعه الجفاء وانكسرت حدة التوتر الذى جعل الناس يصبحون ويمسون وهم يخشون وقوع ما يخشى • فقد كانت برلين فى ملتقى الأنوار ، من مسرح النزاع بين الشرق والغرب ، ولم يكن الحصار امتحانا للأعصاب وللقوة وحسب ، بل كان رمزا أيضا للنزاع بين الكتلتين ، ومن يدرى ، فقد كان كل حادث من حوادثه اليسيرة خليقا أن يكون كالشرر المستصغر الذى يوقد النار الآكلة • وليس رفع الحصار كفيلا بتسوية المشكلات الأصيلة فى هـذا النزاع العالمى ، ولكنه على الأقل يزيل احدى العقبات الكبيرة التى لم تزل تحول دون استئناف المفاوضة •

واستئناف المفاوضة فى حـد ذاته ليس خيرا مطلقا ، فتاريخ المفاوضات التى دارت فى مؤتمرات وزراء الخارجية الأربعة لا يوحى بالأمل • وسوف تظل الريبة ترف على المؤتمر المقبـل حتى يثبت الواقع ما يبـددها • غير أن المؤتمر المقبـل يجتمع يوم ٢٣ مايو فى باريس ، فى حال تختلف أكبر الاختلاف عما كانت عليه يوم اجتمع فى موسكو ثم فى لندن فى ربيع سنة ١٩٤٧ وشتائها •

فقد خسر الروس فى المقامرة التى بنوا عليها حسابهم فى أوربا بعد الحرب ، فلم تهو على الولايات المتحدة الأمريكية كف الأزمة الاقتصادية القاسية التى توقعوها ، وليس ثمة دلالة على أن أزمة من هذا القبيل وراء الباب • وقد ظنوا أن الزمن حليفهم فى أوربا التى دمرتها الحرب ، ووجد اليأس سبيله الى نفوس أبنائها وبناتها ، فلا مفر لأحزابهم الشيوعية فيها من أن تتقلد الزمام ، واذا مشروع مارشال يأخذ بيد أوربا الغربية — ولو أرادت دول أوربا الشرقية أن تنتفع به لكان لها ، ولكن روسيا نفسها أبت أن تشترك وثنت

الدول التابعة لهـا عن الاشتراك فيه • وتم الانقـلاب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا (فبراير ١٩٤٨) فهز النفوس وأفضى الى قيام الوحدة الأوربية الغربية ، فميثاق الدفاع الأطلسى ، فتقريب الشقة بين الحزبين الكبيرين ، فى ألمانيا الغربية ، والموافقـة على دستور دولتهـا •

كان يسيرا على روسيا أن تصنع ما صنعت فى تشيكوسلوفاكيا ، فى فبراير ١٩٤٨ ، يوم كانت أوربا كالمضعضعة وأمريكا كالحائرة ، ولكن لم يكد ينقضى شهران ، حتى خذل الشيوعيون الايطاليون فى الانتخاب الايطالى العام ، ثم باء الشيوعيون الفرنسيون بالخيبة فيما حاولوا ، وارتدت العافية الاقتصادية رويدا رويدا الى أعطاف الدول الغربية •

فهذه الحوادث التى حدثت منذ أخفق مؤتمر وزراء الخارجية فى لندن (ديسمبر ١٩٤٧) تجعل المؤتمر المقبل فى باريس يختلف عما سبقه •

فاذا حول المرء نظره عن الصين حيث منيت السياسة الغربيـة بهزيمة منكرة ، رأى كثيرا مما يغريه بالتفاؤل ولكن ليس ثمة ريب فى أن الغلو فى التفـاؤل خطل ، لأن أشـد النضال لا يزال فى طى المستقبل القريب ، أو البعيد • والروس فى هذه المرحلة يؤثرون أن تكون لهم السيطرة على ألمانيا ، لا على الصين ، وقد استعملوا سلاح الحصار فى برلين ، ففل فى أيديهم ، فاشتدت رغبتهم فى أن يستبدلوا المفاوضة به ، فتتيح لهم أن ينقروا على وتر ، يعلم جميع الناس أنه أرق الأوتار فى النفس الألمانية وأدقها احساسا — وتر « الوحدة الألمانية » عسى أن يفضى ذلك الى زعزعة أركان الدولة

الألمانية الجديدة ، والظفر باستمالة الألمان اليهم • وعلى وتر الوحدة الألمانية يستطيع الروس أن يوقعوا أنغاما كثيرة ، كلها محبب الى النفس الألمانية — الوحدة ، والجلاء ، والاتفاق مع الروس على نمط اتفاق رابالو (١٩٢٢) ، الذى أتاح لألمانيا أن تخرج من وهدة انكسارها فى الحرب العالمية الأولى الى مكان مرموق على مسرح الدول •

وعلى كل حال ، فان قصة حصار برلين تثبت حقيقة لا مراء فيها ، فلو أرادت الدولة السوفيتية ، أو الدول الغربية ، أن تنتحل عذرا ما لشن الحرب ، لكان لها فى حصار برلين كل عذر تريد • ولكن الغربيين امتنعوا عن شق طريق برى بالقوة الى برلين ، فسقط زعم من يزعم أن الدول الغربية تنتوى أن تشن على روسيا « حربا مانعة » قبل أن تملك روسيا عنان القنبلة الذرية • وأما الروس فقد امتنعوا عن التعرض لطائرات « الجسر الجوى » فانهار قول القائلين بأن روسيا تنوى أن تنتفع بما لها من تفوق حربى فى أوربا ، فتجتاحها الى سواحل المحيط الأطلسى • وكذلك اجتاز الفريقان فترة الجفاء والقطيعة التى ظلت سائدة ، عشرة أشهر أو أكثر قليلا ، دون أن يسمحوا لحادث من حوادثها بأن يستفحل حتى يعجزوا عن تدبيره دون قتال •

واذا كانت نية الفريقين منصرفة عن خبل الحرب ، كما تدل قصة برلين ، فمؤتمر باريس المقبل فرصة سانحة للانتقال من فترة « الحرب الباردة » الى فترة من التوازن ، تتيح لهم فى خلالها أن يسوّوا ما بينهم شيئا فشيئا ، بدلا من أن ينصرف كل منهم الى التأهب لصراع وشيك •

وليس ثمة ريب فى أنهم يواجهون مشكلات كثيرة معقدة . ولكن جميع الرسائل الواردة من الغرب تدل على أن الأمم الغربية يغلب عليها اليوم شيء من الرضى والطمأنينة ، فهى أحسن حالا شيئا ما ، وأوفر طعاما شيئا ما ، وأقل خوفا شيئا ما ، مما كانت منذ سنة وحسب . ففى وسع رجالها أن يقاربوا المؤتمر بثقة لن تعوزها اليقظة ، وبرغبة فى الاتفاق لن يضعفها الخوف . ان مشهد الأرض المخضرة فى طلائع الربيع ينقلب ظلاما فى النفس ان كان الخوف يساورها على الأهل والولد والمال . أما وقد اقترنت أنفاس الربيع وخضرة الأرض بشعاع من رجاء فى أن اجتناب الحرب مستطاع ، وبموجة من ثقة بأن الحياة تسير فى طريقها الدهرى الى أمام ، فان المشهد يغرى المرء بأن يتطلع الى المستقبل وأن يحس بندائه ، وليس مثل الثقة بالمستقبل حافز يحفز المرء الى مقاومة ما يكره وطلب ما يريد .

رضى وحذر

يغرى الاتفاق على رفع الحصار عن برلين بالرضى والتفاؤل ، ولكنه ينبغى أن لا يغنى عن الحذر . فمن المفارقات فى قصة حصار برلين ، أن السوفيت أرادوا الحصار فى السنة الماضية وسيلة ، لاكراه الدول الغربية على عقد اجتماع لوزراء الخارجية الأربعة ، ثم لكفهم عن المضى فى انشاء حكومة ألمانيا الغربية ، وهم اليوم يكادون يدركون هذا الغرض نفسه ، كله أو بعضه ، برفع الحصار الذى ضربوه .

وليس ثمة ريب ، فى أن الاتفاق ، ظفر لدول الغرب فى « الحرب

الباردة» نالوا أكثره ، على أجنحة طائرات النقل الأمريكية والبريطانية

وقد ظلت هذه الطائرات طيلة الصيف الماضى فالخريف فالشتاء ، تنقل الى أهل المنطقة الغربية من برلين ، أسباب العيش ، وان كانت قليلة • فلما تنفس الربيع ، وصفا الجو ، ضاعفت الطائرات مجهودها ، وفى يوم ١٥ — ١٦ ابريل نقلت الى برلين ، ما زنته ١٢٫٩٤١ طنا ، بطائرات ظلت تقوم وتحط ، كل دقيقة من كل ساعة خلال أربع وعشرين ساعة • وهذا الذى نقلته يزيد نحو ثلاثة آلاف طن ، على ما كان ينقل الى برلين بوسائل النقل البرى ، قبل ضرب الحصار عليها •

ولم يقتصر مغزى « جسر الطائرات » على نقل أسباب العيش الى أهل برلين الغربية ، بل دل أيضا على عزم الدول الغربية ، وعلى قدرتها ، وعلى أن الحكومة السوفيتية تتفادى الاصطدام بها • فقد كان فى وسع السوفيت أن يسقطوا بعض هذه الطائرات ، ولكنهم لم يفعلوا ، لأنهم خشوا أن يفضى ذلك الى حرب عامة ، لا يريدونها الآن ، أو لا يطيقونها الآن •

بيد أن الاتفاق ، لن يكون فى حد ذاته ، حلا للمشكلة الألمانية ولا خاتمة للحرب الباردة بل لعله يثير مشكلات جديدة •

وأغلب الرأى أن السوفيت قد اتجهوا الى رفع الحصار ، مدفوعين باعتبارات سياسية ، فى المقام الأول ، وفى طليعتها أن الولايات المتحدة ، مرتبطة بعقد مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة ، متى رفع الحصار ، وان هذا المؤتمر من شأنه أن يعوق السير الى انشاء حكومة ألمانيا الغربية • وأقطاب السوفيت يعلمون ، أن الحزب الشيوعى ضعيف فى ألمانيا الغربية ، فان أنشئت حكومتها

تحت اشراف الدول الغربية الثلاث ، كان انشاؤها كمثل باب يوصد دون نفوذ السوفيت السياسى ، فى أغنى رقعة من ألمانيا ، وأعمرها بالسكان والعمال الحاذقين ، وأحفلها بالقدرة على الانتاج •

وقد قال بعض الناطقين باسم الغرب انهم لن يكفوا عن السعى لانشاء هـذه الحكومة ، بل هم فى الواقع يستعجلون انشاءها ، غير أن ذلك لن يتم فى أكبر الرأى على وجهه النهائى قبل انعقاد مؤتمر الوزراء الأربعة فماذا تكون حيلتهم اذا أحجم ساسة ألمانيا الغربية عن اقرار نظام نهائى للحكم فى منطقتهم يكون معناه شطر ألمانيـا شطرين • فنفوسهم تهفو الى وحـدة ألمانيا ، وانبعاثها فاذا دخل فيشنسكى مؤتمر الوزراء الأربعة واقترح أن تنسحب جيوش الاحتلال وأن تقوم دولة ألمانية واحدة على أساس دستور فيمار الجمهورى ، وعلى أن يكون الانتخاب على أساس التمثيل النسبى ، فماذا يصنع الألمان وماذا تصنع الدول الغربية ؟ •

لن يسعك أن تتصور أن ساسة ألمانيـا الغربيـة يستنكرون انسحاب جيوش الاحتلال وقيام دولة ألمانية واحدة أما التمثيل النسبى فخليق أن يجعل للشيوعيين الألمان ، وان كانوا أقليـة ، صوتا وقوة فى المجلس النيابى الألمانى يحسب لهما حساب كبير ، فقـد كان عـدد النواب الاشتراكيين الوطنيين (النـازى) فى سنة ١٩٢٨ فئة قليلة ، وفى ١٩٣٣ تقلدوا زمام الحكم •

ولا تنسين أن تمرد تيتو على موسكو كان تمردا مذهبيـا ، فهو وأتباعه نقدوا نظرة موسكو الشيوعيـة ، فى بعض الشئون وعابوها ، وأيدوا نقدهم بأقوال وأدلة من ماركس ولنين • وقد جارى تيتو فريق ، أقل منه شأنا ، من شيوعيى بولندة وبلغاريا ،

فموسكو يكبر عليها أن يتمرد عليها متمرد على هـذا الغرار ، ولن تستطيع أن تمضى فيما أعـدته من خطـة للعمل ، قبـل أن تخضعهم أو أن تردم الهوة بينها وبينهم ، فلذلك تراها لا تجد بأسا من التساهل فى برلين ، حتى تمضى فى مهمة هى الصق بصميم كيان الحزب الشيوعى ، ومقام الشيوعية الدولية • ولما كانت الشيوعية الدولية قائمة ، على أن الرأسمالية الغربية ، هى الخصم والعدو ، فالاتفاق معها الى حين أسلوب يتبع ، ونقض الاتفاق عمل لا يخالف منطق الشيوعية ، متى كان المسوغ قائما للنقض •

واذن ، فالاتفاق على رفع الحصار عن برلين ، هو فى ظاهره ظفر لدول الغرب ، ولسياستهم الحازمة دون تحدٍّ أو استفزاز ، ولقدرتهم الفنية على تنظيم « جسر الطائرات » • ولكن الاتفاق نفسه ينيـل السوفيت غرضين رئيسيين فى نظرهم ، أما الأول ، فهو فرصة تتاح لبحث مشكلة ألمانيا برمتها ، وخليق بهذا البحث أن يرجىء قيام دولة ألمانيـا الغربية ، أو يحول دون قيامها • وأما الثانى فهو فسحة من الزمن تتاح لعلاج التمرد المذهبى على موسكو فى شرق أوربا (يوغوسلافيا وغيرها) •

وعسى أن نضيف الى هذين الغرضين ، أن تطور الحوادث على هذا المنوال يحمل نفرا غير يسير فى الغرب ، على استبعاد خطر التوسع السوفيتى ، ولعل ذلك يفرض على أمريكا أن تعيد النظر فى سياستها حيال أوربا فالخسارة الأدبية التى تلحق روسيا بتراجعها فى برلين ، ثمن يسير حقا ، ان أفضى هذا التراجع الى زعزعة تأييد الشعب الأمريكى والحكومة الأمريكية لمشروع مارشال وميثاق الدفاع الأطلسى ، فالمال لمشروع مارشـال يرصـد سنة سـنة ،

وقد تم ارصاده للسنة المقبلة التى تنتهى فى أبريل القادم فلا حيلة فى ذلك ، ولكن كل ما يضعف تأييده فى الكونجرس فى السنة القادمة يعد ظفرا للسياسة الروسية • أما الميثاق فلم يبرم بعد فى مجلس الشيوخ ولم يرصد له مال بعد لمساعدة الأمم المنتظمة فيه •

واذن فرفع الحصار عن برلين ، فاتحة تبعث على الرضى ، ان دل مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة الذى يعقب الرفع ، ان عودة الحال فى برلين الى ما كانت عليه ، منذ عشرة أشهر أو أكثر قليلا ، هى دليل على تغيير أصيل فى موقف موسكو ، لا مجرد وسيلة للمزايدة على كسب رضى الشعب الألمانى ، وتعويق انتعاش أوربا الغربية وسيرها فى طريق الوحدة •

وعلى كل حال ، فالدول الغربية تدخل هذا المؤتمر ، وهى أعز يدا وأعظم ثقة فقد نجح مشروع مارشال فى سنته الأولى ، ووقع ميثاق الدفاع الأطلسى ، ووضع دستور مجلس أوربا ، ودنت أحزاب ألمانيا الغربية من الاتفاق ، ودل « جسر الطائرات » على العزم والقدرة ، فاذا قرن رجالها الحزم ، بالرغبة الصادقة على التفاهم ، فربما كان المؤتمر خطوة نحو الاستقرار الذى يرتقبه الناس ، فان لم يفعل كان امتحانا لنية روسيا الصحيحة ، وكلا الأمرين خير فى كفتى الميزان •

أى الخطرين أولى بالتقديم

لا يزال ستار الغموض يحيط بمصير مؤتمر باريس ، وان كان اخفاقه أرجح فى أغلب الرأى • وجدول أعماله يكاد يقتصر على مصير ألمانيا بين الكتلتين الشرقية والغربية ، فهو المشكلة التى يدور

من حولها المؤتمر • ولكن يلوح من ورائها ، فى نظر الغرب ، مشكلة أخرى هى مشكلة روسيا السوفيتية ، فأيهما أولى بالتقديم ؟

يرى الكرملين أن من يسيطر على ألمانيا ووسط أوربا يصبح سيد القارة ، كذلك كان الأمر فى عهد نابليون ثم فى عهد هتلر ، وفى العهدين كليهما ، مال سيد القارة الى غزو روسيا ، فألمانيا فى نظر روسيا مصدر خطر هددها ثلاث مرات منذ مستهل القرن التاسع عشر • ولروسيا مصالح كبيرة فى الشرق الأقصى ، والشرق الأوسط ، وأوربا • ولكنها لا تخشى أن يأتيها الغزاة الا من قلب أوربا • فالقوة الوحيدة التى تخشاها هى القوة التى تسيطر على ألمانيا ، سواء أقوة ألمانية خالصة كانت ، كقوة هتلر ، أم غير ألمانية خالصة كقوة نابليون أو قوة الغرب متحدة مع قوة ألمانيا • فالقضاء على مصدر هذا الخوف مبدأ أساسى فى سياسة روسيا حيال ألمانيا •

ولا تسل لم تتوقع روسيا هجوما عليها من الغرب • فهى تخشاه بحكم تاريخها وبحكم المبادىء التى وضعها ماركس ومؤداها أن أزمة الانتاج فى العالم الرأسمالى ستدفعه حتما الى مثل هذا الهجوم • ويعزز هذا الخوف أن قادة الروس يدركون أنهم لا يجارون أمريكا ، ومن ورائها دول الغرب ، ولاسيما ألمانيا الغربية ، فى قدرتهن على الانتاج الصناعى العظيم • فصار هذا الخوف عقدة مركبة فى نفوسهم •

ولكن الخوف ليس هو وحده المبدأ الذى يحرك السياسة الروسية حيال ألمانيا • فروسيا هى أم الشيوعية العالمية وهى ترى أن سيطرتها على ألمانيا ، أو جذب ألمانيا لتسير فى فلكها ، هو الذى يمهد لها نشر الشيوعية فى قارة أوربا • وقد دلت أحداث أوربا

منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، على أن الأحزاب الشيوعية وحدها لا تستطيع ، دون أن تستند الى الجيش الأحمر ، أن تنتزع زمام السلطان فى الدول الأوربية ، لا بالانتخاب ولا بالقوة • فقد نجحت فى دول شرق أوربا ، حيث يقيم الجيش الأحمر ، وأخفقت فى ايطاليا وفرنسا البعيدتين عن مناله • والكرملين يعلم أن احتلال ألمانيا العسكرى ، لن يدوم الى ما شاء الله ، فحاول فى السنوات الأربع التى مضت أن ينتفع به ليقيم فى ألمانيـا حكومة مركزية لا يلبث الشيوعيون أن يقبضوا على زمامها • فخاب فيما سعى اليه ، فلذلك تنكر لكل ما صنعه الغرب فى ألمانيا الغربية ، لأن نهوض ذلك الشطر من ألمانيا يوصد دون روسيا باب الأمل الذى خالجها ، ويومىء الى ألمان الشطر الشرقى بالتنكر لها •

والدول الغربية تهتم بألمانيا أيضـا اهتماما عظيما • ففرنسا كروسيا تخشى قوة ألمانيا الحربية ، ولا تنسى هجوم ألمانيا عليها ثلاث مرات فى سبعين سنة • وبريطانيا لا تنسى أن معاهدة رابالو بين روسيا وألمانيا فى سنة ١٩٢٢ أخرجت الدولتين من عزلتهما ، ولا ميثاق ربنتروب مولوتوف فى سنة ١٩٣٩ ، الذى مهد لتعاون روسيا وألمانيا تعاونا لو دام لعجز الغرب عن قهر النازية ، فالغرب يخشى أن يعيد هذا التعاون سيرته السابقة ، ويومئذ تقترن القدرة الألمانية فى العلم والصناعة والادارة بموارد روسيا العظيمة وبأسباب الصناعة الروسية التى تسير قدما ، فتصبح هذه القدرة أساسا لقوة شيوعية لا تكاد تقهر •

ومن ساسة الغرب من يرى أن خطر العدوان الألمانى على الغرب قد بلغ مداه واستنفد عنفوانه وصار فى المقـام الثانى ،

وأهم منه فى نظرهم خطر التغلغل الروسى وخطر العدوان الروسى المسلح ، بغية الظفر بألمانيا فسائر القارة • فأخطر مشكلة يواجهها الغرب فى نظر هؤلاء هى المشكلة الروسية ، لا المشكلة الألمانية ، وأعظم غرض ينبغى أن يتجه اليـه ، هو الحيلولة دون اجتماع القدرتين الروسية والألمانية ، لأن ألمانيا فى نظرهم لن تخلص الود الا لما تطمح اليه وتطمع فيه ، وستحاول ما استطاعت المحاولة ، أن تحرك التنافس بين الكتلين على خطب ودها ، حتى تنال من القوة ما ينيلها مطامعها •

فالمشكلة فى باريس ، فى رأى الفريق الأول ، هى أن توحد ألمانيا فى نطاق دستور بون الذى وضعته أحزاب ألمانية قوية متنكرة للشيوعيـة ، فان لم يكن ذلك مستطاعا ، فخير أن تبقى ألمانيـا مشطورة ، وليمض شطرها الغربى فى نهوضه ، عسى أن تتوثق عرى صلته بأوربا الغربية ، حتى يصير جزءا منها ، كسائر دول الغرب •

وأما فى رأى الفريق الثانى فالمشكلة هى الوصول الى تسوية ما مع موسكو ، تتيح لجيوش الاحتلال أن تبقى فى ألمانيا زمنا ما وأن يحرص الغربيون على الذكرى فلا يدعوا خوفهم من الخطر الروسى يطمس أبصارهم حتى لا يروا الخطر الألمانى فى المستقبل •

وكلا الفريقين يحترم رأى صاحبه ويدرك أن رأيه ليس وحده هو الحق الخالص فالمسألة التى يواجهها وزراء الدول الغربيـة هى مسألة اقامة ميزان بين الخطرين •

وهذا الميزان يحاولون أن يقيموه على المبادىء التالية : لن تنزل الدول الغربية عن النجاح الذى نالته فى نهوض ألمانيا الغربية لقاء وعود من روسيا قد تكون أدنى الى الوهم ومثارا لجدال جديد

ولن ترضى بحل يحرم الشعب الألمانى الضمانات الدستورية الأساسية التى انطوى عليها دستور بون ، وظفر بها ألمان الغرب ، ولن تقبل تسوية من شأنها أن تعرض شعوب أوربا لقيام قوة ألمانيا الحربية مرة أخرى • وهذه المبادىء الثلاثة توفق بين أصول الرأيين ، فتتيح لألمانيا أن تنهض فى نطاق اشتراكها مع سائر دول أوربا الحرة ، فتستمتع هى وهن بثمار التعاون الصادق فى سبيل الارتقاء الاقتصادى وضمان السلامة العامة •

ففى حدود هذا التحليل ، ان صح لا يستطيع سوى المتمادى فى التفاؤل أن يتوقع نجاحا يذكر لمؤتمر باريس ، ان كان مقياس النجاح اتفاقا كاملا ترتضيه الدول الأربع •

موسكو وبلغراد

وضعت السماعة على اذنى ، وأدرت المفتاح الذى يتيح لى أن استمع بالانجليزية الى وزير خارجية يوغوسلافيا وهو يلقى خطبته من منبر الجمعية العمومية ، فأذهلنى ما سمعت • ان الألفاظ التى تندفق من بين شفتيه هى الألفاظ التى كان الشيوعيون ، من كل جنس وامة ، يحتفظون بها فى جعبتهم لأمثال تشرشل وفورستال والرأسماليين المستعبدين (بكسر الباء) ودعاة الحرب ، ولكنها تنطلق اليوم سهاما مسددة الى موسكو — وفيشنسكى جالس يسمع !

وحملة موسكو على تيتو أشد ، فقد اتهمه الكومنفورم بالانحراف ، وبالخروج على التماسك العالمى بين طبقات العمال ، ثم طرد من الكومنفورم ومحى اسمه من جميع الشوارع فى الدول التابعة لموسكو ، ومن اندية العمال ، ووصف فى مذكرات رسمية

بأنه عدو الاتحاد السوفيتى ، وصار كل رجل متهم بالخيانة فى هذه الدول يوصم بأنه « منحرف تيتوى » ، وانشئت فى براج وصوفيا وبخارست مجلات تضم صوتها الى صوت الاذاعة فى تشديد النكير عليه ، وتولى فيشنسكى نفسه ادارة المساعى للحيلولة دون انتخاب يوغوسلافيا عضوا فى مجلس الامن •

فالنزاع الذى نشب بين الكومنفورم وتيتو فى أوائل صيف سنة ١٩٤٨ استمر فى سنة ١٩٤٩ وتفاقم • وشدة الحملة عليه مقياس لما تعلقه بها موسكو من خطير الشأن • فبقاء يوغوسلافيا منضوية تحت جناحيها ، شىء لا غنى عنه لموسكو من أجل ملاحة الدانوب ، والوصول الى ساحل البحر الادرياتيك وربما السيطرة على البلقان • بيد أن موسكو ترى فى خروج يوغوسلافيا عليها ، ما هو أفدح شرا ، فتيتو شيوعى ، وشيوعيته تستند الى تعاليم ماركس ولنين ، ولكنه يذهب الى أن الدول الشيوعية يحق لها أن تكون مستقلة لا خاضعة خضوعا تاما لموسكو ، فهو ينادى بتساوى الأحزاب الشيوعية ، وباستقلال الدول الشيوعية • وقد كان النزاع فى مبدأ أمره سرا ، أو محصورا فى نطاق ضيق ، وكان مداره : من يملك زمام السلطان على يوغوسلافيا فلما انطلق من نطاقه الضيق الى نطاقه العالمى الأوسع ، صار مداره أهم من يوغوسلافيا نفسها : من يملك الحق فى تقرير الخطط التى يسير عليها الشيوعيون اين كانوا ، ولا ينحرفون عنها قيد انملة ، وهذا السؤال هو وحده أخطر تحد وجه الى موسكو •

أما كيف نشأ الشقاق ، وكيف اذن له أن يستفحل ، حتى يستعصى فشىء يشق استقصاؤه ، ولكن يلوح أن المكتب السياسى

فى موسكو ، استعجل الفصل فيه ، حين بدرت بوادره ، دون أن يقدر عواقبه جميعا فقد ألف رجاله أن يعالجوا المتمردين على سلطانه ، فيفر أحدهم ، كما فر تروتسكى حتى أدركته فأس المغتال فى داره فى مدينة المكسيك ، أو يستسلم أكثرهم ، فيجرى عليهم العلاج الذى يفضى بهم الى « الاعتراف » فيدينون أنفسهم بألسنتهم • ولكن ظهر أن تيتو متمرد من نوع لم يؤلف من قبل فهو حاكم أمة نزاعة الى الاستقلال ، يتخذ أرضها قاعدة لسلطانه ، وهو بعيد عن موسكو ، ومع ذلك ظن رجال الكرملين أن تيتو خليق أن يفر أو يستسلم بعد أن تصدر صحيفة اتهامه فموسكو لم يأخذها تمرده على غرة ، بل الذى أخذها هو نجاح هذا التمرد •

وقد كان لموسكو فى يوغوسلافيا عمال كثيرون ، من أعضاء البعثة العسكرية ورجال الكومنفورم الذى اتخذ مقره فى بلغراد ، وغيرهم ، أفأخطأوا جميعا فى فهم الدلائل الماثلة بين أيديهم ، أم غرهم وغر رؤساءهم ظفرهم فيما مضى فى « تصفية » كل متمرد ، أم ردهم الخوف عن أن ينقلوا الى موسكو شيئا لا يسر ؟ وعلى كل حال فقد أرادت موسكو ، أن تعامل تيتو كأنه تابع لن يحتفظ بمقامه ان لم ينل رضاها ، فلما وجه اليه القول ، تلقت منه الرد كيلا بكيل ، بدلا من التوبة والاذعان ، فصدر القرار بحرمانه ، وانثنوا يترقبون فراره ، أو تألب جماعته عليه ، ولكنه لم يتزعزع ، بل رد على قرار الحرمان ، بأنه لم يجد فى تعاليم ماركس قولا واحدا يؤتى الكرملين أعلى سلطة لا ترد فى العالم الشيوعى ووقف الحزب الشيوعى اليوغسلافى — ما عدا أفراداً قلائل — من ورائه يشد أزره •

أما كيف استطاع تيتو وأنصاره ، أن يقفوا هذا الموقف ، وان تعجز موسكو حتى اليوم عن اخضاعهم ، فمرجعه فى أكثر الأمر ، الى شعور الشيوعيين اليوغوسلافيين ، وموقع يوغوسلافيا الجغرافى • فشيوعيو يوغسلافيا يعتقدون أن صلتهم بموسكو تختلف عن صلة سائر الأحزاب الشيوعية بها فى أوربا الشرقية • ويوغوسلافيا لم تكن فى صف أعداء روسيا خلال الحرب ، كما كانت رومانيا وبلغاريا ، ولا كانت دولة احتلها الألمان احتلالا كاملا فحررها الجيش السوفيتى كما فعل فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، وكانت جماعة « الأنصار » اليوغسلافيين بقيادة تيتو ، قوة يعتد بها فى مناوأة الألمان فمال تشرشل اليهم ، فى تلمسه كل وسيلة تزيد متاعب هتلر • وشيوعيو يوغسلافيا يعرفون هذا ، ويتمازحون فيقولون ان قائدهم — تيتو — لم يهبط بالطائرة بعد النصر وفى فمه غليون يدخنه ، لكى يتسلم زمام الحكم ، كما فعل راكوسى فى هنغاريا ، وجوتوالد فى تشيكوسلوفاكيا ، وديميتروف فى بلغاريا وغيرهم •

ثم أن شيوعيى يوغسلافيا تساورهم رغبة قوية فى أن ينهضوا باقتصاد امتهم فيرفعوا انتاجها الزراعى ، ويستثمروا مواردها المائية والمعدنية فى الصناعة ، ويقولون انهم لم يلقوا عونا من روسيا فى هذا الباب ، فصادرات روسيا الى يوغوسلافيا كانت تقوم بثمن أعلى من مستوى السعر العالمى ، وصادرات يوغسلافيا الى روسيا تقوم بثمن أقل من مستوى السعر العالمى ، والآلات الضخمة اللازمة للانشاء الصناعى فى يوغسلافيا ، ظلت وعودا على ورق على حين دأبت روسيا على استيراد مقادير كبيرة من خامات

معادنهم ، فوقر فى أذهانهم أن الخطة المدبرة هى أن تبقى يوغسلافيا أمة لا تنتج سوى محاصيل الزراعة وخامات المعادن ٠

أضف الى كل ذلك أن ليوغسلافيا ساحلا طويلا على البحر الادرياتيك ، يطل على الغرب ، فليس خضوعها بغير كفاح شيئا مقدرا عليها ولا مفر منه ٠

بيد انه من الخطأ البين أن يظن أن تيتو ، فى صراعه مع الكرملين ، ليس شيوعيا قحا ، فى مذهبه ونظام الحكم والاقتصاد الذى أنشأه فى يوغسلافيا ٠ فقد تمرس معظم حياته بالتعاليم الشيوعية ونافح عنها فى روسيا وأسبانيا ويوغسلافيا ، فالنزاع بين تيتو وستالين ليس نزاعا مذهبيا ، وان لفت بعض نواحيه بالعبارات المألوفة فى الجدل المذهبى ، بل هو نزاع على السلطان ٠ والمسألة ليست أيكون نظام الحكم فى يوغسلافيا شيوعيا أو غير شيوعى ، بل هى : أتظل يوغسلافيا الشيوعية دولة مستقلة ، أم تفنى يوغسلافيا الشيوعية فى سلطان موسكو ؟

والنتيجة التى يسفر عنها النزاع ذات خطر عظيم للكتلتين — الشرقية والغربية ٠ فروسيا تخشى فى المقام الأول أن تمتد النزعة التيتوية الى الأحزاب الشيوعية فى شرق أوربا وغربها ، وهذا يعلل تطهير هذه الأحزاب من « المارقين » « والمنحرفين » فى بولندا ويوغسلافيا وهنغاريا ورومانيا ، وليس لأسماء كوستوف البلغارى ، ورايك الهنغارى وغيرهما من مغزى سوى هذا ، فقد صارت بلغراد قطبا جديدا لجماعات من الشيوعيين ، ترى ما يراه تيتو من ضرورة التسليم بمبدأ مساواة الأحزاب الشيوعية واستقلال الدول الشيوعية ٠

وتمسك يوغسلافيا باستقلالها عن موسكو — على رغم بقائها شيوعية — يبقى روسيا بعيدة عن البحر الادرياتيك (اذا استثنيت ألبانيا) ، ويحد من أثر حملة روسيا السياسية فى غرب أوربا ، واذا مضت نزعة تيتو الى نتيجتها المنطقية قامت فى شرق أوربا كتلة من الدول المستقلة وان كانت شيوعية فتكون عامل توازن فى أوربا ، فاذا اخضعت يوغسلافيا لسلطان موسكو ، اختل الميزان الأوربى ، كما اختل يوم أخضع هتلر دولتى النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، واضطربت المساعى التى تبذل الآن لبنيان اقتصاد أوربا الغربية ودفاعها .

أتقدم روسيا على اخضاع تيتو بالقوة ؟ من يدرى . فان كنت ممن يظنون أن المنطق يقتضى من روسيا أن تخضع يوغسلافيا ، ما دامت قوة الغرب ضعيفة ، فقل أن روسيا ستقدم وان كنت ممن يظنون أن روسيا تؤثر خطر تيتو ، على خطر نشوب حرب عامة الآن ان هى حاولت أن تخضعه بالقوة ، فقل انها ممتنعة .

الصين وأندونيسيا

شهدت سنة ١٩٤٩ حدثين من أخطر الأحداث شأنا فى الشرق الأقصى ، ومن أكبرها أثرا فى ميزان القوى العالمية وسير النزاع بين الكتلتين الغربية والشرقية ، هما قيام الولايات المتحدة الاندونيسية ، وقيام الحكومة الشيوعية فى باكين . أما الأول فقد كان ظفرا للقومية الاندونيسية فى المقام الأول ، ولمجلس الأمن ، وأما الثانى ، فكان ظفرا للشيوعية الصينية ومن ورائها موسكو تشد أزرها ، وخذلانا كبيرا للحكومة الصينية الوطنية ،

وللدول الغربية التى لم تزل تؤيدها ، ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية •

فى عام ١٨١٥ ، توج فى لاهاى بهولندة ولهلم الأول أمير اورانج أول ملك على هولندة وجزائر الهند الشرقية الهولندية بعد أن مضى على تلك الجزائر قرابة قرنين ، تحكمها شركة تجارية تعرف باسم « الشركة التجارية للهند الشرقية الهولندية » • وفى يوم الأربعاء الموافق للثانى من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، احتفل فى لاهاى بتوقيع اتفاق نقلت بمقتضاه السيادة على جزائر الهند الشرقية من تاج الملكة جوليانا الى الاندونيسيين أنفسهم ، فكان ذلك الاتفاق تتويجا للمساعى التى لم يزل الاندونيسيون يبذلونها منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، للظفر بالاستقلال • وقد ظلت قواتهم المسلحة ثلاث سنوات تحارب ، فقد حاربت الانجليز الذين نزلوا الجزائر لتحريرها من اليابانيين ، ثم حاربوا الهولنديين الذين عادوا اليها ليستردوا زمام سلطانهم عليها •

كان مجلس الأمن قد أمر الهولنديين غير مرة أن يعقدوا الصلح مع أهل الجزائر ، وأن يتفقوا واياهم على خطة تفضى الى جلاء القوة الهولندية عن اندونيسيا والاعتراف باستقلالها • وقد تنكرت هولندا لما كان من مجلس الأمن غير مرة ، ولكن الرأى العام العالمى ، وتهديد وزارة الخارجية الأمريكية بقطع معونة مارشال عن هولندة ، انتهيا الى عقد مؤتمر لاهاى فى ٢٥ أغسطس الماضى، الذى وصل الى اتفاق رضيه الفريقان ، فى شهرين أو أكثر قليلا •

والدولة الجديدة — الولايات المتحدة الاندونيسية — تشمل جميع الجزائر فى الأرخبيل الاندونيسى ، ما عدا غينيا الجديدة

التى لم تزل موضع خلاف • ومساحة هذه الجزائر ٧٣٥٫٠٠٠ ميل مربع وأرضها من أخصب أرض العالم وأغناها بالمعادن كالقصدير والزيت وأغزرها انتاجا زراعيا • وسكانها ٧٧ مليونا من الناس • وهى مؤلفة من ست عشر ولاية ، أكبرها الجمهورية الاندونيسية المؤلفة من معظم جاوة وسومطرة ، ومنها جاوة الشرقية ، وبورنيو الشرقية ، وبورنيو الغربيـــة ، وسومطرة الجنوبيـــة وغيرها • ودستورها اتحادى ينص على رئيس ومجلس شيوخ يضم شيخين عن كل ولاية ، ومجلس نواب ينتخب أعضاؤه على أساس عدد السكان • أما العلاقة بين الولايات المتحدة الاندونيسية وهولندة، فقد نظمها (قانون الاتحاد) الذى وقع فى لاهاى ، وهو ينص على (اتحاد هولنـــدى اندونيسى) تكون ملكة هولندة رأسه الرمزى • أما الدولتان اللتان يتألف منهما الاتحاد ، فكل منهما دولة مستقلة ذات سيادة ، ولكنهما فى نطاق الاتحاد شريكان متساويان • فالدستور الاتحادى شبيه بدستور الولايات المتحدة الأمريكية و (قانون الاتحاد) فيه مشابه من نظام « الكومنولث »

وليس ثمة ريب فى أن الدولة الجديدة ، تواجـــه فى عهدها الأول طائفة من المشكلات الخطيرة ، من سياسى وعمرانى ، ولكن الاجماع يكاد ينعقد على أن نبأ هذا الحدث كان خير نبأ تلقته الدول الغربية من الشرق الأقصى ، منذ زمن بعيد •

ذلك بأن الحالة فى الشرق الأقصى ، لم تزل فى نظر الدول الغربية ، تطرد سوءا منذ أن ثبت أن الحكومة الصينية الوطنية ، بقيادة شانج كاى شيك ، عاجزة — برغم المعونة التى نالتها — عن صد تيار الشيوعيين الصينيين • نعم ان ممثلى الصين الوطنية ،

يستطيعون أن يقيموا الحجة — كما فعلوا فى هيئة الأمم المتحدة فى دورتها الأخيرة — على أن روسيا قد خرقت المعاهدة القائمة بين موسكو ونانكين ، وبذلت العون المادى والأدبى للشيوعيين الصينيين ، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها اليوم ، هى أن القوات الشيوعية الصينية ، اكتسحت معظم الصين فى خلال سنة أو أكثر قليلا ، وأقامت منذ أكتوبر الماضى ، حكومة شيوعية اتخذت باكين عاصمة لها ، واعترفت بها روسيا والدول التابعة لها • وقد وصف تشرشل هذا الانقلاب فى ميزان القوة فى الصين بأنه : « أكبر كارثة أصبنا بها منذ النصر فى الحرب العالمية الثانية » •

والاهتمام بما حدث فى الصين يرجع الى سببين رئيسين ، أما الأول فهو ان ماوتسى تنغ وأنصاره الذين تسلموا زمام الصين الآن قد أحرزوا نصرا فى ثورة سياسية اجتماعية ضخمة لم تزل قائمة منذ ثلاثين سنة أو نحوها وقد يثبت على الزمن أن عواقبها لا تقل شأنا عن عواقب الثورة البلشفية التى تمت فى روسيا فى سنة ١٩١٧ ان لم تكن أعظم • فالنصر الحربى الذى أحرزته القوات الشيوعية الصينية قد غير الخريطة السياسية والحربية فى شرق آسيا • وأما الثانى فهو أن الصين الشيوعية خليقة أن تصير كحجر المغنطيس القوى ، تجذب اليها طوائف كبيرة من أهل البلاد المجاورة لها ، كالهند الصينية وبورما وغيرها • وقد عقد فى باكين فى الأسبوعين الأخيرين من شهر نوفمبر الماضى ، مؤتمر حضرته وفود نقابات العمال من آسيا وجزائر المحيط الهادى ، فأعلن المؤتمر تأييده لجميع « قوى التحرير » فى بورما والملايو واندونيسيا والهند الصينية والفلبين ، وقرر انشاء مكتب دائم

للاتصال بين الحركات الثورية التى يقودها الشيوعيون ، وسكرتيرية تكون فى منزلة هيئة أركان حرب لهذه الحركات ... أى أن الحركة الشيوعية فى الشرق الأقصى صار لها (كومنفورم) خاص بها كمثل « الكومنفورم » فى أوربا الشرقية .

وليس من غرائب الدعوة الشيوعية فى آسيا انها تتنكر لبقايا السيادة الغربية فى الشرق الأقصى — كالحكم البريطانى فى الملايو — ولكن من غرائبها أنها تتنكر أيضا لزعماء الحركة القومية الاسيوية من الهند الى الفلبين . فقد شدد مؤتمر باكين نكيره على نهرو الهندى وتاكين نو البورمى وسوكارنو الاندونيسى وعدهم « خدما للاستعمار الغربى » . ولما كان الشيوعيون يظهرون فى مظهر المؤيد للقومية المستقلة ضد السيطرة الغربية ، فقد كان من المنطق أن تراهم يرحبون بكل حركة تنتهى الى الاستقلال ، وسفر الجهاد الذى ملاه أمثال نهرو وسوكارنو بآيات بينات ينبغى أن يضعهم فوق كل شبهة فى نظر الداعين الى التحرر والاستقلال . ولكن الشيوعيين لا يرون لأحد فضلا ان لم تنته مساعيه الى وضع بلاده تحت أجنحة الحركة الشيوعية التى تديرها موسكو فى العالم وتتولاها الصين الآن فى آسيا الشرقية .

وقد تختلف الدول الغربية الآن ، على الاعتراف بحكومة الصين الشيوعية (ولهذا الموضوع بحث آخر) ولكن الحقيقة التى لا خفاء فيها ، هى أن الدول الغربية لا تواجه الصين الشيوعية وحسب ، ولا الصين الشيوعية وموسكو من ورائها وحسب ، بل هى تواجه اليوم ضربا من قوة الجاذبية الانسانية ، يشق على

شعوب آسيا الشرقية وجنوب أسيا الشرقى أن تبقى بمعزل عن التأثر بها • فقد كانت هذه البلاد جميعا ، فى زمن ما ، جزءا من الصين فى بعض عصورها الامبراطورية وتأثرت بالثقافة الصينية ، وهاجرت اليها وأقامت فيها جماعات كبيرة من الصينين ، فالصوت الذى ينبعث من باكين الشيوعية الى هذه البلاد ، واجد ولا ريب شيئا من الصدى على الأقل ، فى نفوس طوائف من أهلها •

نعم أن الصين نفسها لا تزال أمة ضعيفة فى ميدان الصناعة الحديثة ، وقد يتعذر على شيوعييها ، وان بذلت لهم موسكو بعض العون ، أن يغيروا هذه الحالة قبل انقضاء دهر طويل ، فليس ثمة خطر قريب ، من أساطيل الصين وأسرابها الجوية وجيوشها المدرعة أن تقتفى آثار الغزو اليابانى فى المستقبل القريب •

ولكن التغلغل الشيوعى ، المستند الى ظفر الشيوعيين فى الصين ، هو أعظم خطرا لأنه أخفى واختل من الحرب السافرة • ومن هنا يعلق أمل كبير ، على التسوية التى انتهت الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الاندونيسية وسيادتها ، فقواد الحركة الوطنية الاندونيسية ، مقاومون للشيوعية ، وقد أخضعوا غير تمرد واحد أثاره الشيوعيون فى السنوات الأخيرة فى بلادهم ، فلو ظلت حركتهم الوطنية بغير استجابة من جانب الأمم الغربية وهولندا ، لمهد الطريق للشيوعيين حتى يستغلوا خيبة الأمل ويحولوا تيار الحركة الوطنية الى الشيوعية • أما وقد نالت الوطنية الاندونيسية مطالبها — اذا استثنيت قضية غينيا الجديدة — فالأمل معقود على أن تصبح هى الأخرى ، ضربا آخر من قوة الجاذبية الانسانية ، تستميل اليها شعوب البلاد المجاورة ، التى

تطلب الحياة الحرة والحياة الوافرة ، ولا ترى جماعات كثيرة منها أن الشيوعية هى التى تمهد لها هذا الطريق .

الحرب الباردة تمتد

أدرك الناس بالتجربة ومطالعة الأصول ، أن الشيوعية الدولية تبدل وسائلها وغاياتها القريبة مسايرة لمقتضى الحال ولكنها قلما تغير خطتها العامة وتأبى أن تغير أهدافها البعيدة . فأصحابها يؤمنون أخذا بالقواعد التى وضعها ماركس وفسرها لنين وستالين ، أن انهيار الدول الرأسمالية ، مقدر عليها بحكم منطق التاريخ وتفسيره الاقتصادى ، فعليهم أن يستعجلوا الانهيار بجميع الوسائل ، يلينون هنا ويشتدون هناك ، حتى تتم الثورة العالمية ، ويتوحد العالم فى ظل الشيوعية ، أى حتى يبسطوا سلطانهم على سطح البسيطة .

فالنظرية الشيوعية ، هى نظرية ثورة وحرب ، غرضها أولا أن تقلب نظام المجتمع حتى يصير « العمال » سادته وان هذا الانقلاب لا يتم الا بالتوسل بالقوة لتقويض دعائم النظم القائمة . ولكن النظرية لا تقف عند هذا الحد ، فقد يتم الظفر للثورة الشيوعية فى أمة واحدة أو طائفة من الأمم ، ولكن لن يتم لها النجاح والاستتباب — فى تقدير أصحابها — ان لم تفض الى ظفر الثورة الشيوعية فى جميع الأمم ، وهذا يستدعى نشاط الأحزاب الشيوعية والدول الشيوعية لاستعجاله .

وقد حاولت روسيا ، رأس العالم الشيوعى ، أن تسير على هذه الخطة فى الغرب ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فانقاد لها

شيء من النصر فى الدول المجاورة لها ، حيث كان الجيش الأحمر مقيما أو على مقربة . ولكن الانقلاب الشيوعى الذى تم فى تشيكوسلوفاكيا ، فى فبراير من سنة ١٩٤٨ ، أحدث هزة فى دوائر الغرب ، فاذا مشروع مارشال يقر ويمضى فى مراحله الأولى فيرد العافية الاقتصادية الى أوصال أوربا الغربية ، واذا شيوعيو ايطاليا يخذلون فى الانتخاب العام ، وشيوعيو فرنسا يخفقون فيما سعوا اليه من بلبلة فرنسا بالاضراب ليفسدوا المنفعة التى تعود عليها من معونة أمريكا ، واذا الاتحاد الغربى يقوم بين بريطانيا وفرنسا ودول البنلوكس ويتبعه ميثاق الدفاع الأطلسى ، فلما حاولت روسيا أن تمتحن دول الغرب وعزيمتها وصدق حرصها على الحيلولة دون توسع الشيوعية فى الغرب ، عمدت الى برلين فاذا « جسر الطائرات » برغم ما اكتنفه من المشقة والنفقة ، دليل لا يخطىء ، فكفت عن الامتحان فى أواسط هذا العام .

فقد أثبتت سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٤٩ أن الشيوعية الدولية أخفقت فى الحرب الباردة التى أدارت رحاها ، فى الشق الغربى من أوربا ، وتجلى هذا الاخفاق خاصة ، فى تمرد تيتو وعواقبه .

ففى أوائل هذه السنة (١٩٤٩) أنذر كاشان الشيوعى الفرنسى ، وتولياتى الشيوعى الايطالى ، بأن الشعبين الفرنسى والايطالى ، خليقان أن ينضما الى الاتحاد السوفيتى اذا نشبت حرب عامة ، ولكن الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٤٩ ، بينت أن شيئا من التردد قد طرأ على هذين الحزبين ، فزعماء الحزب الشيوعى فى فرنسا يعترفون بتغلغل النزعة « التيتوية » فيه ، وتولياتى حذر لجنة حزبه ، من نفوذ « الأعداء » الى الطبقات العليا فى الحزب ،

نفوذا أحدث فيها « انحرافا مذهبيا » ، وقد شجع هذا التحول تيتو نفسه فعمد الى الهجوم المذهبى ، وقد كان حتى الآن يدافع عن حق الدول الشيوعية فى أن تكون مستقلة عن موسكو ، فاذا صحيفة الحزب الشيوعى اليوغسلافى اليوم تتهم شيوعيى موسكو بالانحراف والاستغلال والاستعباد ، وهكذا .

فكان من أثر هذا التحول فى أوربا خلال السنتين الماضيتين ، أن عمدت موسكو ، الى تعزيز سلطانها فى دول أوربا الشرقية ، بمحاكمة المنحرفين وتصفيتهم ، وتعيين المارشال روكوسفسكى وزيرا للدفاع فى بولندا وقائدا للجيش ، كما مالت الى الشرق الأقصى ، ولاسيما الصين ، حيث يعيش مئات الملايين فى بيئة اجتماعية لعلها أصلح بيئة لتقبل بذور الشيوعية وانباتها .

فالحرب الباردة التى ظلت زمنا وهى تكاد تكون محصورة فى نطاق أوربا ، امتدت اليوم واتسع نطاقها . ومن الأقوال التى تعزى الى لنين قوله : « ان الشرق الأقصى هو الباب الخلفى الى دار الدول الرأسمالية ، وان فى الطاقة الشيوعية أن تنفذ منه الى غرضها البعيد — سقوط الدول الرأسمالية وبسط سلطان الشيوعية على العالم » .

وكذلك جدد شيوعيو الصين هجومهم على قوات الحكومة الصينية الوطنية ، فتم لهم فى سنة وبعض سنة الاستيلاء على معظم الصين ، ومنذ أيام وصل ماوتسى تنغ وتشيه تيه قائد جيشه الى موسكو فخف ثلاثة من كبار أعضاء المكتب — السياسى مولوتوف ومالينكوف وبولجانين ومعهم فيشنسكى وجروميكو الى استقبالهما .

وخضوع الصين كلها للشيوعية خليق أن يصير قوة دافعة للشيوعية فى جنوب آسيا الشرقى من برما الى الهند الصينية ولا يبعد أن تشعر الهند وأندونيسيا وباكستان بأثرها .

فالاخفاق الذى منيت به الشيوعية فى الغرب يقابله ظفرها فى آسيا .

وقد ترى من يقيم لك الحجة بأن الصين الشيوعية قد تنزع الى الاستقلال عن موسكو ، وأن موسكو لا تستطيع أن تواليها بما تحتاج اليه لتنمية مواردها وانشاء الصناعة فيها فلابد لها من أن تستعين بالغرب وقد يكون هذا صحيحا ولكن من الخطل أن يبنى الحساب على هذا التقدير فالزعيم الشيوعى الصينى ماوتسى تنغ لم يزل منذ ظهر فى حلبة الشيوعية الصينية يؤكد فيما يكتب ويقول : ان الشيوعيين الصينيين يد واحدة مع سائر الديمقراطيات الشعبية ، ضد « المعسكر الاستعمارى » ، وقد كان عضوا فى الكومنترن منذ سنة ١٩٣٥ الى أن حل رسميا فى سنة ١٩٤٣ وها هى ذى زيارته لموسكو بعيد قيام الحكومة الشيوعية فى باكين تؤيد — الآن على الأقل — هذا الرأى .

ولسنا نعلم ما تنويه الكتلة الغربية حيال هذا الشطر من الحرب الباردة ، فخطتها فى أوربا بينة ولكن موقفها فى آسيا يكتنفه الغموض فقد تعمد الى تقوية اليابان وبذل المعونة لأندونيسيا والهند فى حدود الانشاء العمرانى ، وقد تضيف الى ذلك ميثاقا خاصا بالمحيط الهادى على غرار ميثاق الدفاع الأطلسى وان كان ذلك شيئا مستبعدا الآن . وفى أول شهر فبراير المقبل ينتظر أن يرأس السفير الأمريكى العام فيليب جيسوب مؤتمرا سياسيا

فى بانجكوك عاصمة سيام يحضره رؤساء البعثات السياسية الأمريكية فى تلك المنطقة وقد يخرج من هذا المؤتمر بمقترحات جديدة تبنى عليها الولايات المتحدة خطتها المرتقبة .

ومهما يكن من أمر فان امتداد الحرب الباردة من أوربا الى سواحل الصين ، وجنوب آسيا الشرقى ، يجعل تجديد النظر فى موقف الشرق الأوسط شيئا لا غنى عنه ، قلب نظرك كيف شئت فى هذه الحرب الباردة العالمية على وجوهها الحربية والاقتصادية والسياسية ، فلن تجد لك مفرا فى خاتمة المطاف من أن تنتهى الى القول بأن رقعة الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط ، هما كالعقدة الصعبية أو كحجر العقد فى الخطة التى لا مفر للكتلة الغربية من أن تتخذها فى هذا الصراع العالمى — سواء أظل باردا أم تحول الى نار حاصدة .

فهذه الرقعة بأوسع معانيها الجغرافية من تركيا الى الهند ، قد ازدادت شأنا عالميا ، بعد الذى تم فى الصين — أفيكون منطق الحقائق الجغرافية والاقتصادية والحربية كفيلا باستخراج النتائج التى يفرضها هذا المنطق فتعمد بريطانيا وأمريكا وأصحابهما الى استرداد ثقة الشعوب العربية والتعاون معها ومع جاراتها على وجه يزيد الفريقين قوة ومنعة أم تمنى السياسة بالعقم والعجز ، فاذا ما أنفق فى اليونان وتركيا وايران عرضة لأن يذهب هباء لأن شعوب المنطقة الواسعة التى يستند اليها هذا الخط الأمامى لا يحركها سوى التنكر والاستنكار .

مشروع مارشال

مرحلته الثانية

لو لم يؤت المشروع ثمره فى مرحلته الأولى ، لما كان ثمة مرحلة ثانية يدور البحث من حولها .

فقد اجتمعت الأنباء منذ أواخر السنة الماضية على أن هناك مفاوضات خطيرة دائرة ، غرضها أن يحول مشروع الانعاش الاقتصادى الأوربى من وسيلة لدعم الانتاج الأوربى بالدولار حتى يسترد مستواه قبيل الحرب العالمية الثانية ، فى كل دولة على حدة ، من الدول الأوربية التى اشتركت فيه ، الى وسيلة تمهد لقسط أوفى من حرية التجارة بين دوله جميعا ، أى الى قسط من التعاون الاقتصادى بينها ينزل منزل شىء من الوحدة الاقتصادية . فهذه الوحدة كانت أحد الغرضين العظيمين اللذين وضع المشروع من أجلهما ، وبهما على الخصوص ، زين المشروع للشعب الأمريكى وممثليه فى المجلسين .

وحقيقة الأمر أن توفيق المشروع فى مرحلته الأولى أفضى الى نتيجة تناقض غرضه الثانى . فالحرص فى مبدأ الأمر على زيادة الانتاج فى كل دولة من دوله وتوزيع معونة الدولار الأمريكية على الدول وفقا لعجز الدولار فى ميزان كل منها ، أفضى الى تعزيز الفوارق الاقتصادية المتحدرة من تاريخها السياسى ، وشجع الدول المشتركة على أن تقصر كل دولة نظرها على مشكلاتها ومشروعاتها الخاصة بها دون نظر يذكر لمشكلات الجماعة أو مشروعاتها .

ومع ذلك لا مفر من التسليم بأن تقديم زيادة الانتاج فى المرحلة

الأولى على السعى لادراك الوحدة ، كان شيئا لا مفر منه • وما تم فى السنتين الأولين أيد حكمة هذا التقديم • ولو قدم التعاون فى سبيل الوحدة على زيادة الانتاج لكان الأمر فوضى • فالناس فى حاجة الى العمل والقوت والكساء ، فارهاقهم ، وحالهم هى حالهم ، بعبء يقتضى تبديلا فى العادات المألوفة فى التجارة ، والآراء المتبعة فى السياسة ، والتقاليد المرعية فى منهج الحياة ، تقتضى اتخاذ قرارات سياسية خطيرة بعيدة عن المألوف ، وقد كان اتخاذها شاقا ، ان لم يكن مستحيلا ، فى أمم يوهنها الضعف الاقتصادى ويفرق بينها وبين طبقات الأمة الواحدة منها دعوة الدعاة الذين يجدون الضعف الاقتصادى والاجتماعى مرتعا لهم •

وليس ثمة ريب فى نجاح المرحلة الأولى ، فقد زاد الانتاج حتى بلغ مستواه قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، أو فاقه ، وهذه حقيقة لا يسع رجال السياسة والاقتصاد أن يهملوها فى تقدير ماتم ، والتمهيد لما يطلب ويرام •

وقد اقترح المعنيون بادارة الانعاش الأوربى مقترحات مالية فنية لا يتسع هذا المقال لبسطها ، لو كان فى وسع كاتبه أن يبسطها • ولكن أهم هذه المقترحات ثلاثة ، يريدونها أن تكون قوائم المشروع فى مرحلته الثانية • فأولا يريدون نظاما أوسع نطاقا من اتفاق المدفوعات القائم بين دول المشروع حتى يزداد التبادل التجارى وتحويل العملات بعضها الى بعض ، تيسيرا ومرونة ، وثانيا يريدون أن تخفض القيود الكمية أى الحصص ، المفروضة على التبادل التجارى بين هذه الدول ، وثالثا يريدون أن يتحول مجلس ادارة التعاون الاقتصادى الأوربى من مجلس استشارى

ضعيف الى مجلس له شىء من السلطان فى وضع المناهج الكبيرة لتثمير الأموال ، أى أن يخطو خطوة ما نحو تحـويله الى مجلس اقتصادى أعلى لأوربا الغربية •

وهـذا فى اعتقادهم هو أقصى ما تستطيع دول المشروع أن تصنعه ، فى سنة ١٩٥٠ ، فى اتجاهها الى « الاندماج » Integration الاقتصادى الذى يطلبه هوفمان ، المـدير الأمريكى للمشروع • وهذا الطلب فى مصلحة أوربا الغربية البعيدة المدى ، ويلوح أنه لا غنى عنه لاقنـاع الكونجرس لارصاد المال اللازم للمشروع فى سنته الثالثة •

والاتفاق على هذه الأصول والسير قدما فى سبيل تحقيقها ، برغم العقبـات الكبيرة التى تعترضه هو أيضا شىء لا غنى عنـه فى النضال السياسى المتوقع فى هذه السنة بين الكتلتين •

فقـد وردت أنباء من موسكو أن رجال السلك السـياسى الأجنبى فى العاصمة السوفيتية يرون أن سـتالين يذهب الى ان النظام الرأسمالى مقدر له أن يعيش سنوات أخر ، وان العالم اليوم يتسع للنظامين الشيوعى والرأسمالى ، دون ضرورة لحرب •

ولعل أقوى دليل على صحة هـذا المذهب ، أن مالينكوف ، الذى يعد فى طليعة رجال المكتب السياسى بعد ستالين ، نشر مقالا خطيرا فى صدد الاحتفال بعيد ستالين السبعين ، ذهب فيه الى أبعد حد فى الاسناد واقامة الدليل لتبيين رأى ستالين فى أنه ينبغى للعالم أن يتوقع قيام الشيوعية والرأسمالية جنبا الى جنب زمنا طويلا ثم صرح بأن آراء ستالين فى هذا الموضوع يمكن تطبيقها على الحالة العالمية اليوم • وقد نشرت هـذه الأقوال فى الوقت

الذى اجتمع فيه ممثلو العالم الشيوعى من أواسط أوربا الى سواحل الصين لتحية ستالين فى عيده — أى فى وقت بلغ فيه المد الشيوعى أقصاه .

بيد أن المتحدثين السوفيت لم يكتموا ما يجول فى أذهانهم ، برغم ما نشره مالينكوف . فهم لا يزالون يعتقدون أن الأزمة الاقتصادية الأمريكية قادمة لا ريب فيها ، ويومئذ ينهار البناء الاقتصادى فى أوربا الغربية ، كأنه بيت من ورق ، أو بيت بنى على الرمل .

فمقال مالينكوف الذى يمهد فيما يلوح ، لحملة سلام كالحملة التى مهد لها ستالين فى أوائل السنة الماضية ، بحديثه مع كنجزبرى سميث ، ورأى الشيوعيين الذى لم يطرأ عليه تغير ، بأن « المتناقضات » فى ثنايا النظام الرأسمالى والأزمة الاقتصادية الأمريكية ، كفيلة بهدم هذا النظام ، ان آجلا وان عاجلا — كلاهما يقتضى من أمريكا وأوربا الغربية أن تتقيا باليقظة والتعاون كل ما من شأنه أن يحقق الرأى الشيوعى فى اقتصادهما حتى تكونا ذات يد عزيزة فى كل حديث يدور ، ان شنت حملة السلام ، ومن هنا ما يعلق من شأن عظيم بمشروع مارشال فى مرحلته الثانية .

الجبهة الشعبية الجديدة

فى الفترة المضطربة التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، قام فى أنحاء أوربا ، التى لم تخضع للحكم الفاشى أو النازى ، ائتلاف بين أحزاب الوسط وأحزاب الميسرة ، أطلقوا عليه وصف « الجبهة الشعبية » . وقد كان مرجع الايحاء بقيامها الى موسكو ، عسى

أن يكون فيها رد قوى ، على الحكمين الفاشى والنازى ، وسعى أقطابهما الى استمالة رجال الميمنة والمال والأعمال فى دول أوربا • ففى سنة ١٩٣٥ عقد الكومنترن مؤتمره السابع فى موسكو ، وقرر أن يكف حملته على الأحرار والاشتراكيين ، أو يرجئها ، وأن يسعى لانشاء ضرب من الائتلاف ضد الفاشية والنازية ، وكذلك قامت الجبهة الشعبية فى فرنسا ، مستندة الى الأحرار والاشتراكيين والشيوعيين على ما بينهم من تفاوت فى المذهب ، وقام مثلها فى اسبانيا وغيرها •

ولكن هذه الجبهة انهارت ، وتفككت أوصالها ، قبيل نشوب الحرب ، يوم عقد الميثاق النازى السوفيتى ، فبمقتضاه ألقت روسيا بوزنها فى الكفة الألمانية ضد الدول الغربية ، فانقلب الشيوعيون فى فرنسا ، مثلا ، الى مناوأة الحكومة القائمة ، لأنهم وقفوا من حرب ألمانيا ، الموقف الذى رسمه لهم اتفاق مولوتوف وربنتروب فأخرجوا من المجلس ووضعوا تحت الرقابة •

ويلوح أن اتفاقات مشروع مارشال والوحدة الغربية الأوربية ، وميثاق الدفاع الأطلسى ، قد أنشأت فى العالم الغربى اليوم جبهة شعبية جديدة • وهذه الجبهة تجمع بين أمم ليس بينها خلاف مذهبى ، كمثل الخلاف المذهبى الذى كان قائما بين الأحرار فى فرنسا وهم حزب وسط ، وبين الشيوعيين حلفائهم فى الجبهة الشعبية فى ذلك الزمان • بل تجد بين أمم الجبهة الشعبية الجديدة ، مبدأ تجتمع من حوله ، ففى هذه الدول شىء من الاشتراكية ، يقل أو يكثر ، وكثير من الرأسمالية على درجات متفاوتة من التحكم والسلطان ، ولكن شعوبها تعترف ، بأن كل نظام فى الحكم يمكن

تعديله التعـديل الذى ترتضيه كثرة الذين يعيشون فى ظلاله ، وتؤمن بأن نظرتها الى الحرية واستمساكها بها ، تؤلف بينها وتوحد عزمها على الدفاع عنها • وقيام هذه الجبهة له صلة فيما يظن ، باعفاء مولوتوف من مهام وزارة الخارجية السوفيتية ، وتعيين فيشنسكى خلفا له فيها •

كان الكرملين يعد وزارة الخارجية قبل أن تقلدها مولوتوف فى مايو سنة ١٩٣٩ ، ادارة من ادارات الحكومة يتعين عليهـا أن تحتفظ بالصلة بمنبوذى العالم — فى نظر الشيوعيين — أى الدول البورجوازية • وما كان وزير الخارجية من الرجال الذين يرسمون سياسـة الحكومة ، فقـد تقلدها رجلان اثنان قبل مولوتوف ، هما تشيشرين وليتفينوف ، ولم يكن أحـدهما من البلاشـفة المؤصلين ، ولا كان عضوا فى المكتب السياسى ذى الحول والسلطان •

فلما أعفى ليتفينوف ، وخلفه مولوتوف ، دل ذلك على تغير فى نظرة الكرملين الى وزارة الخارجية ووزيرها والى المهمة التى تضطلع بها فى الاشراف على صلة روسيا بسائر العالم ، فمولوتوف بلشفى قديم وهو عضو فى المكتب السياسى مقرب من ستالين منذ عشرين سنة أو أكثر ، ويعـد الرجل الذى يليـه فى الحزب وفى الحكومة فلم يكد يتولى وزارة الخارجية حتى مضى فى مفاوضة ربنتروب ، وفى أغسطس ١٩٣٩ عقد الميثاق النازى السوفيتى ، الذى ضمن لهتلر — فى أول الأمر على الأقل — سلامة مؤخرته فى الجبهة الشرقية ، وانطلاق يده فى قهر الغرب •

كان الرأى ، حتى ذلك العهد ، أن المبدأ الأصيل فى سياسة السوفييت هو أن أغراضهم تتحقق متى نخر السوس جذور العالم

غير السوفيتى ، فتصير الثورة العالميـة ممكنة فينهار ذلك العالم الانهيار المقدر عليه بحسب تعاليم ماركس وأتباعه •

فلما عقد مولوتوف الميثاق مع ربنتروب دل بعمله هذا على أن الكرملين يريد أن يتوسل بالوسائل الدبلوماسية ليستعجل سير التاريخ فى تحقيق ما يريد ، لأنه قدر أن الميثاق يفضى الى نشوب الحرب بين المحور والغرب الرأسمالى ، فتـدمر الحرب الفريقين جميعا ، ويرث الاتحاد السوفيتى السؤدد والسلطان على العالم •

وقد أخفقت المحاولة لأن هتلر هاجم روسيا ، ولكن مولوتوف بقى فى الوزارة برغم اخفاقها ، ليسعى بالوسائل السياسية بعـد الحرب الى تحقيق الأغراض التى فاته تحقيقها فى أثنائها • وقد ظل وهو وزير الخارجية عضوا فى المكتب السياسى ، فكان يشترك فى وضع السياسة الخارجية ويتولى تنفيذها • وكان الكرملين ، يتوقع أن تتاح له ، بعد انتهاء الحرب ، فرصة ثانية أدنى الى نجاحه فيمـا يريد بالأساليب السياسـية • فتعاليم ماركس ولنين تقطع باستفحال أطماع الدول الغربية ، بعـد ظفرها ، فتختلف وتتنازع فيما بينها على الأسواق ، وقد يشتد الجفاء بينها ، فيومئذ تحاول روسـيا السوفيتية بالأساليب الديبلوماسية ، أن تقتسم العـالم مع كبرى الدول الرأسمالية — الولايات المتحدة — وأن تخرج من هذه القسمة بشطر الأسد ، فيكون ذلك الاقتسام خطوة على الطريق المرسوم •

ولكن المقدر لم يقع ، فلا الدول الغربية ، اشتد بينها النزاع على الأسواق ، ولا الاتفـاق مع أمريكا على حساب سائر العالم قد تم •

بل الذى تم هو قيام هذه الجبهة الشعبية الجديدة فى الغرب ، التى أركانها مشروع مارشال ، والوحدة الغربية ، وميثاق الدفاع الأطلسى •

أى أن محاولة روسيا أن تتوسل بالأساليب السياسية لتحقيق أغراضها قد أخفقت ، فعزفت عن التجربة ، وأرجعت وزارة الخارجية الى المنزلة التى كانت لها قبل مولوتوف ، فتولاها فيشنسكى ، وهو كتشيشرين وليتفينوف ، رجل ذو براعة وبلاغة وسعة حيلة ، ولكنه ليس بلشفيا عريقا ولا عضوا فى المكتب السياسى • وفى مجلس الوزراء الروسى رجل آخر ، كان كوزير الخارجية ذا صلة بدول الغرب ، هو ميكويان وزير التجارة الخارجية ، وقد أعفى كما أعفى مولوتوف ، ولكن ظل كلاهما عضوا فى المكتب السياسى •

فالنتيجة التى تخرج بها من هذا ، هى أن قيام الجبهة الشعبية الجديدة فى الغرب قد أقنع الكرملين ، بأنه لا خير يرجى الآن من التوسل بالأساليب السياسية لتحقيق أغراضهم • أما ما يلى ذلك فعلمه عند رجال المكتب السياسى ، ولن تجد أحدا يستطيع أن ينبئك عن علم وثيق بما عسى أن تكون خطة الكرملين فى السنوات المقبلة •

ولكن الرأى الغالب فى الغرب بين متتبعى الحالة الدولية ، هو أن روسيا لا تريد الحرب الآن ، ولا يحتمل أن تغامر فى شىء خليق أن يفضى الى حرب خلال زمن ما • بيد أنها ، فى رأى هؤلاء ، قد اتخذت لنفسها خطة ذات ثلاثة أغراض ، أولها ترسيخ قدمها حتى لا ينازعها على السلطان منازع فى بلاد شرق أوربا التى دخلت

فى نطاقها منذ الحرب • وثانيهما أن تنتفع بانهماك أمريكا فى أوربا ، لتظفر بكل ما تستطيع أن تظفر به من المزايا فى الشرق الأقصى ، وجنوب آسيا الشرقى ، والشرق الأوسط • وثالثهما أن تعجل اعداد الاقتصاد الروسى للحرب • وهذه خطة قد يستغرق تحقيقها بضع سنوات على الأقل ، ولن تستطيع دول الغرب أن تحبطها بعقد ميثاق كميثاق الدفاع الأطلسى ، بل ينبغى لها أن تبادر الى تنفيذ برامج الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى التى تعين على رد الناس عن فتنة الدعوات الهدامة •

مبدأ الميثاق الأطلسى

فى أواسط سبتمبر الماضى سمعت فى نيويورك ووشنطن همسا عن مباحثات تجرى وراء ستار ، غرضها وضع ميثاق للدفاع ، على غرار الميثاق المعقود بين دول الجامعة الأمريكية ، فتنتظم فيه طائفة من دول غرب أوربا من ناحية ، والولايات المتحدة وكندا من ناحية أخرى • وقد علمت يومئـذ أن هـذه المباحثات لم تزل دائرة فى وشنطن ، منـذ أوائل شهر يوليو ، بين ممثلى حكومتى كنـدا والولايات المتحدة ، وممثلى الاتحاد الأوربى الغربى ، وان غرضها الاستطلاع وحسب ، دون أن تنطوى على تقيد الحكومات بما تسفر عنه من آراء ومقترحات •

وقد عنيت بعد ذلك بتقصى الرأى فى هذا الاتجاه الجديد ، الذى لا عهد للسياسة الأمريكية الخارجية بمثله من قبل ، فى زمن السلام ، فتبينت موافقـة عليه من ناحية المبـدأ وألفيت الدوائر الصحفية الأمريكية فى المدينتين ، مقتنعة بأن لا منـاص للولايات

المتحدة من أن تنهض بنصيبها كاملا فى الدفاع عن أوربا الغربية ، وأن مصلحتها تقتضى ذلك .

ولكن الاتفاق على المبدأ ، كان يجاريه خلاف على بعض التفاصيل : أترضى الحكومة الأمريكية أن تمد زمن هذا الميثاق المرتقب الى ما شاء الله ، كالمعاهدة التى وقعت فى ريودى جانيرو بين دول الجامعة الأمريكية ؟ أتستطيع الحكومة الأمريكية أن تتقيد فيه بدخول حرب ، مع أن الدستور ينص على أن شهر الحرب حق للكونجرس ، والكونجرس حريص دائما على أن لا يفرط فى حقوقه ؟ أيقتصر الميثاق على دول الاتحاد الأوربى الغربى أم يشمل الدول السكندناوية والبرتغال واسبانيا ، فمزاياها الحربية المستمدة من موقعها الجغرافى لا يسهل اهمالها ؟ أمن المصلحة أن يطرح هذا الموضوع على بساط البحث العام ، فى بضعة الأسابيع المحمومة التى تسبق انتخاب الرئيس ؟

أما السؤال الأخير ، فقد حسم فى اليوم الذى ثبت فيه أن ترومان قد أعيد انتخابه ، فلا حاجة بعد ذلك الى التريث فى البحث الى ٢٠ يناير ١٩٤٩ ، يوم يتولى الرئيس الجديد زمام الرياسة .

وأما الأسئلة الثلاثة الأولى ، وأسئلة أخرى كثيرة على غرارها ، فهى موضع بحث يدور اليوم فى وشنطن — وقد بدأ منذ أيام — على أساس مشروع وضع فى أوربا وارتضته دول الاتحاد الأوربى الغربى .

قد يختلف المؤرخون فيمن سبق الى اقتراح القاعدة التى يقوم عليها ميثاق الدفاع الأطلسى . فأنا أذكر مثلا أن الكاتب الأمريكى والترلبمان وضع فى سنة ١٩٤٤ كتابا عنوانه « الولايات المتحدة

وغاياتها من الحرب » وقد عرض فيه فكرة قيام جماعة متآلفة من الدول أطلق عليها « جماعة الأطلسى » وان كانت لا تقتصر فى تعريفه على الدول القائمة على سواحل المحيط الأطلسى وحسب •

ولكن حسبنا أن نقول ، ان نواة ميثاق الدفاع الأطلسى ، بذرت من الناحية العملية فى شهر مارس الماضى ، على أثر توقيع معاهدة بروكسل • ففى ١٧ مارس ألقى ترومان رسالة على مؤتمر الكونجرس قال فيها : « ان الولايات المتحدة ستتوسل بالوسائل المناسبة لتسدى الى الدول الحرة التأييد الذى يقتضيه المقام » وفى اليوم نفسه وقف مكنزى كنج رئيس وزراء كندا فى مجلس النواب الكندى فقطع عهدا « بتأييد كل حركة ترمى الى تحقيق السلامة المشتركة وانشاء المواثيق الاقليمية فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة » •

بعد ذلك عرض السناتور فاندنبرج على مجلس الشيوخ الأمريكى ، اقتراحا مؤداه أن الولايات المتحدة توافق على مبدأ اشتراكها فى نظم السلامة المشتركة الاقليمية فى نطاق ميثاق الأمم المتحدة ، فوافقت عليه لجنة الشيوخ الخارجية بالاجماع ، فى ١٩ مايو ، ثم وافق عليه مجلس الشيوخ فى ١١ يونيو ، ولم يخرج على الكثرة سوى أربعة من أعضائه •

على أن اقتراح فاندنبرج لا يمكن أن يعد عهدا حربيا مجديا ، الا اذا أفرغ فى قالب معاهدة لا تقتصر نصوصها على المبدأ ، ولكن اقراره أتاح للمراقبين الأمريكيين أن يحضروا اجتماعات اللجنة الحربية التى أنشئت وفقا لميثاق بروكسل ، ولممثلى الحكومة الأمريكية أن يشتركوا فى المباحثات التى دارت فى وشنطن

فى الصيف الماضى مع ممثلى كندا والاتحاد الأوربى الغربى كما تقدم ، ولدول الاتحاد الأوربى الغربى أن تمضى قدما فى وضع مشروع يتخذ أساسا للمباحثات الدائرة فى وشنطن اليوم • واذن فقد أرسيت الدعائم على جانبى المحيط الأطلسى ، وعلى الدول السبع أن تبنى القنطرة التى تصل بينها فوق المحيط •

هذه هى الخطوات التى مهدت للميثاق المرتقب ، فما هى الحقائق الحربية التى تجعله أمرا لا مفر منه وتكفل نفعه اذا قضى الأمر ووقع الصدام ؟

أثبتت الأيام التى انقضت منذ أن وضعت الحرب أوزارها فى أوربا ، أن العالم قد شطر كتلتين — كتلة تأتم بروسيا ، وكتلة تلتف من حول الولايات المتحدة ، ودول أوربا الغربية • وبين الفريقين جماعة من الدول لا تزال تميل الى الحياد — الآن على الأقل •

والكتلة الأولى تحتل رقعة ، هى أضخم رقعة واحدة من اليابسة على سطح الأرض ، قلبها مستقر فى أواسط آسيا وجناحاها يمتدان الى أواسط أوربا من الغرب ، والى الصين من الشرق • فهذه الكتلة من الدول هى بحكم طبيعة أرضها وموقعها وعدد سكانها أكبر قوة برية فى العالم اليوم • وأما الكتلة الأخرى فهى جماعة من الدول تعد الولايات المتحدة وكندا ودول الاتحاد الأوربى الغربى عمادها الأول • وهى تضم شعوبا بلغت من الثقافة والحذق الصناعى والقدرة الصناعية أعظم مبلغ ، وتملك عنان أكبر قوة بحرية وجوية فى العالم اليوم •

وقد يلوح أن قيام المحيط الأطلسى بين فئتى هذه الكتلة

فى أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، باعث من بواعث الضعف . والحق أنه باعث من بواعث الضعف والقوة فى آن واحد . فوقوع المحيط بينهما يجعل امداد الفئة الأوربية بالعون الأمريكى ، عملا شاقا ولكنه فى الوقت نفسه يقيم حاجزا عريضا يتعذر على القوة البرية أن تتخطاه اليوم ، أو فى المستقبل القريب فيتيح للفئة الأمريكية أن تظل مصنعا ضخما تستند اليه أوربا الغربية فى دفاعها .

بيد أن تقدم أسباب المواصلات الحديثة ، وازدياد سرعة الطائرات والصواريخ ، قد جعلا أمريكا الشمالية اليوم ، بالقياس الى أوربا ، كما كانت الجزائر البريطانية بالقياس الى أوربا قبل اختراع الطائرات . فهذا التقدم قد جعل بريطانيا جزءا من القارة وجعل أمريكا جارة غير بعيدة عنها .

واذا نظرت الى الخريطة ، رأيت الكتلة الأرضية التى تشغلها روسيا وأتباعها ، تحف بها على مقربة من السواحل أرض غير تابعة لها ، تسكنها شعوب ، هى أدنى فى نهج حياتها وصلاتها التاريخية الى الكتلة الغربية وان لم تكن منها . فاذا تم للقوة البرية المتفوقة أن تبسط سلطانها على هذه الأرض — أى اذا تم لروسيا ، أن تبسط سلطانها على كل آسيا وأوربا أتيحت لها على الزمن فرصة لتصير قوة جوية وبحرية متفوقة ، فيومئذ تصير سلامة أمريكا الشمالية عرضة لخطر حقيقى لا يحميها منه محيطان متراميان . وقد خاضت الولايات المتحدة الحرب الأخيرة لكى تحول دون وقوع أوربا تحت سيطرة دولة واحدة ودون وقوع آسيا تحت سيطرة دولة أخرى . أما اليوم فمن البين أن الغرض من مشروع

مارشال ، وميثاق الدفاع الأطلسى ، هو الحيلولة دون وقوع أوربا وآسيا تحت سيطرة دولة واحدة خليقة أن تهدد أمريكا فى المستقبل •

فهذا التقدير الحربى يبين كيف مالت الولايات المتحدة الى مبدأ الميثاق الأطلسى ، على ما فيه من انحراف عن السياسة التى كانت تؤثرها زمن السلام ، ويعلل ما يعلقه بعض الكتاب الحربيين من شأن عظيم على انضمام دول أوربية أخرى الى هذا الميثاق •

ماقيمة الميثاق

طرحت نصوص الميثاق الأطلسى ، على بساط البحث ليبدى كل ذى رأى رأيه فيها • وسوف تحفل الصحف والمنابر العامة والمجالس النيابية بأقوال أنصاره ومعارضيه • وهذه العلانية فى بحث الميثاق قبل توقيعه ، ثم بعد توقيعه وقبل ابرامه ، صفة أصيلة من صفات الحياة النيابية ، لن تجد لها شبيها فى الأمم التى أخذت زمامها يد حاكم بأمره ، أو حزب فرد حاكم بأمره •

وسوف تتكشف الأيام المقبلة عن آراء متباينة فى ضرورة الميثاق وقيمته • فالمستر جون فوستر دليس ، يرى أن القرار الذى يتخذه الشعب الأمريكى فى موضوع الميثاق ، هو أخطر قرار فى سياسته الخارجية ، منذ أن نشر الرئيس مونرو مذهبه المعروف باسمه فى أوائل القرن التاسع عشر • أما الشيخ فاندنبرج ، فيرى على خلاف ما يرى دليس « ان ليس فى الميثاق تبعة ما لن تجد نواتها مكتوبة فى ميثاق الأمم المتحدة » • وكلاهما من أقطاب الجمهوريين وخبير كبير فى الشئون الخارجية •

وبين رجال الكونجرس الأمريكى ، فئة قليلة ترى أنه اذا نص

الميثاق على التزام خوض الحرب ، عند وقوع هجوم على غرب أوربا ، فالميثاق مناقض للدستور الأمريكى ، وانه ان لم ينص على هذا الالتزام ، فلا قيمة له • ثم هناك جماعة توافق على مبدأ الميثاق ، ولكنها تأبى أن تتقيد بالموافقة على ارصاد المال اللازم له ، أو بالموافقة دون فحص دقيق مفصل للمبالغ المطلوبة ، فقد صرح الشيخ تافت بأنه سوف يؤيد الميثاق ، ولكنه ينوى أن يمتنع عن الموافقة على ارسال السلاح الى الدول الأوربية لأنه يرى أن الاقدام على ذلك زمن السلام ، عمل قد يعده الروس استفزازا صريحا •

وكما يختلف أهل الرأى فى الولايات المتحدة ، يختلف أيضا رأى الدول التى دعيت للانضمام اليه • ففرنسا التى بلت الاحتلال النازى ، يهمها فى المقام الأول ، أن يكون الميثاق حائلا دون أن تبلى مرة أخرى باحتلال سوفيتى فهى لذلك تريد الميثاق وسيلة للدفاع لا وسيلة لتحريرها من احتلال جديد • وقد رضيت به النرويج ولكنها تأبى أن تتخذ دول الميثاق فى أرضها قواعد حربية فى زمن السلم ، حتى لا تستفز روسيا •

وعلى الرغم من تباين الرأى فى نواحى الميثاق تدل الدلائل جميعا على أن مجلس الشيوخ الأمريكى ، سيبرمه بأكثرية الثلثين التى ينص عليها الدستور ، وعلى أن المجالس النيابية فى كندا والدول الأوربية المنتظمة فيه ، سوف تبرمه أيضا •

وأكبر الظن أن قيمة الميثاق الحقيقية فى الفترة الأولى اللاحقة لابرامه انما هى قيمة مغزاه ، وهذا المغزى ينطوى فى أن الولايات المتحدة الأمريكية ، قد حزمت أمرها على نبذ العزلة والحياد ، وانها تعد نفسها من الناحيتين الأدبية والقانونية دولة يعنيها

كل شيء يهدد سلامة المنطقة التي يشملها الميثاق ، أى منطقة الجزء الشمالي من المحيط الأطلسي ، الواقعة الى الشمال من خط السرطان •

وهذا المعنى شيء جديد في السياسة الدولية • ففى سنة ١٩٣٩ نظر هتلر فيما بين يديه من خطط لتحقيق مآربه ونظر الى الولايات المتحدة ، فرأى أولا أن قواتها المسلحة لا تمكنها وان أرادت من أن تقف عقبة فى طريقه ، وان حالتها النفسية كانت أدنى الى الامتناع عن التدخل فى شئون العالم ، وأن قانون الحياد الذى سنته فى ١٩٣٥ و ١٩٣٩ يمنعها من التدخل ، دون تعديله •

فكأن هذه العوامل الثلاثة اجتمعت على كلمة « الحياد » وكأن هذه الكلمة قالت لهتلر اذا نشبت حرب فى أوربا فالولايات المتحدة ملتزمة حيادها ، فلذلك كان فى وسع هتلر يومئذ أن يقدم على شن الحرب ، وهو مطمئن الى أن الولايات المتحدة لن تناصبه عدوانا تخشى عاقبته ، فى خلال فترة ، ظنها يومئذ كافية لكى ينال الظفر الذى يريد • وقد فعل ، ولكنه أخطأ الحساب فى بعض النواحى ، التى جرت عليه الوبال فى آخر الأمر •

وقد مضت عشر سنوات على ذلك • وها هو ذا ميثاق الدفاع الأطلسي ، يقول لستالين ، أو لمن يحل محله ، ان موقف الولايات المتحدة بعد ابرام الميثاق فى ١٩٤٩ ، يختلف عن موقفها فى ١٩٣٩ ، كاختلاف النقيض عن النقيض ، لأن هذا الميثاق لا يقول ، ان الولايات المتحدة ستلتزم الحياد ، بل يقول ، انها تعد سلامة جماعة الأطلسي جزءا من سلامتها ، فكل اقدام على تهديد هذه السلامة تعده تهديدا لسلامتها هى ، وكل هجوم على هذه الجماعة من الدول أو أحد أعضائها تعده هجوما عليها •

فهذه هى قيمة الميثاق الآن . ان نصوصه تحدد طرقا تتخذ اذا وقع هجوم مسلح ، فهو ميثاق دفاع ، ولكن غرضه الأول هو أن يحول دون وقوع هذا الهجوم ، وأن يحذر من تحدثه نفسه بشنه ، من الاقدام عليه ، وأن يبدد الوهم بأن الولايات المتحدة سوف تقف موقف المتفرج من قوة تحاول أن تدمر أمما ونظما تعدها عزيزة عليها ، ولا غنى عنها لسلامتها ، ومن هنا العبارة التى وردت فى خطبة الرياسة التى ألقاها ترومان يوم تنصيبه فى ٢٠ يناير الماضى قال : اذا استطعنا أن نوضح توضيحا لا يقبل الشك ، ان أى هجوم مسلح يعرض سلامتنا القومية للخطر سوف يقابل بقوة غلابة ، فمن المحتمل أن لا يشن ذلك الهجوم .

أو هذا على الأقل هو المبدأ الذى قامت عليه فلسفة الميثاق . فاذا نظرت اليه هذه النظرة رأيت وجوه التباين فى الرأى التى تقدم ذكرها ، قد صارت فى المقام الثانى .

طبعا ينص الميثاق على انشاء لجنة لأركان حرب ، مهمتها أن تضع خطط الدفاع ، لمنطقة شمال المحيط الأطلسى كلها ، وأن تعين منزلة كل دولة وتبعتها فى هذه الخطة العامة ، وعلى اقامة نظام للمشاورة اذا نشأت حالة تهدد الأمن وبذل العون الاقتصادى والحربى للدول الأعضاء ، ولكن هذه التفاصيل جميعا ، على خطرها ، ليست سوى وسائل لتحقيق الغرض الأول ، وهو الحيلولة دون قيام الحالة التى تقتضى الالتجاء الى هذه الوسائل ، وسر الحيلولة ، فى نظر واضعى الميثاق ، هو أن الولايات المتحدة قد عزمت أن تقف فى سنة ١٩٤٩ وما يليها ، موقفا يختلف عن موقفها فى سنة ١٩٣٩ كاختلاف النقيض عن النقيض .

الجماعة الأطلسية

نظر علماء الجغرافية الطبيعية فى سطح الأرض ، فقسموه وفقا للخواص الجغرافيــة الطبيعية فجعلوه قارات ومحيطات وبحارا ، ثم قسموا القارات فجعلوها سهولا ونجودا وصحارى وأحواض أنهــار كبيرة ومناطق جبــال • ونظر علماء الجغرافية السياسية والانسانية والاقتصادية فى أهل الأرض وشعوبهم ودولهم ونواحى نشاطهم الزراعى والصناعى والتجارى ، فجعلوها دولا ذات سيادة أو مناطق تابعــة لتلك الدول ، أو جماعات متآخيــة من الدول ، أو أجناسا توثق بينهــا أواصر الملامح وقربى الدم ، أو كتلا من الدول تربط بينهــا مصالح التكامل الاقتصــادى أو التقاليــد العريقة أو النظم السياسية أو الدين أو ضرورات الدفاع • والأمثلة على ذلك كثيرة تتجلى فى عبارات جغرافية تجرى على أقلام الكتاب وألسنة الساسة كل يوم : حوض الدانوب ، وادى النيل ، الشرق الأدنى ، الشرق الأوسط ، جماعة الشعوب الصقلبية ، منطقة الأمم السكنديناوية ، الكومونولث الذى ظللنــا نصفه بالكومونولث البريطانى الى عهد قريب ، أمريكا اللاتينية وهكذا •

ولكنك لن تجــد فى الكتب الجغرافيــة المتداولة ، أو معاجم الساسة والصحفيين ، عبــارة « الجماعة الأطلسية » ، فهى عبارة جديدة تصف جماعة صار لهــا شبه كيان عالمى • وقد ينكر علماء الجغرافية الطبيعية أو الانسانية أو الاقتصادية أن لهــذه الجماعة وجــودا فى عرفهم • فالمحيط الأطلسى المترامى يفرق بعضــها عن البعض الآخر ، ومنهــا دول ذات نظــام جمهورى وهى الكثرة ،

وأخرى ذات نظام ملكى ، بعضها لاتينى وبعضها انجلوسكسونى وبعضها خليط ، فيهـا الدول التى أكثر شعبها من أتباع المذهب الكاثوليكى ، وفيها الدول التى يغلب عليها أتباع شيع نصرانية أخرى . بينها فروق فى مذاهب الاجتماع من اشتراكى الى رأسمالى ، وقد كانت حتى عهد قريب تنافس بعضها بعضا فى أسواق العالم ، وقد نشبت بينها فى القرون الأخيرة حروب دامية مدمرة تركت من البغضاء فى النفوس جراحا لا يزال بعضها داميا .

بيد أن عبـارة « الجماعة الأطلسية » غدت وصـفا لحقيقة سياسية دولية ، تنطوى تحت الضرورات التى فرضتها جميع هذه الفوارق — أو هكذا يرجو أصحابها أن تصير . وقد اقتضت قيامها أحوال العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، ولاسيما بعد أن خاب الأمل فى قيام عالم واحد ، وانشطر العالم شطرين ، فدارت بينهما رحى الحرب الباردة .

وفكرة قيام « الجماعة الأطلسية » ليست بالفكرة الجـديدة الطارئة . فقد دعا اليهـا أولا فيما نعلم رجل أمريكى كان يقيم فى جنيف ، هو كلارنس سترايت ، وألف فى ذلك كتـابا عنوانه « الوحدة الآن » ، ونشره قبيـل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وحث على تنفيذ الفكرة فى أثنـاء الحرب ، ثم استقال من عمله وأنشـأ مجلسا يجمع المال من المؤمنين بهـذه الدعوة ، وينفقـه فى الترويج لها .

ثم دعا اليهـا أو الى ما يشبهها والتر لبمان المعقب الأمريكى والمفكر السياسى المشهور فى كتاب نشره فى أواخر الحرب العالمية الثانية ، وجعل عنوانه : « الولايات المتحدة وغاياتها من الحرب » .

نعم ان لبمان لم يدع الى قيام هذه الجماعة لتتحدى الكتلة الشرقية أو لتنافسها ، بل دعا الى قيامها لتكون احدى الوحدات الكبيرة المتعاونة فى عالم واحد ، وقد فرض أن الوحدتين الأخريين هما وحدة « المدار الروسى » ووحدة « المنطقة الصينية » ، وسلم بأن « الأمم الاسلامية والهندية فى افريقية الشمالية والشرق الأوسط وجنوب آسيا سوف تؤلف فى الوقت المناسب وحدات اقليمية خاصة بها » .
ثم قال : « فالسلم بعد هذه الحرب سيكون مناطه الاحتفاظ بالتحالف بين المدار الروسى وجماعة الأطلسى ، ويتوقف قيام حرب عالمية ثالثة أو عدم قيامها على استقرار الروسيين فى مدارهم ، ودول الأطلسى فى مدارها وعلى توحيد السياستين فى الجانبين حيال ألمانيا واليابان » .

ولكن الأمور بعد الحرب لم تسر على المنوال المتوقع ، فتألفت « الجماعة الأطلسية » بحكم الضرورة ، من دول تقل عددا عن الدول التى دعا لبمان الى انتظامها فيها ، ولغرضين أقربهما قيام كتلة تستطيع بالتعاون أن تدافع عن نفسها ان وقع اعتداء ، وأبعدهما الآن أن تتعاون مع الوحدة الروسية التى ابتلعت الصين — ان حدث فى النفوس تغيير يجعل التعاون مستطاعا .

والدول التى تنتظمها هذه الجماعة هى أعضاء فى جماعة التعاون الاقتصادى الأوربى ، أو ميثاق الدفاع الأطلسى أو فيهما كليهما . ومجموع أهلها يبلغ أربعمئة مليون نفس أو أكثر قليلا ، وهى على الأكثر دول صناعية يستمتع سكانها بمستوى عال للحياة وان تفاوتت مراتب ارتفاعه ، ولها قدرة كبيرة على الانتاج . نعم ان المحيط الأطلسى يفصل بعضها عن البعض الآخر ، ولكن البحار

والأجواء قد ذللت عقباتهـا ، فالدول الصناعية التى تملك السفن والطائرات تجد فى البحر المترامى والفضاء الواسع طريقا معبدا لا فاصلا منيعا . نعم ان نظم الحكم فيهـا تختلف من الملكى الى الجمهورى ، ولكنها تصدر جميعا فى نظرتها السياسية عن فلسفة واحدة هى حقوق الانسان ومشيئة الشعب ، وقد تقصر هذه الدول جميعـا عن تحقيق المثـل الأعلى فى هاتين الناحيتين ، ولكنها مع تقصيرها لا تنفك مستمسكة بهما . نعم هى تختلف لغة ، فأهلها يتكلمون عشر لغات أو أكثر ، ولكن يغلب عليها أنها جميعا ترجع أصول ثقافتها الى ارث ثقافى ذى ثلاثة أصول أولهـا فى اليونان وثانيها فى المسيحية وثالثها فى نهضة القرون الوسطى التى تأثرت بالثقافة العربية ولاسيما فى العلوم ، التى مهـدت للنهضة العلمية الصناعية الحديثة . وأخيرا هى دول جمع بينها ريب مشترك فى نية روسيا السوفيتية وخطتها ، ورغبة مشتركة فى التعاون على حسن الحال والدفاع عن النفس .

وقد شهد شهر ابريل ومايو مؤتمرات متلاحقة عقـدها ممثلو هذه الجماعة فى لاهاى وباريس ولنـدن ليعالجوا المشكلات التى يواجهونها أو ليمهدوا لمعالجتهـا ، فاذا ألقيت نظرة مستشرفة على البيانات الرسمية التى صدرت ، والأنباء والتعقيبات التى نشرتها الصحف وحملتها وكالات الأنباء ، تبينت أن هذه المشكلات وان اشتركت وتشابكت ، ففى وسعك أن تبوبها تيسيرا لبحثها ، فاذا هى المشكلات الخاصة بمستقبل الاقتصاد الأوربى ، والمشكلات الخاصة بالدفاع الغربى ، والمشكلات الخاصة بمقاومة التيار الشيوعى فى سائر أنحاء العالم وفى طليعتها الآن جنوب آسيا الشرقى وما يجرى مجراه .

المانيا والدفاع الغربى

ليس ثمة ريب فى أن شعوب العالم ينهشها اليوم خوف خاتل من نوائب حرب عالمية ثالثة • وليس ثمة ريب أيضا فى أن روسيا ازدادت جرأة فى امتحان عود الدول الغربية ، بعد أن مال اليها ميزان الحرب الباردة • ولكن تشرشل الذى لا يلقى الكلام على عواهنه ولا يدس رأسه فى الرمل كالنعامة ، كما يقولون ، ألقى خطبة منذ ستة أسابيع أو نحوها فى مجلس النواب البريطانى ، فقال فيها : ليست الحرب شيئا وشيكا ، ولا هى شىء لا مفر منه •

ويغلب أن تشرشل ليس الرجل الوحيد بين أقطاب الغرب الذى يرى هذا الرأى • فقد عقد رؤساء أركان الحرب فى ميثاق الدفاع الأطلسى مؤتمرا عسكريا فى لاهاى ، فى اليوم الرابع من أبريل الماضى ، وهو العيد الأول لتوقيع الميثاق ، وليس من عادة العسكريين أن يعلنوا ما اتخذوه من قرار ، ولكن المقربين منهم والمطلعين على اتجاه فكرهم ، رووا أن البحث فى هذا المؤتمر دار على خمسة موضوعات أو ستة موضوعات ، قدمت على غيرها •

وفى طليعتها أن الزمن الذى يستغرقه انشاء قوة دفاع لا بأس بها ، فى الغرب ، قد يكون أربع سنوات أو خمسا ، وانه لا مفر لدول ميثاق الدفاع الأطلسى من أن تواجه ضرورة الفصل فى انشاء قوة حربية ألمانية تكون ركنا من أركان هذا الدفاع ، أو الحيلولة دون انشائها •

والرأى الأول — أن صدق ما روى عنه — دليل على أن رجال مؤتمر لاهاى يميلون الى الرأى الذى أعرب عنه تشرشل من أن

الحرب ليست شيئا وشيكا ، لأن من يرى الحرب وشيكة لا يبنى خطته على قوة دفاع يستغرق انشاؤها أربع سنوات أو خمس سنوات •

بيد أن الزمن ليس حليفا الا لمن ينتفع به • فلذلك كان البت فى تسليح ألمانيا حتى تشارك فى الدفاع عن الغرب ، أو الامتناع عن تسليحها ، شيئا لا يستطاع ارجاؤه زمنا طويلا • وليس البت بالشىء الهين فللرأيين كليهما مزايا ومساوىء ، لابد من وزنها بميزان دقيق ، ولكنه أمر لا مفر منه ، وخيره عاجله ، لأن اتخاذ الأصول للخطط الغربية رهن به •

وأول اعتراض على تسليح ألمانيا هو الريبة التى لا تزال تساور بعضهم فى قدرة الغرب أن يعتمد عليها • وقد قال أحد رجال السياسة : كيف نستطيع أن نطمئن ، اذا نشبت حرب مع روسيا ، الى أن ألمانيا الغربية لا تعمد الى محالفة الروس ، فى المراحل الأولى على الأقل ، عسى أن يوقيها ذلك ويلات القتال فى أرضها اذا ما اندفع الروس الى السواحل الغربية •

على أن هذا الريب لا يساور جميع النفوس • فالذين يرون الآن ، أن الحرب مع روسيا شىء لا مفر منه ، وان لم يكن وشيكا ، لا يترددون فى الموافقة على ضرورة تسليح ألمانيا ، وعلى المبادرة الى ذلك ، لأن التسليح ليس كلمة تقال ، فاذا القوة الحربية بين يديك ، بل يحتاج الى تنظيم الانتاج الصناعى وتنسيقه مع ما يقابله أو يكمله فى سائر أوربا الغربية ، كما يحتاج الى انشاء جيش وتدريبه •

وليس بين هؤلاء — على مايروى المراسلون الثقات — من يزعم أن القوات الغربية تستطيع أن تصد الجيوش الروسية وأحلافها ،

بغير معونة عدد غير يسير من الفرق الألمانية • وعند بعض الخبراء الحربيين أن التوفيق فى تنفيذ الخطط الموضوعة لصد الروس عند نهر الالب أو نهر الراين ، يتعذر بغير عشرين فرقة ألمانية الى ثلاثين فرقة ، تضم الى القوات الغربية •

بيد أن هذا الرأى ، يثير مشكلة أخرى تتصل بمبادىء الحرب الحديثة ، كما كشف عنها القتال فى الحرب العالمية الثانية ، وهى الشك فى القدرة على الدفاع عن أى خط أنشىء للدفاع وحسب ، سواء أكان نهرا كنهر الراين ، أم خط حصون كخط ماجينو أو خط زيجفريد ، فقد أثبتت القوات المتفوقة فى الجانبين ، أن هذه الخطوط لا تعدو أن تكون عوائق وحسب ، فعل الألمان ذلك فى أيام تفوقهم فى أوائل الحرب ، وفعله الروس فى الشرق والحلفاء فى الغرب فى أواخرها يوم كانوا متفوقين •

ثم هناك مشكلة ثالثة ، هى أدنى الى التقدير السياسى منها الى التقدير الحربى ولبابها أن تسليح ألمانيا ، قد يفضى الى تعزيز قوة الأحزاب الشيوعية والأحزاب المحايدة فى دول الغرب ، وبخاصة فى فرنسا •

وخوف فرنسا من نهوض ألمانيا العسكرية مرة أخرى ، خوف متأصل فى تاريخها ونفس أهلها ، فاذا تغاضى عنه العسكريون ، فى لهفتهم على انشاء قوة دفاع وافية ، أتاحوا فرصة للحزب الشيوعى الفرنسى ، لا يشك أحد فى أن الحزب يحسن الانتفاع بها لبذر بذور التمرد فى القوات الفرنسية المسلحة • وقد شهدت فرنسا فى أوائل الحرب العالمية الثانية جماعة من دعاة ألمانيا فيها تبذر مثل هذه البذور ، مع أن عددها ونظامها ، كانا أقل كثيرا من الحزب

الشيوعى الفرنسى وأتباعه اليوم . نعم ان التاريخ لا يعيـد نفسه دائما ، ولكن الأحوال التى يخلق بالتاريخ أن يعيد نفسه فيها متماثلة فى الحالين ، ولا ريب فى قيامها اليوم .

ومن وراء هذا كله ، سؤال يمتد الى الأصول : كيف ينوى رجال الغرب أن يحدوا من التوسع السوفيتى ؟ فان مال الرأى الى تحقيق ذلك بالوسائل السياسية ، دون الحرب ، فالمنطق يقضى بأن ينصرف معظم جهدهم الى توحيد أوربا وأنصارها وراء المحيط ، فى كتلة تستطيع أن تصد الزحف الشيوعى . فاذا أقحم على هذا الاتجاه موضوع تسليح ألمانيا ، كانت عاقبته النكوص عن التقدم الذى تم فى سبيل هذا التوحيد . أما اذا مال الرأى الى أن الحرب لا مفر منها ، فعليهم أن يقنعوا فرنسا وغيرها من دول أوربا الغربية بأن تسليح ألمانيا شىء لا غنى عنه — وهو مهمة شاقة .

ويلوح الآن أن رجال الغرب لم يغلبوا رأيا على رأى تغليبا حاسما ، فهم يعززون قوتهم الحربية تعزيزا ، لا يزال حتى الآن وئيدا ، وهم يسيرون فى سبيل التوحيد السياسى والاقتصادى ، برغم العقبات . ومن هنا تجد أن اقتراح بيدو بانشاء مجلس أعلى لجماعة الأطلس له شأن عظيم . فهذا المجلس توكل اليه مهمة تنسيق الخطط السياسية والاقتصادية والحربية للجماعة الغربية ، وغرضه أن يعالج أثر مشروعات الدفاع فى اقتصاد الدول الأعضاء بعد أن ينتهى أجل مشروع مارشال ، وأن ييسر توثيق الصلة بين الجماعة الغربية وألمانيا الغربية ، توثيقا مطردا دون أن تقتصر هذه الصلة على الاستعانة بألمانيا فى شئون الدفاع ، وأن يمهد لبقاء الولايات المتحدة عضوا دائما فى الجماعة الغربية ، تمدها بنواح من قدرتها ،

وتوازن بوجودها فيها قيام ألمانيا ان استقر الرأى على ضرورة تسليحها فى حدود أو بغير حدود .

أعباء الدفاع والاقتصاد

منذ سنة أو نحوها ، بدأ هوفمان مدير مشروع مارشال يدعو دول المشروع الى توحيد اقتصادها . فالمشروع فى نظره قد حقق غرضه الأول فى مرحلته الأولى ، وهو النهوض بالانتاج الأوربى فى ميدانى الصناعة والزراعة ، فالتوحيد الاقتصادى والتنسيق ينبغى أن يكونا شعار المشروع فى مرحلته الثانيـة ، حتى تزول العوامل التى تبقى التبادل بين دول المشروع مصفدا بالاغلال ، وحتى يصبح اقتصادها اقتصاد رقعة كبيرة غنية أجزاؤها متكاملة لا متنافسة ، فيتدرج نموا وسعة ، ويصير أقدر على المنافسة فى الأسواق العالمية ، وتغدو شعوبها أوسع أملا وأعز .

والى هذا قصدت ، يوم كتبت فى هذا الباب مقال « مشروع مارشال فى مرحلته الثانية » (صفحة ٢٧٨ من هذا الكتاب) فقلت فيه :

« لو لم يؤت المشروع ثمره فى مرحلته الأولى لما كان ثمة مرحلة ثانيـة يدور البحث من حولهـا ... كان تقدم زيادة الانتاج على السعى لادراك الوحدة ، شيئا لا مفر منه فى المرحلة الأولى ، ولو قدم السعى الى الوحدة على زيادة الانتاج لكان الأمر فوضى . فالناس فى حاجة الى العمل والقوت والكساء والمأوى ، فارهاقهم باتخاذ قرارات سياسية خطـيرة تقتضى منهم تبديلا فى العادات المألوفة فى التجارة ، والآراء المتبعة فى السياسة ، والتقاليد المرعية فى منهج الحياة ، عمل يرهقهم ، وقد كان اتخاذها شاقا ان لم يكن

مستحيلا ، فى أمم يوهنها الضعف الاقتصادى ، ويفرق بينها ، أو بين طبقات الأمة الواحدة منها ، دعوة الدعاة الذين يجدون الضعف الاقتصادى والاجماعى مرتعا لهم » .

فلما ظن هوفمان أن طريق الوحدة قد مهد بزيادة الانتاج ، دعا اليها ، ولكن دعوته لم تلق فى النفوس يومئذ صدى كان يتوقعه . فكلمة الوحدة أو الاندماج (Intégration) لها رنة ووقع ولكن رجال السياسة فى أوربا رأوها بعيدة عن حقيقة الحال . فقد مضت قرون على أوربا الغربية ، والسمة الغالبة على حياتها هى العداء المستحكم بين ألمانيا وفرنسا ، وقد قام نظامها الاقتصادى ونما وتشعب متأثرا به . فلما دعا هوفمان الى توحيد اقتصاد الدول الأوربية الغربية ، قال ساستها ليس الى ذلك سبيل ان لم تعالج أولا أسباب الحروب بين الأوربيين أنفسهم ثم بعد ذلك قد يشرق نور الأمل .

فلذلك كان اقتراح شومان بأن ينشأ مجلس دولى أعلى للاشراف على صناعتى الصلب والفحم فى ألمانيا وفرنسا ، وأن تضم اليه كل دولة أوربية ترتضيه ، خطوة عسى أن تكون تاريخية حقا . ومجال القول فى هذا الاقتراح ذو سعة ، من نواحيه السياسية والاقتصادية ، ولكن الذين يتوسمون خيرا فيه ، وهم كثر ، يرون أنه اذا حقق على وجهه الأوفى مهد للقضاء على فوارق اقتصادية كانت فى طليعة الأسباب التى أفضت الى نشوب ثلاث حروب بين فرنسا وألمانيا فى بحر سبعين سنة ، والى عودة ألمانيا الى جماعة الأمم ندا بين أنداد ، والى بدء التوحيد الحقيقى فى اقتصاد الدول الأوربية الغربية ، والى تعزيز قدرة أوربا الغربية

على النهوض بنصيبها فى هذا النزاع العالمى .

وتحقيق مشروع شومان ، يقيم لألمانيا وفرنسا ، مصلحة عظيمة تقضى رعايتها بضرورة الوحدة الاقتصادية . فلن يتاح لأحد أن ينشىء وحدة أوربية غربية ، باصدار قرار وحسب ، بل بالعمل على تحقيق « فكرة موحّدة » . و « الفكرة الموحدة » التى أسفرت عنها أحوال العالم بعد الحرب ، هى أن الرخاء والسلام لا يتجزآن . فمشروع شومان قائم على انشاء مصلحة مشتركة ، فاذا هى الخطوة التى تمهد للوحدة ، أو تكون هى نفسها نواة الوحدة .

بيد أن الاقتصاد نفسه لن يمضى فى طريق النهوض ان لم تحس الشعوب بقسط من الطمأنينة على سلامتها وحسن قدرتها على الدفاع . وقد كانت خطة الغرب فى الحرب الباردة ترمى الى غرضين ، النهوض باقتصاد أوربا وتعزيز قدرتها على الدفاع وكلاهما يستغرق مالا كثيرا ، ويستأثر بمجهود لا حد له ، وبين مطالب النهوض ومطالب الدفاع ، شىء من التناقض أو المنافسة . فكيف تستطيع أوربا أن تنهض بالتزامات الدفاع التى ألقيت اليها بمقتضى ميثاق الدفاع الأطلسى ، دون أن ترهق اقتصادها الناهض وتحد من نطاق المنافع الاجتماعية ؟

وتأمين الدفاع الغربى مشكلة ضخمة وعبء باهظ . فاذا أريد أن تجعل أوربا الغربية منيعة وجب فى أغلب الرأى ، أن ينظم دفاعها وراء خط يمتد من أسفل النرويج الى ايطاليا ، وطوله ألفا ميل أو نحوها . فالى الشرق من هذا الخط تقوم روسيا وأتباعها ، وقدرتها الحربية على ما يروى كبيرة وليس فى المنطقة الواقعة الى

الغرب من هذا الخط قوة حربية تستطيع اليوم أو فى المستقبل القريب ، أن تصد اعتداء قد تهب ريحه من الشرق • وقد ظل الأوربيون فترة ما يستشعرون الطمأنينة يوم كانت الولايات المتحدة تستأثر بالقنبلة الذرية ، وكان جيشها الصغير فى منطقة احتلالها بألمانيا الغربية ، عربونا على أنها ودول أوربا الغربية فى مركب واحد •

فلما اجتمع أركان حرب الميثاق الأطلسى فى لاهاى ، فى ٤ أبريل الماضى اتفقوا على خطة عامة للدفاع الغربى ، أساسها على ما روى ، انشاء قوة للدفاع قوامها خمسون فرقة ، وما يلحق بها ويلزمها من منشآت جوية وبحرية ، على أن يتم ذلك فى سنة ١٩٥٣ ، وهى السنة التى تبلغ فيها قوة روسيا أوجها على حسب تقديرهم ورضيت الولايات المتحدة أن تشارك فى تنفيذ هذه الخطة بما يكلفها ألف مليون دولار كل سنة ، فلما عرض المشروع على حكومات الدول قال وزراء ماليتها أنهم لا يستطيعون أن يوفروا المال اللازم لذلك دون أن يجعلوا اقتصادهم الناهض عرضة للخطر أو للتعثر على الأقل • فلم يكن بد من تدبر الأمر

وقد تدبروه فى مؤتمرى لندن الأخيرين •

فى مشروع مارشال قدمت مرحلة زيادة الانتاج ، على مرحلة السعى الى وحدة الاقتصاد ولكن الثانية صارت الآن مساوية على الأقل للأولى . وفى الخطة الغربية العامة ، قدم النهوض الاقتصادى ، على السعى الحثيث لتعزيز الدفاع • فلما عقد المؤتمران فى لندن ، كانت الحاجة بادية الى العناية عناية خاصة بشئون الدفاع • فروسيا ماضية قدما فى تسلحها والفرق الكبير بين قوتها وقوة

الدول الغربية الآن ، وكما يحتمل أن تكون فى سنة ١٩٥٣ قضى على الدول الغربية بأن ترفع العناية بالدفاع الى المقال الأول ، أو أن تسوى بينها وبين العناية بالنهوض الاقتصادى على الأقل . فتشابكت بذلك أعباء الدفاع والاقتصاد حتى صارت وكأنها شيء واحد ، ينظر اليها وزراء الخارجية والدفاع ، فيرون تقديم ما يحتاجون اليه لتعزيز ايديهم فى الحرب الباردة والتأهب للدفاع وينظر اليها وزراء المالية والتجارة والخدمات الاجتماعية فيروعهم أن ينفق من الدخل القومى ما هم فى حاجة اليه لتوفير سلع الاستهلاك وضمان التأمين الاجتماعى وما أشبه .

والجماعة الأطلسية دول مستقلة ، فعلى كل منها أن توفق فى داخلها بين مطالب هذا الفريق ومطالب ذلك ، وعليها جميعا أن توزع فيما بينها الأعباء الخاصة بالأمن والدفاع وفقا للخطة العامة التى ترتضيها ، ومن هنا كان انشاء اللجنة التى تتولى هذا العمل قرارا خطيرا وقد يكون تاريخيا ، فهى على ما وصفت « قيادة عامة » فى زمن السلم . وانشاء القيادة ليس كفيلا بحسن القيادة ، ولكنه خطوة لابد منها والأشهر المقبلة وحدها تستطيع أن تنبيء بقيمتها أو عقمها .

قوة مشتركة متوازنة

هذه عبارة جديدة اقتحمت معجم السياسة والصحافة فى هذا العهد ، فهى تأخذ من « القوة الحربية المتوازنة » صفة التوازن بين الأسلحة الثلاثة — الجيش والأسطول وسلاح الطيران ، وتأخذ من « السلامة المشتركة » صفة الاشتراك بين جماعة من الدول ،

تعد الاعتداء على احداها اعتداء عليها جميعا ، فاذا قدر لهذه العبارة أن تصير اسما على مسمى ، نزلت فى التاريخ علما على حدث من أخطر أحداث السلام فى النصف الثانى من القرن العشرين .

يؤثر عن نبوليون العبقرى الحربى قوله : « من لى بحلفاء أحاربهم » ، ومعناه واضح ، فالحلف العسكرى المؤلف من دول ذات سيادة ، عرضة لما يضعف قدرتها على القتال ، من خلاف بين القواد على مسائل الحرب الفنية ، الى خلاف بين الحكومات على شئون السياسة وما تطويه من أغراض يعسر البوح بها . وليس التمثيل على هذه الحقيقة بعسير ، لا فى الغرب ولا فى الشرق .

ولكن شبح الهزيمة ، والقتال دائر الرحى ، يؤلف أو قد يؤلف بين العناصر المتنافرة . كذلك فعل الحلفاء الغربيون فى الحرب العالمية الأولى ، بعد أربع سنوات تقريبا من الخيبة ، فأسلموا فوش قيادتهم العامة فى الميدان الغربى قبيل نهاية الحرب وحسب . وقد استخرجوا العبرة مما كان فى تلك الحرب ، فاتفقوا على قيادة عامة للميدان الأوربى قبل غزو أوربا فى يونيو من سنة ١٩٤٤ ، وكان ايزنهاور عبقرى تنسيق ، فوفق فى هذه الناحية من مهمته ، ومع ذلك تقرأ المذكرات التى كتبها هو وغيره من كبار القادة والساسة فترى أن الأمر لم يخل من وجوه خلاف قامت وراء ستار .

أفتستطيع جماعة كبيرة من الدول ذات السيادة ، أن تنشىء قيادة عامة فى زمن السلم ، وأن ترضى باندماج قوتها الحربية فى قوة حربية عامة ، فلا يكون لها عليها كل السلطان الذى هو صفة من صفات الدولة ذات السيادة ؟

هذا السؤال فى حد ذاته يبين خطر الشأن الذى يعلق بعبارة :

« قوة مشتركة متوازنة » التى جاء ذكرها فى بيـان صدر بعـد ارفضاض مؤتمر الدفاع الأطلسى •

فقد اجتمع هؤلاء الوزراء ليحاولوا أن ينشئوا فى زمن السلام « قوة مشتركة متوازنة » أجمع أهل الرأى على أن انشاءها شىء لا غنى عنـه لحفظ الكيان ان نشبت حرب عالميـة ثالثة • ولكن أسباب الهجوم قد بلغت اليوم من السرعة وقوة الأثر مبلغا لا يتيح لجماعة من الحلفاء وقتا ما لانشاء تلك القوة بعد أن يبدأ القتال ، كما فعل الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى بعد أربع سنوات ، وكما فعل الحلفاء الغربيون قبل اقدامهم على غزو « قلعة أوربا » فى الحرب العالمية الثانية •

وليس ثمة ريب فى أن الجماعة الغربية تملك موارد وافرة ، ولها قدرة عظيمة على الانتاج الصناعى ، ولأبنائها حذق لا يكاد يجارى فى أسـباب الصناعة والحرب الحديثة ولكن هـذه القوة الكبيرة ان اجتمعت هى قوة ضعيفة فى ميزان القوة العالمى لسببين : أولهما ، أنها مبعثرة فوق مساحة واسعة من سطح الأرض تمتد فى أقصاها من ساحل أمريكا على المحيط الهادىء حيث شطر كبير من صناعتها الى منطقة الرور فى ألمانيا الغربية اذا أدخلنا ألمانيـا الغربية فى الحساب • وثانيهما أن قوة كل دولة منهما منظمة على أساس قومى فدول الميثاق اثنتا عشرة دولة واحدة منها ليس لها قوة مسلحة هى اسلندا وأما البقية فلها احدى عشرة قوة مسلحة كل منها قائمة بنفسها — أى لها أحد عشر جيشا وأحد عشر أسطولا بحريا وأحد عشر سلاحا جويا فالمال الذى لابد منه للاحتفاظ بهذه القوات المتفرقة أكبر من المال الذى تحتاج اليه روسيا للاحتفاظ

بقوة واحدة تعدلها أو تفوقها .

فلما عقدت دول الميثاق مؤتمرها الأخير فى لندن كانت قد اقتنعت بأنه لا مفر لها من أن تبذل مجهودا أكبر مما بذلت حتى الآن لتعزيز دفاعها ، وهذا يقتضى ، أول وهلة ، مبلغا أكبر من المال ومن المجهود الصناعى المنصرف اليوم الى زيادة الانتاج . وكانت قد اقتنعت أيضا بأن الحكمة والضرورة تقتضيان منها ، أن تعالج عناصر قدرتها الحربية حتى تقضى على هذين العاملين اللذين يضعفانها . فأقدم المؤتمر على اقتراح جرىء ، مؤلف من ثلاثة مبادىء : أولا انشاء لجنة دائمة وصفتها الصحف بأنها « القيادة العامة » . وهى لجنة أعضاؤها يمثلون وزراء الخارجية ، وليس بينهم عسكرى واحد وان كان لها أن تنتفع بآراء الخبراء العسكريين، ولعل وصف اللجنة بأنها « مجلس ادارة » خير من وصفها بأن « قيادة عامة » ، فمهمها أن تنوب عن وزراء الخارجية ، الذين يتعذر عليهم أن يجتمعوا أكثر من مرار قليلة فى العام ، وأن تتولى تنفيذ القرارات العامة التى يتخذها الوزراء ، فتطور شئون الدفاع تطورا سريعا ، وضرورة توزيع أعباء الانفاق على شئون الدفاع ، والسهر على تنسيق الخطط الاقتصادية والحربية ، أشياء ليس فى الوسع أرجاؤها حتى يتاح لوزراء الخارجية أن يجتمعوا .

وثانيا ، أوصى وزراء الخارجية بانشاء « قوة مشتركة متوازنة » ، لأن انشاءها خير وسيلة للانتفاع أجدى انتفاع بموارد الجماعة بأقل نفقة . وقد كان رأيهم أن احتفاظ كل دولة بقوة مسلحة مؤلفة من جيش وأسطول سلاح جوى ، قد أصبح فى هذا العصر ترفا عظيم الكلفة . وقل أن تجد دولة فى يومنا هذا تستطيع

أن تنشىء قوة دفاع كافية من الأسلحة الثلاثة فى زمن السلم دون أن ترهق اقتصادها . وخير من ذلك أن تقتسم دول الميثاق « العمل » أو « الوظيفة » فتحصر كل منها عنايتها فى تلك الناحية من « وظيفة » الدفاع التى تلائم وضعها الجغرافى ومواردها وتقاليدها وما أشبه ، وتترك سائر وظائف الدفاع لغيرها من الجماعة .

وثالثا — ان الموارد المتاحة كافية لذلك التعزيز ، اذ أحسن تنسيقها فلا يخشى أن يتعرض اقتصاد الدول للخطر الذى يحاذره . أى أن التنسيق هو الشىء الذى قدم على غيره .

ولكن التنسيق متغلغل فى أصول الجزء الثانى من المقترح الثلاثى . اذ من الواضح أنه اذا كان فى الوسع اقناع فرنسا بالتخصص فى وظيفة الدفاع البرى ، وبريطانيا فى وظيفة انتاج المقاتلات والقاذفات المتوسطة والأسلحة البحرية الخفيفة ، والولايات المتحدة بالتخصص فى وظيفة القوة القاذفة البعيدة المدى والقوة البحرية الضخمة ، كان فى وسعها جميعا أن تنشىء « قوة مشتركة متوازنة » بكلفة أقل من كلفة ثلاث قوات بريطانية وفرنسية وأمريكية تعنى كل منها بأن تجمع الأسلحة الثلاثة فى أنواعها ، فلا تكاد تتفوق فى أحدها .

ولكن هذا الاتفاق لن يتم الا بعد أن ترضى الحكومات الثلاث بالنزول عن بعض سيادتها فى سبيل انشاء القوة المشتركة وادارتها ، والا بعد أن تستوثق دول — كفرنسا مثلا — من أن « القوة المشتركة المتوازنة » قائمة حقا للدفاع فالصدمة الأولى سوف تحل بها ، فهى لن تكتفى بانشاء جيش برى ولن ترضى أن تستغنى عن مقاتلات أو قاذفات أو طرادات ، الا على هذا الأساس .

وليس ثمة ريب فى أن العقبات كثيرة ، ولكن مبدأ (القوة المشتركة المتوازنة) وما قد يعقب تطبيقه من تمهيد لوحدة حقيقية ، يستهوى النفس والعقل وغريزة حفظ الكيان ويستحق التضحية بشىء من السيادة لتحقيقه ، فهو الطبعة المنقحة التى يصدرها العصر الصناعى لتلك القصة القديمة : « قصة العيدان المتفرقة والمجتمعة » .

أسبانيا فى الميزان

فى دوائر الأمم المتحدة خلاف لا يزال قائما على منزلة أسبانيا من الناحية السياسية ، ولكن لا خلاف بين أهل النظر الحربى على أصول منزلتها الحربية .

فقد أفرغت الطبيعة أسبانيا فى قالب يجعلها قاعدة حربية من الطبقة الأولى — جبال شم بينها وبين فرنسا تقوم عقبة كأداء فى وجه كل غاز من الشمال الشرقى ، وجبال كالحة فى رقعتها الفسيحة تصلح حمى لقواعد الطائرات فى سهولها ونجودها ، وساحل يسيطر من الجنوب على المدخل الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، وثغور وأجوان على المحيط الأطلسى تثوب اليها الغواصات أو السفن التى تقاوم الغواصات ، فاذا ازدادت الطرق الممهدة فيها ، وكثرت المطارات ، ووسعت المرافىء ، واستنبطت الفلزات الحربية الثمينة ، صارت أسبانيا ذات شأن لا يسهل اهماله فى خطط الدفاع الأطلسى .

ولكن نظام الحكم فى أسبانيا لم يزل يثير خلافا شديدا بين رجال السياسة . فقد استتب الحكم لفرانكو وجماعته فى أسبانيا على أثر ثورة على نظام الحكم الشرعى القائم يومئذ ، وبعد حرب أهلية

دامية • وقد استتب لهم بمعونة ايطاليا الفاشية وألمانيا النازية •
أما فرنسا وبريطانيا فقد وقفتا يومئذ موقف عدم التدخل ، وأما موسكو فأيدت الحكومة الجمهورية تأييدا جعله البعد غير مجد جدوى كبيرة ، وفى أثناء الحرب بذلت أسبانيا لألمانيا عونا غير يسير ، وأرسلت « الفيلق الأزرق » للقتال مع الجيوش الألمانية فى روسيا ، ولا تزال أرضها — على ما يروى — تضم عددا غير قليل من زعماء الفاشية الأوربية ، أما الحكم نفسه فنظامه وأسلوبه هما النظام والأسلوب المتبعان فى الدول الدكتاتورية •

فلما عقد مؤتمر بوتسدام فى سنة ١٩٤٥ اتفق أعضاؤه على اهمال دعوة اسبانيا الى الانتظام فى الأمم المتحدة ، وأصدر المؤتمر بيانا ندد فيه « بأصول الحكم القائم فى أسبانيا ، وطبيعته ومشاركته الوثيقة للدول المعتدية » ، وفى سنة ١٩٤٧ عرض موضوع أسبانيا على مجلس الأمن فأحيل الى لجنة فرعية أعضاؤها من الدول الصغيرة ، فأوصت بالاجماع بأن تفصم الدول أعضاء الأمم المتحدة صلاتها السياسية بفرانكو ، ولكن المجلس خفف توصية اللجنة الفرعية باضافة العبارة التالية : « أو باتخاذ أى عمل تراه الجمعية العمومية » فأوصت الجمعية العمومية بسحب السفراء والوزراء المفوضين من مدريد وكفى ، فلما اقترح مشروع مارشال ونفذ لم تدع أسبانيا للمشاركة فيه •

هذه هى المآخذ التى جعلت أسبانيا حتى اليوم أشبه شىء بالدولة المعزولة • ولكن سير الحرب الباردة ، وضرورات التأهب للدفاع عن أوربا ، وما لأسبانيا من المنزلة الحربية أفضت جميعها الى اعادة النظر فى كل هذا •

فالذين أرادوا الغاء توصية الجمعية العمومية وضم أسبانيا الى جماعة مشروع مارشال وكتلة الدفاع الأطلسى ، يقولون : اذا كان الحائل دون ذلك هو أن استئناف الصلات السياسية الكاملة يعنى الموافقة الأدبية على نظام الحكم القائم فى أسبانيا ، فكيف يفسر الاعتراف التام والتبادل الدبلوماسى الكامل بين دول الغرب وروسيا السوفيتية أو الأرجنتين وغيرهما ، وعلى كل حال فتبادل التمثيل السياسى لا يطوى معنى الموافقة أو الاستنكار لنظام الحكم فى دولة ما .

واذا كان الحائل هو موقف أسبانيا فى أثناء الحرب العالمية الثانية،فتشرشل نفسه صرح فى مجلس النواب البريطانى فى سنة ١٩٤٤ «لو أذعنت أسبانيا لضغط ألمانيا لما كان ثمة ريب فى ازدياد متاعبنا ، وقد كانت أسبانيا أقدر ما تكون على الحاق الأذى بنا قبيل نزول قواتنا فى شمال أفريقية الغربى » ، وفى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ : « أبت أسبانيا أن تيسر حركة الألمان للاستيلاء على جبل طارق ودخول افريقية » ويقول من عداه « ان أسبانيا على تعاونها مع ألمانيا وايطاليا فى أثناء الحرب ، لم تجعل تعاونها معهما يوما ما كمثل تعاون روسيا مع ألمانيا فقد اتصل من أغسطس ١٩٣٩ الى يونيو ١٩٤١ يوم أمر هتلر بغزو روسيا » .

وقد سئل تشرشل لم وافق فى بوتسدام على اهمال دعوة أسبانيا للانتظام فى الأمم المتحدة فقال : « انه فعل لأنه رجا أن يستدرج روسيا لتبذل للأمم المتحدة تأييدها الودى الكريم » ، واستقصى بعضهم سبب الحيلولة بينها وبين مشروع مارشال فظهر أن اقصاءها انما أريد لاغراء روسيا وتوابعها بالاشتراك فيه ،

فلم تشترك روسيا وثنت توابعها عن الاشتراك .

وفى خريف ١٩٤٨ سرت فى أروقة الأمم المتحدة بباريس شائعة بأن مارشال — وزير خارجية الولايات المتحدة — اقترح على بيفن وشومان ، أن يمهد لأسبانيا طريق الانضمام الى جماعة الدول الغربية ، وبادرت طائفة من دول أمريكا اللاتينية — وصلتها التاريخية والأدبية بأسبانيا هى ما هى — الى الترويج لهذا الرأى ، فأحدث ذلك ضجة ، وأصدر مارشال بيانا قال فيه أن حكومته غير راضية عن توصية المقاطعة ولكنها لم تبذل سعيا لتغييرها .
وكتب السنيور ده مدراياجا الدبلوماسى والأديب الأسبانى،رسالة مفتوحة الى الدول الغربية حذرها فيها من الاغترار بالمزايا الحربية التى تتيحها لها أسبانيا ، فاذا انقادت للاغترار بها فقدت ولاء كثيرين من أحرار أوربا لها . فرد عليه من قال : « فى أسبانيا اليوم قسط من الحرية أوفر مما تجده وراء الستار الحديدى » .

وقد تجدد السعى لالغاء توصية الجمعية العمومية فى مايو سنة ١٩٤٩ يوم عقدت دورة خاصة ، فلم يصب نجاحا ، ثم أعاد أنصاره الكرة فى الدورة الحالية[١] .

ذلك أن فى دوائر الغرب استغرابا أن تظل أشد الدول مقاومة للشيوعية ، فى عزلة عن الجماعة التى تخوض غمار الحرب الباردة لمقاومة الشيوعية ، وأن أسبانيا — كايطاليا على الأقل — لا غنى عنها لنجاح مشروع مارشال أو للظفر فى الحرب الباردة ، أو الحامية — ان نشبت .

بيد أن التسليم بقيمة أسبانيا الحربية ينبغى أن لا ينطوى على

(١) وافقت عليه الجمعية العمومية بعد نشر هذا المقال .

نية التقهقر عن أوربا الغربية اذا عمد السوفيت الى الهجوم ، عسى أن تحشد فى أسبانيا قوة تجليهم ، كما أجلت الألمان قوة نزلت فى نورماندى . فاذا كان ذلك ، كان كالمعول يهدم ثقة أوربا الغربية ، ويحبط سعيها للوحدة ولانشاء قوة تشترك مع القوة الأمريكية فى الدفاع ، فليس فى أوربا من يحب أن يتصور احتلالا آخر فبلاء جلاء بعد بلاء الاحتلال .

بين العزم والقدرة

حزم العزم على مقاومة العدوان شىء لا غنى عنه للأمة أو للجماعة التى تأبى الخضوع للقوة أو للتهديد بها ، ولكن حزم العزم وحده غير مجد ان لم تؤيده قوة مادية كافية تفسح أمام المقاومة أمل التوفيق ، فمن حزم أمره على الغاية ، لم يكن له مفر من أن يحزم أمره على الواسطة أيضا . وفى هذا المبدأ العام تستقر مشكلة الدفاع الغربى اليوم .

أغلب الرأى أن الدول الغربية قد حزمت عزمها على مقاومة العدوان الشيوعى حتى لا تنحدر رويدا رويدا فى طريق التسليم ، ولو شاءت أن تهادنه لما وجدت حادثا خيرا من حادث كوريا تهادنه فيه — أرضها بعيدة ، ومنزلتها الحربية فى صراع عالمى ليست بذات خطر عظيم ، والدفاع عنها فيه شىء متعذر ، ومحاربة فريق من شعبها عرضة لتأويلات شتى تحنق الشعوب الأسيوية ، والقوات المتاحة قليلة ، وحشدها فى الميدان البعيد يكشف أماكن أخرى لا غنى عن حمايتها .

ولكن بين عزمها وقدرتها البادية بون شاسع .

بسط تشرشل فى مجلس النواب البريطانى ما يعرفه عن القوة السوفيتية المسلحة بالقياس الى قوة الوحدة العربية — أو الضعف الغربى : ١٧٥ فرقة سوفيتية مقابل ١٢ فرقة و ٤٠٠٠٠ دبابة مقابل بضع مئات ، و ١٩٠٠٠ طائرة مقابل بضعة ألوف وأسطول غواصات أقوى من أسطول الغواصات فى عهد هتلر ، مقابل قوة بحرية لم تزل تخفض منذ نهاية الحرب . فهو يرى أن تأهب دول الوحدة الغربية للذود عن نفسها اذا قيس بالقوة السوفيتية ، كان أضعف من تأهب كوريا الجنوبية بالقياس الى قوة كوريا الشمالية . وصفوة حسابه أن ليس فى أوربا الغربية الى الشرق من المانش قوة دفاع تذكر ، وان انجلترا نفسها عرضة اليوم لخطر أعظم من خطر سنة ١٩٤٠ فى أحلك أيامها .

وقد تقول أن فى تقدير تشرشل شيئا من المبالغة ، لأنه أراد أن يجعل النذير أقوى ما يكون النذير ، ولكن رجال الغرب يعلمون أن تشرشل أنذر قبل الحرب العالمية الثانية ، وقل من أصغى الى نذيره يومئذ ، ثم صدق قوله . والدوائر الغربية ترى أن القوة المسلحة السوفيتية ، تفوق قوة الغرب سبعة أضعاف على الاجمال ، اذا استثنينا القنبلة الذرية .

ومن هنا ما تراه من اهتمام دول الميثاق الأطلسى بسد الثغرة الفاغرة بين العزم والقدرة ، ثم بين قوة الكتلتين .

وأول مظاهرها زيادة المبالغ التى أرصدتها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا للتسلح ، وقرار مجلس الميثاق الأطلسى أن ينشىء جيشا موحدا فى أوربا ، وعزم الولايات المتحدة أن تزيد قوتها المرابطة فى ألمانيا الغربية — وأخيرا تحول موقف الدول الغربية

الكبيرة بعض الشيء من ألمانيا ولو شاءت موسكو أن تظفر بمقياس تقيس به أثر سياستها فى الكتلة الغربية لكان حسبها أن تنظر الى حادث كوريا ثم الى مدى التغير الذى طرأ على موقف الغرب ، ولاسيما فرنسا من ألمانيا ، فهو أدل .

قد يكون من التمادى فى الوهم أن يظن ظان أن فرنسا قد اطرحت مخاوفها من ألمانيا ، ولكن من البين أن مخاوف اليوم من الاتحاد السوفيتى وأتباعه ، غالبة على مخاوف الغد من تجدد قدرة ألمانيا الصناعية والحربية .

والعالم الغربى يواجه خطرا فى أى الطريقين سار ، ولكنه يميل ، وقد تكشفت نية موسكو وان لم تنكشف خطتها ، الى تفضيل الخطر الذى يخشاه من نهضة ألمانيا الصناعية والعسكرية ، عسى أن يكون أهون الخطرين ، وعسى أن يكون للزمن المتغير أثره فى ضبطه وتحويله عن مسراه المعهود .

ومن يظن أنه فى الوسع ابقاء ألمانيا مهيضة الجناح ملتصقة بالرغام ، صناعيا وسياسيا وعسكريا ، يجهل طبائع الشعوب وينكر عبر التاريخ ، فالحرص على انهاضها هو حرص على مواجهة الواقع ، وان كان هذا الحرص اليوم هو على الأكثر وليد الخطر المتبدى على الأفق الشرقى .

هذا النهوض ركن من أركان الأمن الغربى المنشود ، ولكنه مع ذلك خليق أن يكون خطرا — فقد تتخذه موسكو عذرا للهجوم على أوربا الغربية العاجزة عن الدفاع اليوم ، ولن تتوانى موسكو عن الانتفاع به فى دعايتها فتصفه بأنه انتهاك للاتفاقات التى عقدت بعد الحرب ، ووسيلة يتخذها مثيرو الحروب لقضاء مآربهم ،

وقد ترتضيه الحكومة الفرنسية فى حدود ويسايرها فريق من الأمة ، ولكن النقر على الأوتار القديمة الحساسة قد يثير فريقا كبيرا آخر من الفرنسيين فتنقسم الأمة بعضها على بعض • ومهما يكن من أمر فلابد من حل هذه المسألة حتى تجدى الجهود التى تبذلها الدول الغربية خير جدواها •

أفى الزمن فسحة كافية ؟

يرى بعض أهل الرأى أن التأهب الصناعى فى الاتحاد السوفيتى الذى لم يبلغ غايته بعد ، وخشية القنابل الذرية الأمريكية ، قد يصرفان حكومته اليوم وفى المستقبل القريب عن عمل خليق أن ينقلب حربا عالمية •

كان غرض روسيا منذ أواخر الحرب الماضية ، أن توزع صناعاتها الثقيلة حتى تصير فى مأمن أو ما يشبه المأمن من القذف الجوى المركز بالقنابل الذرية أو غيرها ، فاستقر الرأى على نقل مركز هذه الصناعات من أوقرانيا وأسفل نهر الدون الى منطقة الأورال وشرعوا فى تنفيذه على نطاق واسع فى سنة ١٩٤٤ • ولكن مناجم الحديد تكثر فى منطقة ، ومناجم الفحم تكثر فى منطقة أخرى تبعد عنها ١٥٠٠ ميل فاقتضى الانتفاع بموارد المنطقتين انشاء وسائل للنقل ، تكفل نقل ركاز الحديد الى منطقة الفحم ، ونقل الفحم الى منطقة الحديد ، فتصبح كل منهما مركزا للصناعات الثقيلة تشبه منطقة الرور فى غرب ألمانيا ، وانشاؤهما بجميع ما يلزمهما من وسائل النقل والصناعة ليس شيئا ميسرا فى سنوات قلال ، ويغلب أن تصبحا قادرتين على انتاج يذكر ، بعد سنتين أو ثلاث سنوات على الأقل •

فاذا أضفت الى هذا ، أن الولايات المتحدة متفوقة الآن على الاتحاد السوفيتى فى ما جمعته من القنابل الذرية ، علمت لم يرى بعضهم أن أمام العالم فترة من التأهب المحموم قد يملؤها الاتحاد السوفيتى بالحوادث على مثال كوريا ، ليستنزف قوة الدول الغربية واقتصادها ، وينبغى للغرب أن يجعلها حافلة بالمساعى للنهوض من هوة ضعفه حتى يتلاقى العزم والقدرة،ويومئذ يستطيع — فى رأى تشرشل — أن يفاوض الاتحاد السوفيتى عن قوة لا عن ضعف ، واذا توسل بالانصاف وحسن التقدير فقد ينتهى معه الى تسوية سليمة — تدوم الى حين •

الجماجم والحدود

لم يزل انشاء « الوحدة الأوربية » أمنيــة يتعلق بها خيــال الشعراء والكتاب والساسة ، من دانتى فى القرن الرابع عشر الى أريستيد بريان فى القرن العشرين • وقد اشتدت الدعوة الى تحقيقها فى القرن التــاسع عشر ، وكان مازينى وجاريبــالدى الايطاليان وفكتور هوجو الفرنسى أبلغ الدعاة وأجهرهم صوتا • وقد كتب هوجو ، على أثر الحرب البروســية الفرنسية ، كلمة كانت كأنها صيحة صاعدة من أعماق القلب ، قال : « سأهدم حصونى ، فاهدم حصونك • ثأرى ، ما ثأرى ، انه الاخاء • ولتمح الحدود ، وليكن نهر الرين لنا جميعا ، ولننشىء الولايات المتحدة الأوربية ••• » فالشعوب الأوربية فى نظر هؤلاء أفراد أسرة واحدة من البشر ، وورثة ثقــافة مشتركة ، وتنافرهم يدفعهم الى حرب تلو حرب ، المنتصر فيها من الخاسرين • ولكن بروسيا تعاظم جبروتها فباءت

الدعوة بالخسران ، ثم استعرت نار الحرب العالمية الأولى •

ولم تكد تنقضى أربع سنوات على نهايتها حتى هب أريستيد بريان يدعو الى اتحاد أوربا ، وكان شعاره « اتحدوا تحيوا ويطيب عيشكم » ، وقد حذر أوربا يومئذ من عواقب الامتناع عن الاتحاد ، قال : ليس الاتحـاد شيئا لا غنى عنه فى طلب الرخاء وحسب ، بل هو شىء لا غنى عنه لحفظ الكيان • وقد عضده شريف نمسوى ، أمه يابانيـة ، فوقف حيـاته وماله على هـذه الدعوة ، فاجتمعت مؤتمرات متلاحقـة فى فينا ١٩٢٦ وبرلين ١٩٣٠ وبال ١٩٣٢ ، ولم يكن الوافدون عليها رجالا من أهل الخيال ، بل كانوا رجالا لهم مكانتهم فى الحياة العامة ، وقد أيدهم تشرشل برسالة قال فيها : « ان قيام ولايات متحدة فى أوربا فكرة صائبة ، فتيسير تبـادل المنافع بين بلاد أوربا خليق أن يفضى الى خير النـاس جميعا » • ولا يزال تشرشل فى طليعة الدعاة الى هذه الوحدة ، وآخر كلمة قالها فى ستراسبورج فى شهر أغسطس الماضى (١٩٤٩) : ان لم تتحدوا فالهلاك لكم بالمرصاد • وهى تذكر بكلمة بريان ، ولعلها منحدرة منها •

ولكن أصحاب المصالح رموا الفكرة — يومئذ — بأنها خيال ووهم ، فلما مات بريان فى سنة ١٩٣٢ وتقلد هتلر زمام الريخ الثالث فى سنة ١٩٣٣ ، ونادى بمبدأ « الشعب السيد المختـار » خبت الدعوة ، وظلت تحت رماد ، الى أن نفضه تشرشل عنها فى سنة ١٩٤٣ فدعا الى انشاء مجلس أوربا ليكون أحد العمد التى تقوم عليها الحياة الدولية بعد الحرب • ولم تزل هذه الدعوة تتجلى وتنتشر حتى صارت اليوم أدنى قليلا الى الحقيقة ، بقيام مجلس أوربا •

ولكن لا تتوقع تحقيقها كاملة فى غدك القريب على الرغم من الدستور الذى وضع ، والمجلس الذى عقد دورته الأولى ، فربما استغرق ذلك عشر سنوات أو عشرين ، أو جيلا كاملا ، فرجال الحكم فى غرب أوربا ، لا يرون كيف يستطيعون أن يسيروا الى غرضهم ، بغير الخطى الوئيدة التى يخطونها الآن ، وان كان ممثلو الشعوب — لا الحكومات — يستحثونهم ويطالبونهم بالمبادرة دون الونى •

والاتحاد ، اذا تم تمامه ، جعل دول أوربا الغربية دولة اتحادية — كالولايات المتحدة الأمريكية — ذات حكومة اتحادية مركزية ، لها صفة السيادة ، أما الدول الداخلة فيها فتحتفظ كل منها باستقلالها الذاتى ، فى الحدود التى يعينها الدستور •

ولا تجد فى أوربا اليوم ، رجلا من رجال الحكم ، يقدر أن قيام مثل هذا الاتحاد ، شيء ممكن قبل زمن طويل ، بيد أنك لن تجد واحدا منهم ينكر أن الضرورة تقضى بابقاء هذا الهدف البعيد نصب العيون •

وليس ثمة ريب فى أن العقبات كثيرة • فهذه طائفة من الدول لم تزل منذ خمسة قرون مستمسكة بنزعاتها القومية الجائحة ، وهى درجات متفاوتة فيما أدركته من الديمقراطية السياسية ، وليس لها نظام اقتصادى واحد ، ولا نظام حربى واحد ، مع أنها شهدت فى السنوات الأخيرة ، تقدما يسيرا فى تنسيق خططها الاقتصادية والحربية • فتدمير الأسس التى قامت عليها الحياة القومية ، فى كل منها منذ قرون ، حتى يحل محلها بناء جديد شامل ، يقتضى معجزات من دقة الادراك وفضيلتى الصبر وحسن الظن ،

وضرورة تدريب رجال الحكم فى جميع طبقاته على أصول جديدة من الشعور والتفكير والعمل ، وليس هذا شيئا ميسورا يتقبله الطبع البشرى دفعة واحدة فى زمن قصير .

وكل من تتبع أعمال هؤلاء الراغبين فى الوحدة الأوربية ، يعلم أنهم قد اختلفوا فى كل مرحلة عبروها . فقد كانت فرنسا — مثلا — تؤثر أن تقوم الجمعية الأوربية أولا لتكون صوت أوربا المتحدة ، على غرار ما اقترحه المؤتمر الذى عقده فى لاهاى منذ نحو سنتين ، دعاة الوحدة الأوربية من ممثلى الشعوب . ولكن بريطانيا خشيت أن تكون هذه الجمعية صوتا وحسب ، وأن تتسع جنباتها للخطب دون العمل ، وأن تغرى الشعوب الأوربية فتتوهم أنها قد توحدت حقا ، برغم العقبات الكثيرة التى ينبغى تذليلها قبل أن تصير الوحدة مستطاعة . فرأى بيفن أنه خير وأفضل أن تنشأ هيئة تمثل الحكومات ، فهى التى تملك أن تقرر وأن تنفذ ، وبعد مناقشة دامت شهورا انتهوا الى اقتراح انشاء « مجلس أوربا » ، المؤلف من لجنة الوزراء (ممثلى الحكومات) والجمعية الأوربية (ممثلة الشعوب) .

كتب تشرشل منذ ثلاث سنوات تقريبا فى مقال عنوانه « طريق المستقبل » : « قالوا قديما ان أسيرا أسبانيا ظل سنين يذوى ويذوب حنينا الى الحرية ، وفى ذات يوم دفع الباب فانفتح ، فقد كان مفتوحا لم يوصد قط ، فخرج حرا طليقا ، وشعوب أوربا اليوم أمامها فرصة كمثل هذه الفرصة ... نفضة واحدة من العزم ، واذا باب السجن ينفتح على مصراعيه ، فيخرج الأسرى الى الشمس المشرقة » .

وتشرشل كاتب ألمعى ، يصور بالألفاظ كما يصور بريشته

مشاهد تأخذ العين وتبهر النفس ؛ ولكن الشيء الثابت الخطير فى حركة الوحدة الأوربية اليوم ، هو أن غرب أوربا قد بدأ يسير نحو الهدف ، وان كان الهدف لا يزال بعيدا . ومجلس أوربا بهذا الوصف شيء يقتضيه التاريخ ، وتدعو اليه الضرورة ، فهو أحد الأركان الثلاثة التى يقوم عليها تنظيم الجماعة الغربية من الدول ، أما الركنان الآخران فهما مشروع مارشال وميثاق الدفاع الأطلسى .

ولكن ما هو « مجلس أوربا » ؟

وضع دستوره ووقع منذ ثمانية أشهر ، بالاتفاق بين عشر دول أوربية ، هى أرلندة وايطاليا وبريطانيا وبلجيكا والدنمارك والسويد وفرنسا ولكسمبورج والنرويج وهولندا[1] ، وغرضه : « السعى الى الظفر بقدر أكبر من الوحدة بينها لحماية المثل والمبادىء التى تعد تراثها المشترك ، ولتحقيق تلك المثل والمبادىء ، ولتيسير تقدمها الاقتصادى والاجتماعى » .

وهو فرعان : لجنة الوزراء ، تضم ممثلا من حكومة كل دولة ، ويغلب أو يحسن أن يكون وزير الخارجية ، والجمعية العمومية ، وهى تضم ممثلين لشعب كل دولة يتفاوت عددهم بتفاوت تعداد الشعب .

وقد جاء دستور المجلس وسطا بين رأيين : فالفريق الأول يرى ، أن خير المساعى للتعاون الأوربى فى شئون الدفاع والاقتصاد ووضع الخطط العامة ، تتم فى مجالس ولجان أوربية قائمة ، وقلما تذاع أخبارها ، وهو يشك فى نفع برلمان أوربى يفسح فيه المجال للخطب الرنانة ، والأخذ والرد فى مسائل تختلف فيها الآراء

(١) ضمت اليها فى الدورة الأولى تركيا واليونان واسلندا

والمذاهب أو لا تجتمع عليهـا ، وتحرك فى النفـوس آمالا يشق تحقيقها • وكان أصحاب الرأى الآخر يطلبون مجلسا أوربيا ينتزع السلطان رويدا رويدا من الحكومات الأوربية القومية ، فيناقش أعضاؤه جميع المسائل التى تهم أوربا عامة ، ثم يصدرون أحكاما فيها ، أى أنهم كانوا يطلبون أن يسيروا سيرا حثيثا الى انشاء حكومة أوربية ، تنزل لها الحكومات القومية عن بعض سيادتها على الأقل • فجاء الدستور الذى وضع لمجلس أوربا وسطا بين الرأيين فأنشئت الجمعية العمومية ولكن ليس لها سلطان ، بل لا يحق لها أن تتناقش فى شئون الدفاع ، ولا يحسن بهـا أن تتناقش فى الشئون الاقتصادية التى تعالجها هيئات دولية أخرى ، منها مكتب التعاون الاقتصادى الأوربى • ولا تنفذ توصيات الجمعية العمومية الا اذا أقرتهـا لجنة الوزراء ، ولهـذه اللجنة أن ترفض احداها أو ترفضها جميعا •

وقد دلت المناقشات التى دارت فى الجمعيـة الأوربيـة فى ستراسبورج ، أن هنـاك خلافا غير يسير فى الرأى بين جمـاعات أعضائها ، ولكن هذا الاختلاف فى الرأى لم يعن أن الجمعية كانت عرضة لتذهب مع الريح منذ أيامها الأولى • فالقوى التى تقرب بين دولها ، أقوى كثيرا من الخلاف بينها • فهم جميعـا يخشون التوسع السوفيتى والتغلغل الشيوعى المدمر ، وهى يعتقدون أن المستقبل للدول الكبيرة ، وأن الدولة الأوربية التى يريدونها ينبغى أن تكون احداها ، وهم جميعا يرجون أن تعود ألمانيا عضوا فى العشيرة الأوربية،تشد من أزرها راضية عن منزلتها فيها،وقل أن تجد بينهم من لا يذهب الى أن التكتل على وجه متسق أكفل بالرخاء •

ان مجال القول فى مجلس أوربا ، وما يرجى أن يصنع ، وما يخشى أن يهمل لذو سعة . ولكن من كان يجرؤ منذ سنتين أو أقل قليلا ، يوم كانت الوحدة الأوربية ، فى مرحلتها الجديدة ، قاصرة على اجتماعات شعبية فى لاهاى أو غيرها ، أن يعتقد أن تلك الحركة سوف تفضى بعد قليل الى دستور ، مهما تكن القيود التى فرضها على لجنة الوزراء والجمعية العمومية ، فانه ولا ريب دستور فيه عناصر حياة أوربية أفضل .

فاذا أحس المجلس دعوة التاريخ ، وارتفع الى مستواها ، فى حماسة تقيدها الفطنة وتفكير محكم دقيق لا يطفىء من جذوة النزوع الى المثل العالى ، فهو خليق أن يكون نواة لهيئة أوربية تنضوى تحت لوائها قوى أوربا المنبعثة المتطلعة الى آفاق واسعة بعيدة من التعاون المطرد على الانشاء والاصلاح .

منذ عهد قريب وقف فلاح بلجيكى فى سهل واترلو . وكان القمح عاليا غزير النمو ، فقال : كيف لا يكون كذلك وقد تغذى بالدم ، فالدم البشرى خير سماد ... وهأنذا أقف هنا أفكر فى الدم الذى سفك فى هذا السهل ، وفى كل شهر يقع أحدنا على جمجمة وهو يحرث أرضه — جمجمة فرنسى أو بريطانى أو بروسى أو بلجيكى أو هولندى ... أنظر شرقا وشمالا وجنوبا وأقول : ما أسخف الحدود التى تفصل هذه الأمم ... ان الجماجم لا تعرف شيئا عن الحدود .

هكذا قال الفلاح البلجيكى ، بلسان الانسان الأوربى . فالمستقبل خير لجميع الذين يقولون هذا القول ، ان تعاونوا ، وحرب عليهم وهلاك ، ان ظلوا شيعا متفرقة .

الميزان المضطرب

الميزان المضطرب

الخطة القومية لأمة ما فى هذا العصر هى خطة تندمج فيها عناصر الصلات السياسية ، وحقائق الموقع الجغرافى ، وعدد الأيدى العاملة ، والقدرة الصناعية والقوة المسلحة وما تواضعوا على وصفه بلفظى « الحرب النفسية » والدعاية احدى وسائلها .

فاذا نظرت الى الجماعتين المتناظرتين فى الميدان العالمى اليوم ، على ضوء هذا التعريف لأصول « الخطة القومية » تبينت أن لخطة الجماعة الشرقية التى تديرها موسكو ، من الموقع الجغرافى ووفرة الأيدى العاملة واحتشاد القوة المسلحة والتوسل بالشيوعية وأحزابها فى حلبة الحرب النفسية والسياسية ، مزايا كبيرة . فالقوة الحربية التى احتشدت وأحكم توزيعها فى رقعة مترامية من سطح الأرض ، تيسر لأصحابها أن يدفعوها فى جهات شتى ، ان هداهم تقديرهم الى ترجيح النفع الذى ينالونه على الخطر الذى يصيرون عرضة له . ولو بسطت خريطة العالم أمامك ، ونظرت اليها من مكان تتخذه لنفسك بالتخيل ، فى موسكو ، لوجدت أن الأخذ بالتقدير العسكرى وحده يمهد لأصحاب هذه القوة المسلحة ،

---

* بعد الفراغ من اعداد فصول هذا الكتاب كتب هذا الفصل ونشر فى « مجلة المشاة » عدد فبراير ١٩٥١ .

أن يغزوا بها الآن بغير مقاومة تذكر ، البلاد الاسكنديناوية أو أوربا الغربيـة أو يوغسلافيا واليونان أو الشرق الأوسط أو اليـابان أو جميعها فى آن .

والتقدير المقبول عند خبراء الحرب فى الغرب ، لهذه القوة ، قائم على أنها تشمل مئة وسبعين فرقة روسية عاملة الآن ، تضاف اليهـا قوات الدول التى تدور فى فلكها ، وتسعة عشر ألف طائرة وأربعون ألف دبابة ، وما يتبعهـا من الأسـلحة الحديثـة كالقذائف الموجهة ، وأن فى الوسع زيادة هذه القوة فى مجموعها الى ٣٥٠ فرقة فى أشهر والى ٥٠٠ فرقة فى بحر سنة بعد أن تنشب الحرب ، وتؤيدها موارد لا حد لها من الرجال وقدرة صناعية كبيرة وان كانت دون القدرة الصناعية فى الغرب .

ويقابل هذا أن الجماعة الغربية لا تملك الآن فى أوربا الغربية أكثر من خمس عشرة فرقة ، بعضها ليس وافى السلاح ولا حديثه ، وأكثر ما تستطيع أن تتطلع اليه لا يزيد بحسب قرار بروكسل على ستين فرقة فى خلال سنتين الى ثلاث سنوات ان سار كل شىء على ما يرام . أما قوتها الجوية فذات كفاية وان لم تكن ضخمة ، وقوتها البحرية متفوقة — اذا استثنيت الغواصات — تفوقا يكاد يكون مطلقا ، وقدرتها الصناعية ، اذا وزنت بميزان الصلب وحده كانت أربعة أضعاف أو نحوها[1] ، بيد أنها كانت منصرفة حتى عهد قريب أكثر ما تكون الى انتاج سلع الاستهلاك لا معدات الحرب .

---

(١) يقدر تفوق الكتلة الغربية فى القنابل الذرية بنسبة ١٠ الى ١ على الأقل ، وفى الزيت بنسبة ١٠ الى ١ أيضا وفى الألومنيوم بنسبة ٦ الى ١

فبين من هذه الأرقام أن موسكو اذا شاءت أن تقدم الآن على عدوان مسلح ، كان فى وسعها أن تجتاح غرب أوربا والشرق الأوسط وأن تتطرق الى افريقية ، وليس فى اليابان قوة يابانية أو غير يابانية ، تستطيع أن تتغلب على هجوم تشنه بضع فرق تقلها الطائرات وتؤيدها الطائرات .

وقد واتتها الفرصة يوم شن أهل كوريا الشمالية هجومهم على كوريا الجنوبية ، فبادرت الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد قرار مجلس الأمن الى ارسال زهرة قواتها المسلحة القليلة الى كوريا ، تعاونها فى ذلك فصائل من بعض الأمم الأعضاء ، فلما فعلت صارت اليابان مجردة من قوة تحمى حماها ، وصارت الفرق الأمريكية عرضة للخطر فى بلاد بعيدة ، لو شاءت موسكو أن تنقض عليها بقوتها المحتشدة فى الشرق الأقصى ، وغدت سفن الأمم المتحدة بين حربية وناقلة فى مياه كوريا هدفا ميسرا للغواصات السوفيتية هناك ، ويقال ان عددها بين مئتى غواصة وثلاث مئة . ففى تلك الفترة — وهى لم تنقض بعد — كانت الفرصة مواتية لموسكو فى الغرب الأوربى والشرق الأوسط والشرق الأقصى ، ولكنها لم تفعل .

ويعسر الظن أن يكون امتناعها لأنها كانت تجهل أن الفرصة مواتية ، أو لأنها عدلت عن غرضها البعيد ، فهى لا تنفك تسعى اليه وتمهد له بشتى الوسائل . بيد أنها امتنعت عن الانتفاع بمزيتها الحربية حتى الآن ، وقد خاض الجيش الكورى الشيوعى ، والجيش الصينى الشيوعى غمار القتال فى كوريا ، ولكننا لم نسمع أن جيشا روسيا قحا قد خاضه .

وعسى أن يلتمس خير تعليل لهـذا الامتناع فى باب القـدرة الصناعية ، وبعض عناصر القوة المسلحة ، وأصول المنطق المذهبى الذى أخذت موسكو نفسـها به وربما فى وجود بعض العناصر « التيتوية » القوية فى الدول التابعة لموسكو فى شرق أوربا .

فروسيا هى أم الشيوعية العالمية وحصنها وينبوعها ومحركها ، وهى ماضية فى نهضتها الصناعية تعزز قدرتها الحربية ، ومنزلتها باعتبارها مثالا يحتذى فى التوجيه الاقتصادي والصناعى ، ومع أنها أدركت شيئا كثيرا فى هذا الباب فانها لا تزال فى حاجة الى مواصلة العمل لتحقيق أغراضها ولاسيما زيادة الانتاج وتوزيع الصناعات فى أقطارها المترامية ، وانشاء مراكز صناعيـة جديدة فى منطقة الأورال وما وراءها الى الشرق الأقصى ، واحكام شبكة الدفاع بوسائل رادار وغيره ضـد الهجوم الذرى فوق المناطق الرئيسية ... فاذا أطلقت حربا عالمية اليوم أو فى المستقبل القريب كانت عرضة لمئات من القنابل الذرية ، فأغلب الظن أن الولايات المتحدة تملك منهـا الآن أضعاف ما يملكه الاتحاد السوفيتى ، وليس للكتلة الغربية سلاح فعال تحارب به فى مطلع حرب عالمية قريبة سوى هذا السلاح .

نعم ان قوة الجماعة الغربية خليقة أن تصير فى بحر سنتين أعظم مما هى الآن بالقياس الى قوة الجماعة الشرقية ، بيد أن عدد القنابل الذرية التى تملكها الجماعة الشرقية خليقة أن تزداد أيضا وان لم تلحق بما تملكه الجماعة الغربية منها فيصير وجودها رادعا صامتا للفريق الآخر عن المبادرة الى استعمالها ، فان استعملها ردت موسكو على الهجـوم الذرى بمثله . وأثر هجوم ذرى فى منـاطق محتشدة

الصناعة ، كالرور وانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة هو حتما أفدح من أثر القنابل الغربية فى مراكز صناعية متفرقة فى بلاد واسعة كالاتحاد السوفيتى •

ثم ان موسكو تعتقد بحكم منطقهـا المذهبى ، أن الاقتصاد الغربى ينطوى على « متناقضات » كفيلة بانهياره فى آخر الأمر ، فما على موسكو سـوى أن تصبر وتصابر وتتوسل بكل وسيلة تعجل ذلك الانهيار • واذا نظرت الى ما يدور فى كوريا والهنـد الصينية مثلا ، على ضوء هذا التعليل وجدته معقولا ؛ فموسكو تمهـد بوسائل شتى كالحروب الصغيرة التى تشنها بالواسـطة ، والأحزاب الشيوعية ، لبعثرة القوة الغربية ، ولتحميل الاقتصاد الأمريكى والغربى عامة ، أعباء ان طال زمنها ، كانت مرهقة له • ومن هذه الأعباء تحويل المصانع الى الانتاج الحربى ، وتحويل القادرين الى صفوف القوات المسلحة ، وزيادة الضرائب الفادحة ، وتعدد الاضراب ، وتدبير وسائل التخريب الصناعى ، وانصراف الدول المعنية بانتعاشها الاقتصادى عن العمل الدائب فى سبيله الى وقف قدر كبير من الميزانيـة ، وشطر عظيم من المجهود على صناعات الحرب ، بدلا من الانصراف الى الانتاج المجدى •

وثمة حقيقـة أخرى ، هى موارد الزيت ، فالزيت فى العصر الحديث لا غنى عنه للدولة الصناعية فى السلم ولا للدولة المحاربة فى الحرب ، وما تستهلكه الدولة الحديثة من الزيت ومشتقاته ، يزداد ازديادا كبـيرا فى ابان الحرب ، فلن تتحرك طائرة أو دبابة أو سيارة نقل الا به ، حتى تروض الطاقة الذرية لهـذا الغرض • ويقدر ما يبلغه انتاج الزيت فى الاتحاد السوفيتى والدول التابعة له ،

بنحو ٣٢٥ مليون برميل فى السنة ، أو نحو ٤٦ الى ٤٧ مليون طن يضاف اليه مقدار غير معروف من الزيت المصنوع بالكيمياء ، على حين ترى الانتاج العالمى بلغ فى سنة ١٩٥٠ أقل قليلا من ٥٢٣ مليون طن ، أى أن ما تحت يدى روسيا من انتاج الزيت يزيد قليلا على ٩ فى المائة من الانتاج العالمى . وهذا المقدار أقل من الكفاية لمطالب الحاجات المدنيـة الضرورية والصناعيـة والقوات المسلحة البرية والجوية والبحرية فى حرب عالمية مستحرة ان طالت .

وقد تكون الحاجـة الى الزيت رادعا عن الاقدام على حرب عالمية النطاق يقدر لها أن تستغرق أكثر من بضعة أشهر ، أو قد تكون حافزا الى الاقدام على اجتياح الشرق الأوسط ، حيث بلغ الانتاج فى المنطقة التى تحف بالخليج الفـارسى ٨٨ مليون طن فى سنة ١٩٥٠ ، فان كان الثانى فالاجتياح العسكرى نفسه لا يحقق الغرض المنشود ، لا لأن الآبار ووسائل الانتاج والتصفية خليقة أن تدمر أو تعطل وحسب ، ولكن أيضا لأن نقل الزيت من هذه المنابع الى روسيا شاق على أقل تقدير بوسائل النقـل البرى ، وينبغى أن ينقل بالسفن الناقلة حول الجزيرة العربية وفى ترعـة السويس ، ثم فى البحر الأبيض المتوسط ومن خلال المضايق الى البحر الأسود . أما الزيت الذى تنقله الأنابيب الى الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فهو خاضع أيضا لضرورة النقل البحرى بقية الطريق ، فالاستيلاء على منطقة الزيت حول الخليج الفارسى لا يجدى جدواه على موسكو وان كانت الآبار سليمة ان لم تملك موسكو أيضا زمام السلطان على شرق البحر الأبيض المتوسـط والمضايق وما يحف بها .

وأخيرا انمعظم الزيت الذى يعتمد عليه الاتحاد السوفيتى مركز فى منطقة باكو ، ولعل هذه المنطقة هى فى طليعة الأهداف التى تتجه اليها الطائرات المقلة للقنابل الذرية ان شبت نار حرب عالمية أو اذا لزم حسم الأمر قبل شبوبها • وعلى أن وسائل الدفاع ضد هجوم الطائرات بالقنابل الذرية يسير قدما ، فان روسيا فى أغلب الرأى لا تقدم على عمل من شأنه أن يفضى الى حرب عالمية قبل أن تحكم شبكة الدفاع ضد القنابل الذرية فوق منطقة باكو •

وخلاصة الرأى أن موسكو لم تقدم حتى الآن على تحقيق ما يبدو ظفرا حربيا ميسرا لأنها فى أغلب الرأى تقدر أن الظفر الأول الميسر لا يكفىء الكتلة المقابلة عن المضى فى القتال ، وأن لهذه الكتلة وراء قوتها الصغيرة المتأهبة الآن ، قوة عظيمة تحتشد وتعبأ ولا يسع موسكو أن تستهين بها •

هذا رأى ، وفحواه أن الاتحاد السوفيتى برغم تفوقه العسكرى الكبير الآن ، يتردد قبل الاقدام على عمل من شأنه أن يفضى الى حرب عالمية فى المستقبل القريب •

وأما الرأى الآخر فهو أن ميزان التقدير قد يميل بموسكو الى الحرب الآن أو فى المستقبل القريب ، قبل أن يشتد عضد الدول الغربية ، بما بدأنه من برنامج التسلح والتدريب والتعبئة الصناعية ، وما يحاولنه من تسليح ألمانيا الغربية • فقوة روسيا وأتباعها لن تكون أقوى مما هى اليوم بالقياس الى قوة الجماعه الغربية ، وها هو ذا الشطر الغربى من أوربا مكشوف أمامها بغير قوة دفاع تذكر تحمى حماه ، وما فيه من موارد صناعية يغرى بالاقدام ، فان أرجىء الاقدام فقد تصير القوة الغربية حائلا دون الظفر بأعظم

رقعة صناعية فى العالم ، واذا استثنيت مناطق معينة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وثمة رأى ثالث يقع فى الوسط بين الرأيين ، مرده الى أن شيئا من التأهب الحربى فى أوربا الشرقية ماض قدما ، ودليله الدأب على تحسين المواصلات بالسكك الحديدة وطرق السيارات ، وزيادة المطارات ، وتعزيز قوات الدول التوابع ، وخطته هجوم هذه القوات على يوغسلافيا — كما حدث فى هجوم قوات كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية — لتأديبها بعد أن شقت عصا الطاعة ولانذار العناصر التيتوية فى الدول التوابع ، وللظفر بقاعدة ذات شأن حربى خطير فى مصير البحر الأبيض المتوسط وذات شأن سياسى فى مصير ايطاليا . فان عجزت عن اخضاع الجيش اليوغسلافى ، جاءتها نجدة من القوات السوفيتية القريبة . وعمل من هذا القبيل ، عرضة ولا ريب ، لأن ينقلب حربا عالمية ، فالاقدام عليه يعد « مخاطرة مقدرة » ، فاذا انتهى دون أن يثيرها فبها ونعمت ، واذا أفضى الى اثارتها فبها أيضا ، وبؤس ما يكون .

وأخيرا تجد من يذهب الى أن موسكو قد تقدر أن كفتها فى ميزان القوى العالمية سوف تظل راجحة زمنا غير يسير ، فاذا صدق هذا الرأى فربما اكتفت بأن تبذل جل نشاطها خلال هذه السنة والتى تليها فى جنوب آسيا الشرقى ، الى الحد الذى لا يثير حربا عالمية ، وأن تسعى فى الوقت نفسه متعاونة مع حكومة بكين على تنظيم الصين تنظيما سياسيا واقتصاديا ، ومع حكومات وارسو وبراج وبودابست وغيرها على تطهيرها من عناصر المناوأة الخفية ، معلقة أملها خلال ذلك كله على أن يفضى الضغط السياسى المستمر

على « تيتو » الى ضعفه الاقتصادى فالسياسى ، فالى زوال حكمه ، ومعتمدة على اثارة وجوه من الخلاف السياسى بين دول الجماعة الغربية حتى تضعف وحدتها .

وليس فى وسع أحد أن يحكم أى هذه الآراء أصدقها ، حتى يقع ما يثبت هذا وينفى ذاك .

* * *

تحت ضغط الأحداث المتوالية فى الشرق الأقصى والشرق الأوربى وما يعرف عن حقائق القوة العسكرية السوفيتية المتأهبة اليوم ، صحت عزيمة الدول الغربية على السير قدما فى بنيان الدفاع الغربى على أساس القوة المشتركة ، وظهر فى الدول الغربية فى الوقت نفسه، ميل الى الحياد فى أوربا وميل الى العزلة فى أمريكا .

أما العزيمة فيمثلها قرار مؤتمر بروكسل الذى اتفقت فيه دول الميثاق الأطلسى على انشاء قوة دفاع غربية مشتركة بقيادة ايزنهاور، وعلى مفاوضة حكومة ألمانيا الغربية فى موضوع مشاركتها فى هذا الدفاع ، وعلى عزم الولايات المتحدة أن تزيد قوتها المرابطة فى أوربا الغربية ، ليكون وجودها رادعا يثنى موسكو عن الاقدام ، لا لأن هذه القوة مع الفرق القليلة الأخرى لا تستطيع أن تصد عشرات الفرق الروسية ، بل لأن وجودها يعنى أن اقداما من هذا القبيل معناه حرب عالمية النطاق ، بما ينطوى فيه من الحرب الذرية .

وقد عاد ايزنهاور الى منزلة فى أوربا تشبه المنزلة التى أخلاها بعد النصر الحليف فى سنة ١٩٤٥ ، ولكنها تختلف عنها فى الحقيقة كاختلاف النقيض عن النقيض . فقد كان يومئذ قائدا لقوة حربية متفوقة تؤيدها جميع الموارد الصناعية فى أمريكا وبريطانيا،أما اليوم

فهو يكاد يكون قائدا بلا جيش ، وقد كان يومئذ يتلقى توجيهه السياسى الأعلى من حكومتى دولتين هما الولايات المتحدة وبريطانيا ، أما اليوم فهو يتلقاه من مجلس أو لجنة تضم ممثلى اثنتى عشرة دولة ، وقد كانت مهمته يومئذ أن يديل القوة الألمانية ضربة قاضية فى الغرب بعد أن نهكها قتال دام خمس سنوات أو نحوها ، أما اليوم فمهمته أن ينشىء دفاعا عن الغرب بقوة لا يحتمل أن تبلغ متى تم تمامها سوى نصف قوته الأولى ان بلغها، ويغلب أن لا يتم تمامها — ان سمحت الحال — فى أقل من سنتين . فالعمل الذى ندب له ايزنهاور قل أن يجاريه فى مشقته عمل آخر ندب له قائد عسكرى فى العصر الحديث .

نعم ، بين الدول الغربية من ناحية وموسكو من ناحية أخرى حديث يدور على عقد مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة ، وهذا الحديث فى حد ذاته دليل على رغبة مستمدة من مقت الشعوب للحرب ، ولكن بين الرغبة فى عقده وتوفيقه فيما يعرض له من مشكلات خطيرة ، بون شاسع ، فالعمل الذى ندب له ايزنهاور وهو تعزيز قدرة الغرب على الدفاع ينبغى أن يتم فى جو يسوده القلق والحيرة حيال ماتنوى موسكو أن تصنعه خلال الفترة التى تحيل فيها الدول الغربية ضعفها البادى الى قدر من القوة ، ويملؤه خوف بيّن فى بعض دوائر أوربا وتردد صريح فى بعض دوائر أمريكا .

وأما الميل الى الحياد فمرجعه الى أن أوربا تعانى فتورا ووهنا فى العزيمة والقوة هما أثر من آثار الحربين العالميتين وبلاياهما ، وأنها تشعر بشىء من التردد فى الموافقة على تسليح ألمانيا الغربية

من أجل اشتراكها فى الدفاع الغربى ، وترتاب بعض الشىء فى أن خروج أمريكا من عزلتها ليس الى غير رجعة • وقد شهدت هزيمة قوات الأمم المتحدة فى كوريا فصارت تشك فيما يكون مصير الدفاع عنها ، ووافقت فى الأمم المتحدة على رفع الحظر الدبلوماسى عن اسبانيا ، ولكن مجرد النظر فى جعل اسبانيا قاعدة حربية يملأ أوربا الغربية جزعا من أن تبلى ببلوى الاحتلال الروسى ثم ببلوى الحرب لاجلاء جيوش الاحتلال • فهذه الحالة النفسية المعقدة كان لها أثرها فى ضعف المجهود الحربى الذى بذل على بر أوربا الغربية فى بضع السنوات الأخيرة فبدا لبعض الأمريكيين من ذوى الرأى أن الاعتماد على أوربا فى الدفاع عبث لا طائل تحته ، وأن زيادة القوات الأمريكية على بر أوربا انما يزيد عدد الجنود الأمريكيين الذين يتعرضون للبوار ، فمالوا — كما قال هوفر — الى وجوب الانكماش فى الشق الغربى من كرة الأرض ، وانشاء دفاع عنه كفيل برد كل اعتداء عليه ، وكذلك تفاعل الميل الى الحياد فى أوربا والميل الى العزلة فى أمريكا فصار كل منهما وقودا للآخر •

ولكن حقائق الحياة الدولية الحديثة أخذت تقنع أهل أوربا الغربية أو كثرتهم على الأقل بأن حياد الضعيف المعتمد على حسن معاملة خصمه وهم لا يوقيه عواقب الخضوع ، وحقائق الحرب الحديثة قد أخذت تقنع أهل الولايات المتحدة أيضا أو كثرتهم على الأقل بأن الدفاع الجامد عن رقعة بعينها من سطح الأرض لا يجدى ، وقد كان هذا صحيحا يوم أن كانت وسائل القوة جيوشا وطائرات مألوفة ، وهو أصح اليوم وأصدق وقد صارت الطائرات نفاثة وصاروخية ، وغدت القنابل تطوى فى جوفها هلاك الذرة

المتفجرة ، فماذا تصنع أمريكا لو أخذت برأى هوفر وانكمشت فى أرضها ، يوم تصبح للسوفييت قواعد على سواحل أوربا الغربية تنطلق منها هــذه الطائرات بقنابلها مسددة الى المثلث الصــناعى المحتشد الواقع بين دترويت وبتسبرج ونيويورك •

ولكن اذا كان الاتفاق بين دول الميثاق الأطلسى تاما أو يكاد يكون على أمور الدفاع عن أوربا الغربيــة ، فان بينها غير يسير من خلاف على خير خطة تتبعنها فى الشرق الأقصى ، وهذا عاقبة من عواقب الضعف • أما الدفاع عن الشرق الأوسط فليس الحكم فيه لهن وحدهن ، ولن يستتب لهن دفاع صحيح عن الشرق الأوسط بغير معاونة شعوبه وحكوماته ، وموقفها أميل الى الحياد لأن الدول الغربية لم تقم بعد دليلا صادقا على نيتها أن تستجيب لنداء الحق والمصلحة جميعا فى تحقيق مطالب هذه الشعوب وحكوماتها •

* * *

قبل ايزنهاور المهمة العاتية التى ألقيت اليه ، وجال جولة سريعة فى عواصم دول الميثاق الأطلسى فى أوربا ، وعاد الى الولايات المتحدة ، ليبدى رأيه فيما رأى وقدر لرئيسه وللكونجرس الأمريكى ، وهذا الرأى فى مجمله يؤيد سياسة وشنطن ويطالب أعضاء الميثاق الأطلسى فى أوربا بزيادة ما تبذله من مجهود فى التسلح •

ولكن مهما يكن حزم الولايات المتحدة قويا ، ومهما تكن وحدة الرأى بين دول الميثاق وثيقة ، ومهما يكن العزم على تعبئة الموارد الصناعية عظيما ، فان ذلك لن يغنى ايزنهاور وقيادته عن مواجهة ثلاث مشكلات أو أربع مشكلات كل منها خطير ولكن ليس بينها واحدة تستعصى على الحل •

أما المشكلة الأولى فهى العناصر التى ينبغى لايزنهاور أن يصهرها وينشىء منها قوة دفاع تستطيع أن تردع القوة السوفيتية عن المغامرة فى اجتياح أوربا الغربية ، وأن تصدها ان فعلت . والعناصر المتاحة له اليوم قليلة متفرقة، وليست مزودة كلها بالسلاح الوافى أو الحديث . فسوف يدخل فى قيادته ثلاث فرق فرنسية ، تليها فرقتان ، وفرقتان أمريكيتان مرابطتان فى ألمانيا ، يليهما عدد غير معروف الآن من الفرق الأمريكية قدر بأربع فرق،وفرقتان بريطانيتان مرابطتان فى ألمانيا تليهما فرقتان أخريان متى حلت بعض المسائل القانونية الدستورية الخاصة بالسلطان عليها ، وقد يضاف الى هذه فرقة بلجيكية وقوة هولندية فى منزلة الفرقة . أما ألمانيا الغربية ، فلن ينتظر أن يكون لها قوة ذات شأن ، فى أقل من سنة ونصف سنة ، ان تم الاتفاق بينها وبين دول الميثاق على أصول التعاون المنشود وأما سلاحه الجوى « التكتيكى » فيغلب أن يكون صغيرا حسن الأهبة وان كانت طائفة من طائراته قديمة الطراز . وأما القوة البحرية فله منها ما يشاء ، وله أن يستعين بهيئة أركان حرب الوحدة الأوربية التى كان المارشال مونتجمرى قائدها الأعلى .

فهذه القوة فى مجموعها لا تكفى للغرض الذى ندب له ، وان حسن الظن فى قدرته على أن يدمجها ويجعلها خير قوة حربية ممكنة ، فى الحدود الضيقة التى تحدها الآن .

واذن فعليه أن يطمئن الى أن دول الميثاق عازمة على زيادة هذه القوة التى لا تكاد تبلغ الآن ولا فى المستقبل القريب ، عشرين فرقة ، حتى تصير خمسين فرقة أو ستين — ثلثها على الأقل فرق شاكية الدروع — تواجه من ناحية الشرق فرق الجيش السوفييتى

وجيوش الأتباع التى تزيد على مئتى فرقة . والظفر بالعدد المطلوب من الفرق لا يكفى ، بل ينبغى أن يزداد الانتاج الحربى فى دول الميثاق ، حتى تزود هذه الفرق بقدر واف من أحدث السلاح ، فان لم تفعل فحل جميع المشكلات التالية ، على وجه يرضى ، ليس فيه غناء ولا جدوى ، والدلائل تترى على أن الولايات المتحدة وبريطانيا قد حزمت أمرهما على هذا ، ويغلب أن تحذو فرنسا حذوهما بعد مؤتمر وشنطن بين ترومان وبليفن .

وأما المشكلة الثانية فهى مشكلة التوجيه السياسى الذى يتلقاه القائد الأعلى وممن يتلقاه . أفرض" واجب عليه أن يقضى وقته متنقلا فى الطائرة بين الولايات المتحدة وأوربا ، وبين عواصم دول الميثاق فى أوربا نفسها ، ليظفر من رؤساء الوزارات ووزراء الدفاع بالموافقة على كل خطة يراها هو وأعوانه ! فان فعل ضاق وقته عن النهوض بمهمته التى هى فى أساسها حربية فنية . فينبغى لدول الميثاق أن ييسروا عليه اتصاله السياسى بحكومات هذه الدول ، حتى يستطيع أن يفرغ أكثر ما يفرغ للشئون الحربية التى تلقى عادة على كاهل قائد عام .

وأما المشكلة الثالثة فهى انشاء هيئة عامة لأركان الحرب ، تؤدى ما عليها خير تأدية وأجداها ، وقد اختار ايزنهاور لرياسة أركان حربه قائدا مشهودا له بالقدرة هو الجنرال جروتتر الأمريكى . وقد روى أنه عرض على المارشال مونتجمرى أن يكون نائبا للقائد العام . وعلى الجنرال جوان الفرنسى أن يكون قائدا للجيش الأطلسى فى أوربا . ولكن ذلك لا يغنى عن جماعة متعاونة من خيرة الضباط الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين ، لرأيها سلطان العلم

والتجربة وقد قيل ان خيرة هيئة لأركان الحرب لا يسعها وحدها أن تنال النصر فى حرب، ولكن فى وسعها ان لم تحسن العمل أن تخسرها .

وأما المشكلة الأخيرة ، فهى وضع خطة محكمة للدفاع عن غرب أوربا ، وهذه الخطة ينبغى أن تكون مفصلة ، تشمل فيما تشمل أقل قدر من القوة الحربية يكفى للنهوض بالمهمة التى ألقيت الى جيش الدفاع الأطلسى ، وتقدير المكان الذى ينبغى أن تدور فيه المعارك الرئيسية — اذا نشبت الحرب — وكيف تدار ، وتعيين المواقع التى يتم فيها تدمير المنشآت ، وبث الألغام ، ونسف الكبارى ، وحماية الطرق ، والمحافظة على الأمن الداخلى من التخريب وما أشبه . وقد نهض رجال قيادة مونتجومرى فى فونتنبلو بجانب يذكر من هذا العمل ، ولكن القيادة الجديدة ينبغى لها أن تأخذ كل ذلك وتضيف اليه ، وتفرغه فى قالب خطة منسقة تفرض الاقناع على الحكومات ، فالفترة التى يستغرقها تحويل خطة حربية على الورق ، الى فرق وفصائل ومعدات فى هذا العصر ، هى فى الغالب فترة غير قصيرة ، والمبادرة الى وضع هذه الخطة واجب لا مفر منه ، فاذا لم تبذل الدول الغربية مجهودا هائلا منسقا فى أقصر وقت ، سبقتها الحوادث والأيام .

هذا الميزان المحيّر بين مواطن القوة والضعف فى الفريقين ، والمضطرب بين مخاوف الناس وآمالهم ، قد يجنح الى شىء من الاستقرار ، فى التقدير الحربى ، اذا مالت كفتا القوة الى التكافؤ ، قبل أن تنطلق الكارثة من عقالها . أما ما قد يكون بعد ذلك ففى ضمير الغيب ، وهو عرضة لكل تقدير ، ففترة الشهور المقبلة هى الفترة التى يحف بها الخطر من كل جانب .

فهرس

رقم الصفحة

رقم الصفحة



الثمن ٤٠ قرشاً

